



Princeton University Library



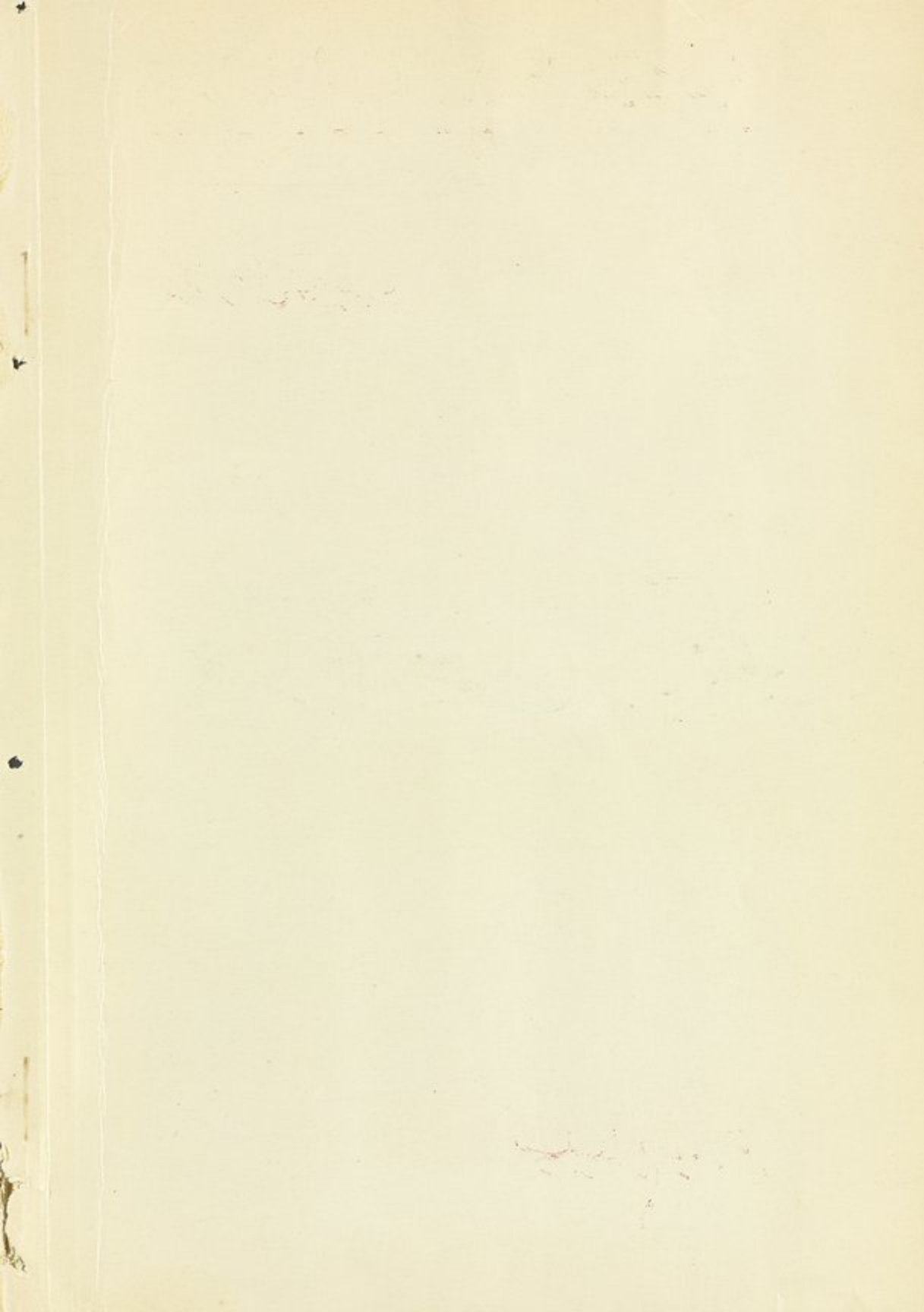
32101 072571241

دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

الدكتور جمال المحاسب

علم الاجتماع الريفي

سلسلة علم الاجتماع
١



al-Muhāsib, Jamāl

دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

الدكتور جمال المحاسب

“Ilm al-ijtimā‘ al-rīfī”

علم الاجتماع الريفي

سلسلة علم الاجتماع
١

مفرد الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

مواد علم الاجتماع الريفي

أ - علم الاجتماع الريفي :

١ - موضوعه وطرائقه

٢ - خصائص الحياة الريفية

٣ - الحياة البدوية والحياة القروية

ب - الوسط الطبيعي للحياة الريفية :

١ - تأثير العوامل الايكولوجية على حياة السكان إجمالاً وعلى الريف خاصة

٢ - نماذج من المناطق الريفية في سورية والشرق الأدنى

٣ - نماذج من المناطق الريفية في القارات الخمس إجمالاً

ج - العوامل الحيوية والاقتصادية :

١ - الملكية الزراعية . أنواعها . تطورها . مستوى المعيشة في الريف .

٢ - سكان الريف . فئاتهم . توزيعهم . الولادات والوفيات . الامراض إجمالاً

٣ - الهجرة من الريف إلى المدينة ومن المدينة إلى الريف

٤ - تطور سكان الريف . تطور القرى

د - العوامل الاجتماعية والنفسية :

١ - الطبقات الاجتماعية في الريف . الصراع الاجتماعي . التنافس

٢ - التآلف . التضامن . التعاون الريفي

٣ - الأسرة الريفية . المراسيم وحفلات الزواج

٤ - العادات والتقاليد والمعتقدات في الريف (الفولكلور)

٥ - المدرسة الريفية وخصائص التعليم الريفي

٥ - نتائج وتطبيقات حول اصلاح الريف وانهاش القرى :

المشكلة الصحية ، المشكلة الاقتصادية ، المشكلة العائلية والتربوية ، الخ ...

واجبات الحكومة ، واجبات الاهالي والجمعيات التعاونية



يتألف الكتاب من المحاضرات التي ألقيتها على طلاب السنة الثالثة الذين يهيئون شهادة علم الاجتماع في كلية التربية بالجامعة السورية. والمحاضرات في مجموعها تؤلف فكرة موجزة عن علم الاجتماع الريفي الذي هو فرع جديد من فروع علم الاجتماع العام . وقد قررنا تدريسه في الجامعة السورية لأول مرة في تاريخ الجامعة عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ . وكان من نصيبي أن أفتتح هذا التدريس في عامه الاول . فهذه المحاضرات إذن هي الاولى من نوعها تلقى في الجامعة السورية ، لذلك يعوزها الكمال في كثير من النواحي ، ورجائي أن تتكامل شيئاً فشيئاً ويصبح الكتاب في الطبعات القادمة أقرب إلى الكمال المتوخى . على أنها مها تكاملت سوف تبقى إلى زمن بعيد متصفة بالطابع المحلي ، وذلك لسببين : (١) أن علم الاجتماع وهو العلم الذي وصفه أوغست كونت بكثرة التعقيد وقلة العمومية أي بكثرة التضمن وقلة الشمول لن يأتي قبل مضي زمن كافٍ ، بأمثلة كلية كالرياضيات التي تنطبق أحوالها في كل زمان ومكان ، وهو مها تجرد عن الاحوال الخاصة يحتاج إلى الرجوع إليها في سبيل الايضاح على الأقل . وهذا اللجوء إلى الاحوال الخاصة يكون أكثر لزوماً في فرع جديد من فروع علم الاجتماع ألا وهو علم الاجتماع الريفي الذي يكاد يكون محلياً قبل كل شيء ، وهو لأنه حديث يبدأ حتماً بمرحلة الوصف والتصنيف ، ثم بمد جهود جبارة في البحث

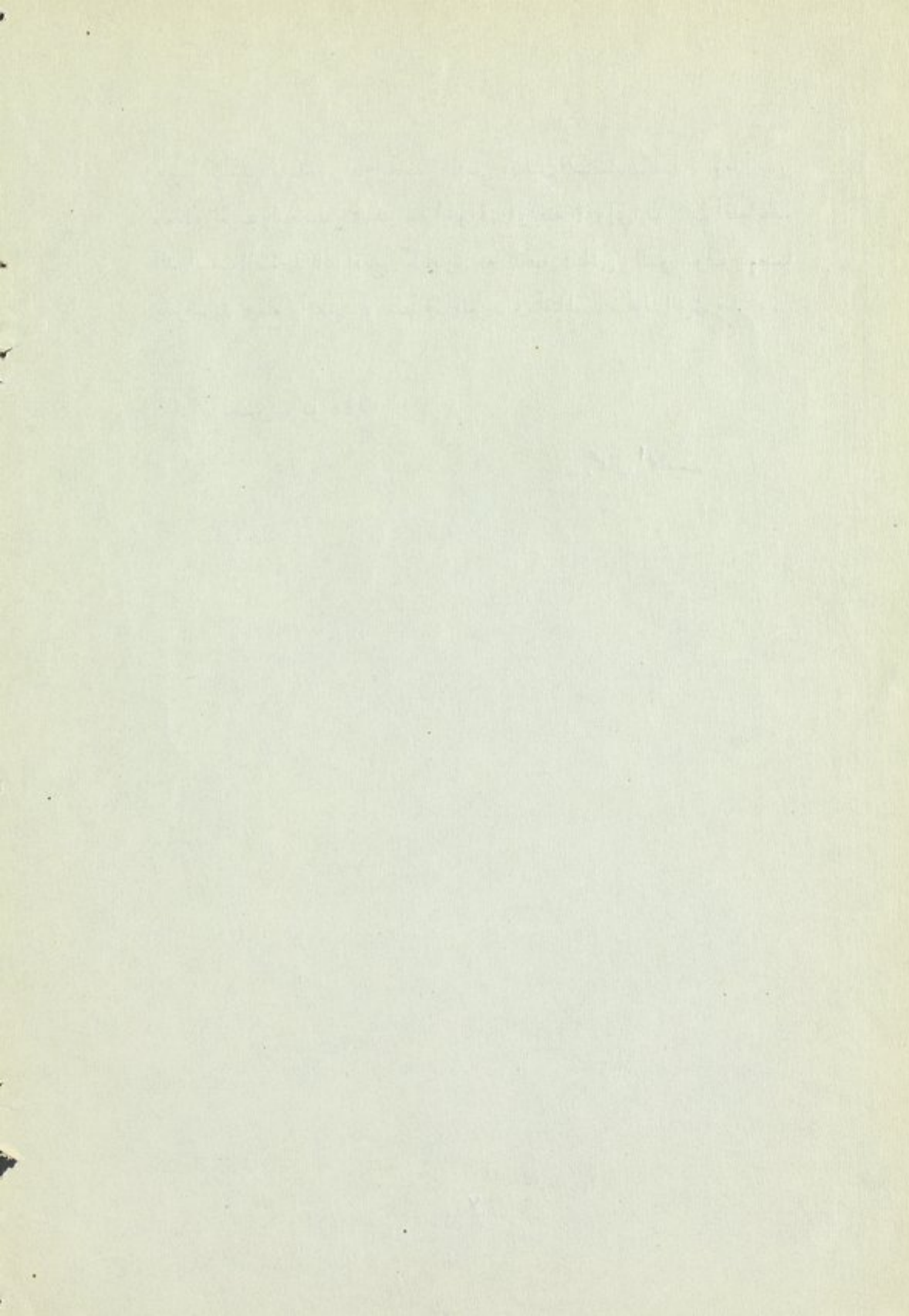
والاستقصاء يبلغ مرحلة الاستقراء وأخيراً بعد جهود مماثلة يبلغ المرحلة الثالثة التي هي مرحلة الاستنتاج . ٢) إن الامثلة المحلية لا بد منها في تدريس خاص بكلية خاصة ككلية التربية . وقد أصبح مبدأ الانتقال من الخاص إلى العام من البديهيات التربوية التي يذكرنا بها المربون في كل المناسبات ، لذلك راعيت هذا المبدأ في بحوث الكتاب وأمل أن تكون الطبعة الثانية منه حاوية على أمثلة محلية أخرى متنوعة من الشرق والغرب (بما فيه أوروبا وأمريكا) ومن العالمين القديم والحديث . ومرادي أن يقارن القارئ بين أحوال خاصة عديدة حتى ينتهي إلى كليات علمية مجردة ، وهكذا يتم الانتقال الطبيعي بالتدرج من علم الاجتماع المحلي إلى علم الاجتماع المقارن إلى علم الاجتماع الكلي .

والبرنامج الذي قررته في التدريس ، كما هو مبين في الصفحتين السابقتين ، أوسع بكثير من الكتاب المطبوع لأنه يرمي إلى فسح المجال للطالب حتى يطالع الكتب الأجنبية التي أخص بالذكر منها الأمريكية . فقد عني العلماء الأمريكيون بعلم الاجتماع الريفي منذ نصف قرن حين توسعت المدن في بلادهم توسعاً عجيباً وتطورت الجماعات بشكل سريع من الحياة الريفية إلى الحياة الحضرية إلى الحياة المدنية المعقدة ذات المدن الكبيرة كواشنطن ونيويورك وشيكاغو . والشرق اليوم يمر في الأدوار ذاتها التي مرت بها أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر . فهذه دمشق وبيروت وحلب تتسع اتساعاً محسوساً في كل عام ويزداد سكانها يومياً ولن يمضي نصف قرن حتى تظهر أرقام الإحصاءات بالملايين عوضاً عن الآلاف وقد أضحت تاريخياً ذلك العهد الذي كنا نتكلم فيه عن عمان كقرية كبيرة وعن المملكة الأردنية كأمانة للأمير عبد الله . فالحياة الريفية أمست موضوعاً طريفاً للدراسة العلمية وأدوات العيش فيها تعتبر اليوم من الأشياء المتحفية التي ينبغي أن يعنى العلماء بمعرفتها أولاً كأشياء طريفة تثير حب الاطلاع لابتعاد الانظار عنها ،

ثانياً كأمشياء مفيدة لربط الحاضر بالماضي وتعليل المستقبل بكلشياء . وما أجدد
العلماء العرب بالتخصص في دراسة أحوالهم الريفية ؛ وإني إن كنت أقدم هذه
الدراسات الصغيرة فإنما أقدمها كبادرة خير للجيل الناشئ الذي سوف يتبعها
بدراسات أوسع وأعمق . وقديماً قال العرب في أمثالهم : « أول الغيث قطر » .

دمشق يوليو ١٩٥٥

جمال المحاسب



البحث الاول

أين يقع علم الاجتماع في مجموعة العلوم؟

أين يقع علم الاجتماع الرفي في علم الاجتماع؟

الإجابة على السؤال الاول يكفي أن نتذكر تصنيف أوغوست كونت للعلوم . إذ رتب هذا الفيلسوف العلوم الأساسية بالترتيب الآتي :

الرياضيات ، الفلك ، الفيزياء ، الكيمياء ، علم الحياة ، علم الاجتماع .

وليس من موضوعنا أن نناقش هذا التصنيف في جميع تفاصيله بل نقول انه قابل للتعديل ويكون تعديله بالشكل الآتي :

الرياضيات ، الميكانيك ، الفيزيكياء ، علم الحياة ، علم الاجتماع ، علم النفس .

وقد ارتكز أوغوست كونت في تصنيفه على مبادئ تعرفونها أهمها المبدأ المضاعف الذي يسميه مبدأ التعقيد المتزايد والبساطة المتناقضة . ان هذا المبدأ المضاعف فسره أوغوست كونت تفسيراً عاماً اجمالياً لذلك يمكن ان نزيد على

هذا البحث مستقى من كتاب :

J. Mouhasseb : Essai sur la classification des sciences p. 168

تفسيره بعض المعادلات الرمزية .

فإذا نظرنا الى موضوع العلم نظرة سكونية Statique أي من حيث هو « شيء » ينتج معنا ان موضوع الرياضيات هو الشيء الأبسط فيزيد عليه موضوع الميكانيك شيئاً آخر ثم يزيد عليه موضوع الفيزيكيا شيئاً آخر وهكذا كما في المعادلات الآتية :

موضوع الرياضيات = ش

موضوع الميكانيك = ش + ش

موضوع الفيزيكيا = ش + ش + ش وهلم جرا .

وإذا نظرنا الى موضوع العلم نظرة حركية Dynamique أي من حيث هو « حادثة » ينتج معنا المعادلات الآتية :

موضوع الرياضيات = ح

موضوع الميكانيك = ح + ح

موضوع الفيزيكيا = ح + ح + ح وهلم جرا .

ومن السهل أن نفهم هذه المعادلات إذا تصورنا الحادثة الرياضية أولاً كحركة رياضية . مثلاً تغير كمية الزاوية في المثلث بتغير الضلع المقابل . فإذا ربطنا حركتين من هذا النوع بعلاقة ثابتة ينتج معنا قانون رياضي . مثلاً نقول ان تساوي الزاويتين في مثلث حادثة ثنائية مرتبطة مباشرة بتساوي الساقين كحادثة أولى . فيكون القانون الرياضي هذا الارتباط الثابت . وإذا انتقلنا الآن الى موضوع الميكانيك نرى في الحركة الميكانيكية عنصراً جديداً هو فكرة القوة التي تضاف الى فكرة الكمية الرياضية . ثم اذا انتقلنا الى الفيزيكيا نزيد عنصراً آخر هو

حوادث المادة فيزيائياً وكيميائياً وهكذا حتى نصل الى موضوع علم الاجتماع الذي يحوي عناصر متنوعة في مواضيع العلوم السابقة . مثلاً حادثة الثورة أو حادثة الحرب تتضمن عناصر رياضية أولاً (كجداول وتصميمات يرسمها المهندسون) ثم عناصر ميكانيكية وفيزيائية (الاسلحة وتوابعها) ثم عناصر بيولوجية (مؤونة الجيش) ثم عناصر اجتماعية (مجموعة الافراد وتفاعلهم اجتماعياً) .

فموضوع علم الاجتماع يتصف بالتعقيد وهذا سبب من أسباب تأخر نموه كعلم وضي وتأخر استقلاله عن الفلسفة هو وعلم النفس . ومن المعلوم أن العلوم السابقة استقلت عن الفلسفة في أوقات مختلفة وكان استقلالها من حيث التاريخ الزمني متناسباً مع درجة البساطة في موضوعها . لقد استقلت الرياضيات مع أقليدس (نحو ٣٠٠ ق.م) والميكانيك مع أرخميدس (القرن الثالث ق.م) . واستقلت الفيزياء مع غاليله (١٥٦٤ - ١٦٤٢) والكيمياء مع لافوازييه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) وأخيراً علم الحياة مع لامارك وكلود برنار (في القرن التاسع عشر) أما علم الاجتماع وعلم النفس ففي وقتنا هذا على مرأى منا ولا تزال قضية استقلالهما قيد البحث والمعالجة .

اننا فضلاً عن تعديلنا تصنيف أوغوست كونت كما ذكرنا نلفت النظر الى اضافة علم جديد ينبغي ان نعلن استقلاله قبل استقلال علم الاجتماع هو علم « الايكولوجيا Ecologie » الذي نضعه بين علم الحياة وعلم الاجتماع . ونقصد بعلم الايكولوجيا كما يعرفه العلماء المعاصرون بأنه العلم الذي يدرس آثار البيئة الخارجية في الفرد والجماعة وآثار هذه في البيئة . غير أننا نعرفه تعريفاً واسعاً وننظر اليه من حيث معناه الاشتقائي . فكلمة Oikia اليونانية تدل على البيت

من حيث هو (بيت وعائلة) ومن حيث أن العلاقات بين المحيط والداخل هي علاقات اقتصادية . فنضيف الى هذا العلم كل الدراسات الاقتصادية التي يدرسها علم الاقتصاد دراسة موضوعية . فالحوادث الايكولوجية في الواقع تدور حول البيت فهي من البيت والى البيت . أما ما يبق من الدراسات الاقتصادية التي ندرسها دراسة ذاتية فهذه تبقى في نطاق علم الاجتماع الذي يحتفظ بناحية ذاتية ما دام يدرس المجتمع في تأسيساته المعنوية .

واذا رمزنا الى الموضوع الرياضي بنقطة هندسية ثم الى الموضوع الميكانيكي بنقطة يدور حولها سهم ، ثم رسمنا الموضوع الفيزيائي كما يرسمه الفيزيكيون بشكل دائرة ذات مركز تحيطه دوائر صغرى ، ثم رسمنا الموضوع البيولوجي بشكل خلية معقدة أكثر من الدائرة السابقة ، فاننا نرسم الموضوع الايكولوجي وهو بيت عائلة بشكل دائرة معقدة أكثر من الخلية . وذلك تبعاً للترتيب الذي ذكرناه في النظرة السكونية لموضوع العلم .

أما وجهة نظرنا في جعل علم النفس يتلو علم الاجتماع ويأتي بعده لا قبله ، فذلك مركّز على مبدأ نسميه مبدأ الزمن المتزايد . فاذا كانت النقطة الهندسية التي رمزنا بها للموضوع الرياضي تمثل فكرة المكان بدون زمان فان الموضوع الميكانيكي يبدأ بادخال فكرة الزمان مع مفهوم الحركة . ثم تزداد أهمية عنصر الزمان كلما نزلنا في سلم العلوم من الأعلى الى الأسفل . مثلاً في الفيزياء يصبح الزمان شرطاً من شروط الحادثة . وفي علم الحياة شرطاً ضرورياً أساسياً إذ نجد ثمرة من الثمرات لا تنضج إلا في وقت معين وبعد مضي وقت معين . وفي علم الاجتماع كذلك نجد كل تأسيس اجتماعي لها زمانها . وفي علم النفس يكفي أن نقول ان الحادثة النفسية لا تمر في المكان بل في الزمان . فكأن موضوع العلم

اجمالاً ينحصر بين المكان المطلق والزمان المطلق . ينتج مما سبق أن علم الاجتماع يمكن أن يكون آخر العلوم في القائمة على أن يتلوه علم النفس الذي سوف يتكامل شيئاً فشيئاً مع تكامل البشرية .

بقي علينا أن نجيب على السؤال الثاني : أين يقع علم الاجتماع الريفي في علم الاجتماع ؟ إن مبدأ التعقيد المتزايد يفيدنا أيضاً في ترتيب أقسام كل علم ترتيباً موضوعياً لأن كل علم في الواقع ينال أقسامه الثانوية من وجود العلوم السابقة وتعبير آخر أن كل علم ينقسم مبدئياً الى أجزاء عددها يساوي العلوم المتقدمة عليه . مثلاً علم الحياة ينقسم الى : (١) علم الحياة الرياضي (٢) علم الحياة الميكانيكي (٣) علم الحياة الفيزيوكيميائي . فاذا قررنا هذه الاقسام الخارجية نضيف حينئذ الاقسام الداخلية وهي بالنسبة لعلم الحياة : علم التشريح ، وعلم الفيزيولوجيا .

فبالنسبة لعلم الاجتماع يكون الترتيب الموضوعي لأجزائه كما يلي : (١) علم الاجتماع الرياضي (٢) علم الاجتماع الميكانيكي (٣) علم الاجتماع الفيزيوكيميائي (٤) علم الاجتماع البيولوجي . الخ . . . ثم نضيف إلى هذه الاقسام الاقسام الداخلية .

غير أن الاقسام الداخلية لا تخضع الى قاعدة موحدة كالاقسام الخارجية فكل عالم له تصنيفه في هذا الصدد . وقبل تعداد بعض هذه التصنيفات يمكن أن نفهم معنى الاقسام الخارجية بالأمثلة :

فعلم الاجتماع الرياضي هو العلم الذي يدرس العلاقات الرياضية في الحوادث الاجتماعية ويسمى عادة بالاحصاء الاجتماعي . أما علم الاجتماع الميكانيكي فهو الذي يدرس المجتمع من ناحيتين : أولاً : من ناحية سكونية حيث نوازن بين حادثتين اجتماعيتين إحداهما رد فعل للأخرى . ثانياً : من ناحية حركية حيث نعتبر

كل حادثة اجتماعية نتيجة لما قبلها ويزبط آخر حركة بالحركات الاولى بالترتيب التتابعي . أما علم الاجتماع الفيزيكيائي فهو الذي يدرس اختلاط الحوادث الفيزيكيائية بالحوادث الاجتماعية كالكهرباء مثلاً في المدن وانتشارها في القرى . أما علم الاجتماع البيولوجي فهو الذي يدرس الحوادث الحيوية في الجماعات كالوراثة وأثر العروق ونوع الغذاء في مستقبل الجماعة وما شابه ذلك . فكل قسم يتناول إذن موضوعاً له نوعيته ، ولكن بالنسبة للحوادث الاجتماعية .

فلنا إن الاقسام الخارجية لا يختلف العلماء في تعدادها لأنها موضوعية نسبياً . أما الاقسام الداخلية فهي التي يختلف العلماء في تعدادها .

فهناك من يقسم علم الاجتماع إلى قسمين : (١) علم الاجتماع السوي . (٢) علم الاجتماع المرضي . ثم يضاف إلى هذين القسمين قسم ثالث : (٣) الإصلاح الاجتماعي كعلم تطبيقي .

وهناك من يقسم علم الاجتماع بالنسبة إلى التأسيسات المشهورة فينتج منها الاقسام الآتية : (١) علم الاجتماع الاخلاقي . (٢) علم الاجتماع القانوني أو التشريعي . (٣) علم الاجتماع الاقتصادي . (٤) علم الاجتماع السياسي . (٥) علم الاجتماع التربوي . الخ ...

غير أن أفضل التقسيمات هي التي تراعي التزايد في الكمية بحيث نعتبر الفرد أولاً كنقطة مركزية نحيطه بدائرة صغرى هي الأسرة ثم بدائرة أكبر هي المدرسة أو المهنة ثم بدائرة أكبر هي القرية أو المدينة ثم بدائرة أكبر هي الوطن ثم بدائرة أكبر هي البشرية جمعاء . فبقدر ما يوجد من دوائر يوجد فروع لعلم الاجتماع نذكر منها ما يلي : (١) علم الاجتماع الفردي . (٢) علم الاجتماع العائلي . (٣) علم الاجتماع المدرسي والتربوي . (٤) علم الاجتماع المسلكي والاقتصادي . (٥) علم الاجتماع الربفي . (٦) علم الاجتماع المدني . (٧) علم الاجتماع الوطني

والسياسي. ٨) علم الاجتماع الدولي والأممي.
ويمتاز هذا التصنيف بالمرونة بحيث يمكن ادخال دوائر كثيرة بين الدوائر
المرسومة وذلك تبعاً للأوضاع الاجتماعية التي نلاحظها . وإذا كانت هذه الدوائر
قابلة للتغيير فما ذلك إلا لأن الجماعات نفسها قابلة للتطور والتداخل . فمجموع هذه
الدوائر إنما هو تابع متحول لمجموع الجماعات . وهكذا يجوز ادخال دائرة القرية
بين دائرتي الأسرة والمدينة فنعتبر علم الاجتماع الريفي جزءاً داخلياً يقع بين علم
الاجتماع العائلي وعلم الاجتماع المدني .



البحث الثاني

علم الاجتماع الريفي : طرائقه ومفاهيمه

Rural sociology : Methods and concepts

علم الاجتماع الريفي هو علم وصفي وتحليلي للحياة الريفية بما فيها من تأسيسات Institutions وجماعات Groups . هو فرع من علم الاجتماع العام كسائر الفروع الأخرى التي نذكر منها علم الاجتماع الحضري (Urban sociology) . وإذا قلنا انه فرع من علم الاجتماع العام فلا نقصد من ذلك أنه مجرد « تطبيقات اجتماعية » كتحسين الحياة الريفية وإصلاحها . ان علم الاجتماع الريفي Rural sociology « كعلم » هو دراسة المجتمع الريفي بالطرائق العلمية المتبعة في علم الاجتماع العام ، وهذه الدراسة شيء يختلف عن التطبيقات العملية التي تنتج عن علم ما يدرس المجتمع الريفي ليفيده .

على أنه لا يفهم من ذلك عدم اهتمام العالم الاجتماعي بتحسين الحياة الريفية ، بل يراد أن يكون عالم الاجتماع وضعيا حين يدرس المجتمع . فهو يبحث عن الحوادث الخاصة بالمجتمع الريفي ويسمى في ربطها بعلاقات علمية ويصف بأكبر

هذا البحث مستقى من الكتب التالية :

L . Nelson : Rural sociology , N . Y . 1948

S . C . Dodd : Social relation in the Middle East , Beirut , 1946

حسن سفيان : أسس علم الاجتماع . القاهرة ١٩٥٣

دقة ممكنة سلوك أهل الريف في محيطهم الريفي والعوامل التي تسبب هذا السلوك. والعالم الاجتماعي كعضو في المجتمع ، لابد وأن يهتم في الإصلاح الاجتماعي وفي التطبيقات التي قد تنتج عن تحرياته العلمية . لذلك ينبغي أن نشير الى ضرورة التقيد بالطريقة العلمية أثناء البحث العلمي ، وبعد ذلك يتاح للعالم أن يمارس تأثيراته كمواطن حين يكون خارج الدائرة العلمية .

عرفته بالعلوم الاجتماعية الأخرى :

هنالك علوم اجتماعية أخرى يعرفها كل طالب . مثلاً علم الاقتصاد Economics الذي يدرس العلاقات الناتجة عن فاعلية الانسان حين يملك أملاكاً أو يقدم خدمات ويبادلها أو يوزعها بشكل تقود . هناك أيضاً علم السياسة Political science الذي يدرس أشكال الحكومة ووظائفها . هناك أيضاً علم الانسان Anthropology الذي أثار انتباهنا أولاً إلى دراسة الانسان القديم ثم إلى دراسة الانسان الابتدائي المعاصر ، هناك أيضاً التاريخ History الذي يدرس الماضي البشري ويصف الوقائع الاجتماعية ومشكلاتها . كل هذه المواضيع تبين جهود الفكر البشري في فهم « العلاقات الاجتماعية » . وكلها تدل على وجهات النظر المختلفة فيما تحويه قليلاً أو كثيراً من دراسة المجتمع وبما تختص به من طرائق وتعابير علمية Terminology .

على الرغم من تقسيمات علم الاجتماع وتقسيم تقسيماته . فهناك وحدة أساسية في موضوعه ووحدة متكاملة في طريقته ووجهة نظره . فالأخصائيون المختلفون في علم الاجتماع سواء الاقتصاديون أو علماء السياسة أو علماء النفس والاجتماع أو المؤرخون ، لا يقف أحدهم الازاء ناحية واحدة من هذه الوحدة التي هي « الحادثة الاجتماعية » . فتبادل النظر واشتراك الافكار يساعدنا شيئاً فشيئاً على شرح طبيعة الانسان وطبيعة المجتمع . لذلك كان على علم الاجتماع الريفي أن يقدم

إلى العلم العام دراسة جزء من هذه الوحدة . فهو بدراسته المجتمع الريفي يمكن أن ينضم إلى العلوم الاجتماعية الأخرى مستوحياً من الطريقة العامة طريقته الخاصة ومن التعابير المشتركة تعابير الفرعية التي تساعد بقدر المستطاع على وصف المجتمع الريفي وفهمه .

العلم والطريقة العلمية :

يمكن اعتبار كل علم اعتبارين : أولاً كمجموعة من الحقائق اليقينية ، ثانياً كطريقة للدراسة . فالطريقة هي الصفة الجوهرية في العلم لأنها هي التي تحدد قيمة النتائج ، واليقين إنما يحصل إذا كانت سلسلة العمليات الفكرية من تحليل واستدلال يقودها ذكاء حاد مع شك منهجي لا يقبل النتائج إلا بعد تمحيص . مثل هذه العمليات لا تجري إلا إذا تمتع العالم بصفات وأوضاع خاصة . ينبغي مثلاً أن يكون صبوراً ودؤوباً على متاعب العمل وينبغي أن « يجابه الواقع مباشرة » ويتخلى عن أهوائه وغاياته إلى غير ذلك من الفضائل العلمية التي يتحلى بها علماء الاجتماع ولا بد منها .

وفي علم الاجتماع الريفي إذا كانت القوانين ليست عامة كما هي في العلوم الفيزيائية وكانت وسائل الملاحظة والاحصاء غير كافية للتعميم الواسع ، فإنه مع ذلك يوجد مجال لبعض التعميم في السلوك البشري الذي يمكن ملاحظته بدقة . كما أن الاعتقاد بنظام الطبيعة يفسح المجال لجهود جميع العلماء في هذا الميدان .

الملاحظة الدقيقة كصفة جوهرية للعلم :

الملاحظة الدقيقة شرط أساسي لنمو العلم . وهي ذات علاقة بأعضاء الحس والادراك في الإنسان . ولكن هذه الأعضاء لا ترينا إلا الصفات الكيفية للحادثة . إذ نستطيع أن نقول هذا الشيء حار أو بارد ، وهذا الصوت حاد أو منخفض .

نستطيع أن نقول فقط إن هذا الشيء حار جداً أو بارد جداً ، فالحواس بحاجة إذن إلى دلائل قياسية . نقول إن الطاولة طويلة ولكن بفضل اليرد تقيسها بدقة ، وبفضل المقاييس تتقدم الملاحظة العلمية . والعلوم الاجتماعية إنما تقدمت حين أتيج لها القياس الكمي ، وقياس الذكاء في علم النفس مثال صالح عن هذا التقدم كما أن الاحصاءات الاجتماعية صبغت علم الاجتماع بصيغة كمية .

الوصف الكيفي كأداة علمية :

إذا كان الوصف الكمي قد سبب تقدماً في بعض الدراسات الاجتماعية ، فإن الحياة الاجتماعية مازال في أكثر نواحيها غير قابلة للقياس ولعلها سوف تظل كذلك . إذ كيف تقيس شدة الإيمان الديني وكيف تقيس التعلق العائلي بين أعضاء الأسرة أو العاطفة المحلية بين الجيران في قرية ما ؟ ان الملاحظة الكيفية لا بد منها في علم الاجتماع وسوف تبقى أداة ضرورية على الرغم من عدم دقتها . وطريقة هذه الملاحظة هي على الاغلب « التحليل الكيفي » . اذ الباحث يفحص سلوك القرويين أثناء الحرب مثلاً ، أو يدرس تاريخ حياة الفرد بتحليل مذكراته وآثاره ، كما أنه يدرس تأسيساً ما يتتبع نموها منذ البدء حتى آخر مراحلها مستخدماً في ذلك المستندات التاريخية وأخبار الرواة ومنابع أخرى ، فالوصف الكيفي يلعب دوره هنا وكلا الوصفين الكيفي والكمي يكامل أحدهما الآخر .

المفاهيم والاصطلاحات كأدوات للتحليل :

المفاهيم الاجتماعية تأخذ معناها من الحادثة نفسها . وبعض أنواع السلوك الاجتماعي معبر عنه في بعض الالفاظ بحيث يكفي اللفظ على الدلالة التامة . مثلاً نستعمل في علم الاجتماع كلمة « جماعة أولية » Primary group وجماعة ثانوية

Social process وتزعزع اجتماعي Institution وتأسيسه Secondary group وصراع Conflict وتكيف Accomodation وتمثل Assimilation وغير ذلك . فاذا درس أحدنا جماعة ما ، يتاح له أن يقول فيما إذا كانت أولية أو ثانوية ، أو فيما إذا كان تمت صراع وما هي طبيعته وشدته أو فيما إذا كان تمت علاقات بين الجماعة وأخرى وكيف يتزعزع تكيفها أو تمثيلها .

فهذه الاصطلاحات تصبح لغة علمية بين الباحثين وبفضلها يسهل التفاهم المشترك وانتقال الأفكار . وهكذا بعد أن يتفق الباحثون على تعريف الجماعة الأولية فلن يحتاج أحدهم إلى وصفها في كل مرة وتحليل سلوك أفرادها للتعبير عما يقصد ، كما أنه يطمئن على أن الذين يطالعون تحرياته يفهمون الاصطلاح . مع ذلك ينبغي أن لا يغرب عن الذهن أن علما حديثا كعلم الاجتماع لا يتخلو من اصطلاحات قد لا تجمع الآراء على فهمها بمعنى واحد فضلا عن أن كثيرا منها مأخوذ في الأصل من اللغة المستعملة لدى العامة ، فكلمة حضارة أو ثقافة Culture يستعملها علماء الاجتماع ولكن بمعنى يختلف عن مدلولها لدى رجل الشارع .

بعض المفاهيم العلمية :

من قبيل الأمثلة الأولى عن الاصطلاحات الاجتماعية سوف نغنى بتحديد بعضها كلمة مجتمع Society وثقافة Culture وحضارة Civilization وريفي Rural ومدني Urban . ومع أن المفاهيم تختلف باختلاف المدارس نظريا فنحن واجدون اتفاقا تزداد نسبته أثناء الاستعمال عمليا . على أن الطالب في هذا العلم الحديث ينبغي أن لا يستغرب وجود الاختلافات حول المعاني الدقيقة . فعمل الاجتماع لا يزال ناشئا غير ناضج إذا قارناه بالعلوم الناضجة كالفيزياء والفلك والبيولوجيا .

١ - مامعنى مجتمع Society ؟ يدل هذا اللفظ على جماعة من الناس ذات تفاعل متبادل ، وبدون التفاعل المذكور لا يكون ثمت مجتمع . ولهذا اللفظ معنى واسع يدل على المجموع البشري لذلك ينبغي ان نعلم حين نستعمله هل في معناه الواسع أم في معناه الضيق .

٢ - معنى الثقافة Culture : قد نجد هذا اللفظ لدى علماء الاجتماع مرادفاً لمعنى مجتمع . وقد استعمله علماء الانثروبولوجيا بمذلوله الواسع في كلا الناحيتين المادية والروحية . أما العالم Wallis (١) فقد عرف الثقافة بقوله : « الأشياء الاصطناعية والتأسيسات ونمط الحياة والتفكير التي لا تخص فرداً بل التي تميز جماعة ما » . وكلمة ثقافة أو حضارة ككلمة مجتمع لها استعمالان واسع وضيق . غير أن الميل يتجه على الأكثر نحو الاستعمال الضيق فيقال ثقافة القوم الفلاني وثقافة المنطقة الفلانية . وقد كثر هذا الاستعمال في السنين الاخيرة في كتب علم الاجتماع . فاذن من السهل تمييز كلمتي (مجتمع) و (ثقافة) إذا استعملناها بالمعنى الضيق . وإذا قلنا المجتمع الريفي والثقافة الريفية فنقصد بالأول جماعة خاصة من أهل الريف وبالثانية ثقافة أهل الريف التي تميزهم عن سواهم .

ويمكن تعريف الثقافة أيضاً بقولنا إنها الاسلوب المعيشي والفكري الذي تسير على نمطه جماعة من الجماعات . ويرتب Wissler (٢) العناصر التي تتألف منها الثقافة على النحو التالي . أولاً : اللغة وتشمل طريقة التخاطب والاشارات والرموز التي تستخدم في نقل الافكار والأعمال من شخص إلى آخر . ثانياً : العناصر المادية وتشتمل على العادات في المأكل والمشرب وطرائق النقل والادوات والملابس والأسلحة وأنواع المهن . ثالثاً : الفن ويشمل

(1) Wallis : Culture and Progress , p . 9 .

(2) Wissler : Man and Culture in America , N . Y . 1922

الرسم والنقش والنحت والموسيقا وغيرها . رابعاً : الخرافات والاساطير
والمعارف العلمية . خامساً : الطقوس الدينية وتشمل أشكال الدين والعبادة
ومعالجة المرض وطقوس الموتى . سادساً : الأسرة والتأسيسات الاجتماعية
وتشمل أشكال الزواج وطرق تعيين ذوي القربى والميراث واتجاه الآداب
الاجتماعية والالاعاب والتسلية وغيرها .

فلكل جماعة إذن ثقافة معينة ، والتفرقة التي نجدها في اللغة العادية بين
شعوب مثقفة Kulturvolker وشعوب غير مثقفة Naturvolker ليست إلا
تفرقة معيارية ، بعيدة كل البعد عن المجال العلمي والتعبيرات العلمية الصحيحة
ولا فرق إجمالاً بين الثقافة والحضارة Civilization غير أن بعض علماء الاجتماع
يقصرون كلمة ثقافة على مايسود المجتمع من آراء ومعتقدات ، وكلمة حضارة على
مايسوده من تطور مادي في مجال الصناعة والتجارة والزراعة . ونخص بالذكر
من هؤلاء A . Weber و Keyserling في ألمانيا . وبعضهم يطلق لفظة ثقافة على
كل مايتصل بالناحيتين الفكرية والمادية على حين أن الحضارة في نظرم تقتصر
فقط على الناحية المادية وتعبير آخر ان الثقافة أوسع من الحضارة لأنها تشملها
فكل حضارة هي ثقافة إذن . ونخص بالذكر من هؤلاء Odum و Mac Iver
ان هذه التفرقة لا تقوم على اساس متين لأن تمت تبادلاً مشتركاً بين العناصر المادية
والعناصر الروحية التي تسود جماعة من الجماعات ، فطرق المعيشة ووسائل الانتقال والنظم
الاقتصادية ... تتأثر عادة بما يسود الجماعة من آراء ومعتقدات ، وهذه بدورها
تتأثر بما يحدث من تطور في العناصر المادية السائدة . يضاف إلى ذلك أن تمت
تشاركاً وتضامناً بين مختلف هذه العناصر ، مما يصعب معه أحياناً التفرقة بين
ماهو روحي وما هو مادي . فالثقافة والحضارة إذن مرادفان علميان .

٣ - الجمع والجماعة Aggregate , Group : أنى وجد الانسان فانه يعيش

في « جمع » منظم من بني جنسه . فلم يعثر علماء الانسان في بحثهم عن رجل عاش وحده . غير أن الجمع Aggregate الذي يعيش فيه الانسان قد يكون كبيراً أو صغيراً ، فقد يكون أسرة وقد يكون أمة بأسرها ، وقد يشغل الجمع مساحة كبيرة من الأرض وقد يشغل حيزاً ضئيلاً . كما أنه يتخذ أشكالاً مختلفة ، فركاب سيارة ما ، وطلبة الكلية ، والأسرة والمتجمعون حول حادث ، والجيش وأمة كالأمة العربية ... كل هذه تكون جموعاً ، مما يدعونا الى تحليل بعضها وتعريفه . فالجماعة Group في اصطلاح علماء الاجتماع هي جمع من الناس بين أفرادها تفاعل وتأثير مشترك ، ويقوم هؤلاء الأفراد بأعمال مشتركة منظمة ، للوصول الى أهداف خاصة ، بوسائل محدودة . فالجماعة مثلاً تختلف عن الجماهرة Crowd وهي جمع من الناس تجتمعوا حول حادث مثلاً أو في مظاهرة أو بعد الخروج من مسرح وتمتاز الجماهرة عن الجماعة بأن الاتصال « الشخصي » بين أفرادها أتم وأكمل منه في حالة الجماعة التي قد لا يوجد بينها وبين أفرادها اتصال روحي ومعنوي . ثم ان هذا الاتصال الشخصي يزيد من قوة تأثير الجماهرة على أفرادها ولكن الجماهرة أيضاً تتسم بأنها موقته ، والتفاعل بين أفرادها موقت وليست له صفة الاستمرار الموجود بين أفراد الجماعة .

والجماعة تتميز عن الفئة الاجتماعية Social category . والفئة الاجتماعية هي جمع من الناس يمتاز أفرادها بصفة معينة ، تجعل الباحث ينظر اليهم نظرة خاصة وهذه الصفة تؤدي إلى تفرقة هذا الجمع عن غيره من الجموع الأخرى التي يعيش وسطها . فالرؤى المصدورون مثلاً ، وأرباب المعاشات المتقاعدون والأيتام والارامل ... كل هؤلاء يمثلون فئات اجتماعية . والفئة بهذا الوصف تختلف عن الجماعة في أنه لا يوجد بين أفرادها التفاعل ، والتأثير المشترك الذي يوجد بين أفراد الجماعة .

ولكن ما الفرق بين الجماعة والمجتمع والمجموعة Community ؟ هنا نجد اضطراباً في استخدام التعبيرات ، فكثير من المؤلفين الامريكيين والفرنسيين يستخدمون Group و Society و Community ، في معنى واحد ، وبعضهم يفرق بين هذه التعبيرات تفرقة مشوشة ، مبلبلة . ولكن كلمة (مجتمع) تطلق غالباً (كالجماعة) على جمع من الناس ، يتفاعل أفرادهم ويتعاونون على تحقيق أهداف خاصة ، بوسائل محدودة . ويلاحظ الى جانب ذلك — وهذا ما يفرق المجتمع عن الجماعة — أن المجتمع يشمل أكبر عدد من الأفراد في بقعة معينة ، لهم نمط ثقافي معين Cultural pattern ، ويتصرفون وفق شبكة من النظم التي يخضعون لها ، للوصول الى حل مشاكل حيوية بالنسبة لهم ولاستمرار بقائهم .

أما المجموعة Community فهي تستخدم كمرادفة للمجتمع ، وخاصة للمجتمع المحلي كقرية معينة أو مدينة وأحياناً تطلق على أمة أو طائفة معينة أو اقليم . واهجلاً هي « جماعة من الناس يعيشون متجاورين في منطقة جغرافية ولهم مراكز مشتركة لنشاطهم ومصالحهم ، ويعملون معاً في انجاز المشروعات الضرورية لحياتهم » . على أن علماء الاجتماع يفرقون بين Community و Communalilty التي تختلف عن الاولى في « ان الاشخاص الذين تتألف منهم الجماعة ليسوا متجاورين جغرافياً » فليس هناك جوار جغرافي Neighbourhood . لذلك يجوز تسمية الاولى (مجموعة جغرافية أو مكانية) والثانية (مجموعة معنوية) لأن العامل النفسي هو الرابط الاساسي . ومن أمثلة المجموعة المعنوية بعض الجماعات المتخلخلة التي تعيش في الصحراء أو في المراعي ، وكذلك المجموعة الدينية كمجموعة طائفة معينة مبعثرة في أنحاء الأرض . ف هؤلاء ليسوا متجاورين جغرافياً ولكن يربطهم رباط واحد ومصالح مشتركة إذ أنهم يدينون بفلسفة دينية واحدة ولهم اعتقاد واحد .

ومن الامثلة المشهورة عن المجموعة Community المجموعة الريفية Rural O. والمجموعة المدنية Urban O. ولكل منها خواص معينة ، كما تسودها روح خاصة ، ويختص بدراستها فرعان خاصان هما علم الاجتماع الريفي أو المدرسي وعلم الاجتماع المدني أو الحضري . فالمجموعة الريفية تختلف عن المدينة مثلاً من ناحية البنية أي المساكن ونظام السكنى ونسب المواليد والوفيات والحالة الصحية بوجه عام والناحية الثقافية والاقتصادية ، بل وتختلف في النواحي النفسية والأخلاقية إذ للريفيين روح تختلف عن المدنيين ، وتختلف مشاكل المدينة عن مشاكل القرية اختلافاً بينا .

لاشك قد يصعب تحديد معنى الريفي حين تتساءل أين ينتهي الريفي ليبدأ الحضري . هل هناك حدود فاصلة واضحة بين الريفي والمدني ؟ هل تشمل المجموعة الريفية أناساً غير الفلاحين وهل المزارعون كلهم ريفيون ؟ هذه أسئلة لا يجاب عليها قبل أن ندرس في بحث قادم « خصائص الحياة الريفية » . مع ذلك يمكن الإشارة الى بعض الصفات الهامة إذا لا حظنا في المجموعة الريفية أن كل فرد يعرف الآخرين ونسبة هذه المعرفة تنقص كلما انتقلنا من الريفي الى الحضري . وقد أراد بعض الباحثين في أمريكا أن يحدد الصفة الريفية بصفات كمية مثلاً بـ (٢٥٠٠) نسمة وآخرون بـ (١٠٠٠٠) نسمة . ان هذا التحديد لا يتصف بالجبرية لأن بعض المجموعات التي أقل من هذا العدد أو ذاك قد تتصف بصفات حضرية كالقرى الواقعة في مراكز المواصلات أو المصايف المشهورة . كما أن بعض المجموعات التي أكثر من هذا العدد قد تبقى ريفية رغم كثرة سكانها . فهناك صفات أخرى جديرة بالاعتبار وان كانت غير كمية ، وتضاف عادة الى هذه الصفة الكمية كالثقات الأهالي بعضهم الى بعض ومتانة الارتباط والاشترك العاطفي واكثرية الفلاحين وبساطة العيش الطبيعي كالإكتفاء بصيد السمك

(في بعض السواحل النائية) أو محاصيل الغابة (في بعض المناطق المنعزلة)
 كما سوف ندرسه في بحوث قادمة .

وان كانت الارقام في مثل هذه الدراسة لها فائدة فما ذلك الا على سبيل
 التصور الكمي وبفضله يتاح لنا تمثيل المجموعات تمثيلاً نسبياً في الجدول الاتي :

- ١ - مجموعة بيتية Household (مثل عائلة منفردة في مزرعة) = ١٠ نسمة = ١١٠
- ٢ - مجموعة متنقلة Nomadic (مثل نخيم بدوي) = ١٠٠ = ٢١٠
- ٣ - مجموعة ريفية Rural (مثل قرية) = ١٠٠٠ = ٣١٠
- ٤ - بلدة صغيرة Town = ١٠,٠٠٠ = ٤١٠
- ٥ - مدينة عادية City = ١٠٠,٠٠٠ = ٥١٠
- ٦ - متروبوليس Metropolis = ١,٠٠٠,٠٠٠ = ٦٠
- ٧ - دولة صغيرة Small, 2d class Power = ١٠,٠٠٠,٠٠٠ = ٧١٠
- ٨ - دولة كبيرة Large 1st class Power = ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ = ٨١٠
- ٩ - قارة Continental (كآسيا) = ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ = ٩١٠
- ١٠ - العالم World (القارات كلها) = ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ = ١٠١٠

ان هذا التصنيف يحوي أرقاماً صحيحة خالية من الكسور وذلك تسهيلاً
 لحفظها وتصورها . ومن السهل أن نلاحظ أن الحد الأدنى لكل مجموعة يمكن
 أن يضرب بـ (١٠) فيصبح البيت مؤلفاً من فردين والعالم مؤلفاً من بليونين .
 وهو ما يقارب الوضع الحاضر . على أن الأوضاع المثالية التي نتصورها بدون
 حروب وبدون كوارث يمكن أن تحقق هذه الارقام كحدود طبيعية وسطى .

وإذا أتيح للبشرية التفاهم التام فيمكن حينئذ أن تضرب هذه الأرقام بـ (٢) كحد أعلى لكل مجموعة ولا يمكن ذلك إلا إذا تعاونت المجموعات البشرية على استثمار الكرة الأرضية استثماراً كلياً في سبيل تهئية الرزق للجميع . ان هذا التصنيف وان كان خيالياً فهو يرتكز على مبادئ منطقية : أولاً : مبدأ التزايد الكمي . ثانياً : مبدأ التعقيد الكيفي . ونقصد بالتعقيد الكيفي أن كل مجموعة تتصف بتأسيسات خاصة ثم ان المجموعة اللاحقة تزيد على المجموعة السابقة بتأسيسات جديدة قد لا توجد في السابقة .

تصنيف المجماعات Groups

كثرت التصنيفات في البحوث الاجتماعية ولكل عالم تصنيف خاص نكتفي بذكر ما يهمنا منها :

١ — جماعة أولية Primary وجماعة ثانوية Secondary : في الاولى يتأثر الافراد بعضهم ببعض شخصياً ووجهاً لوجه كالأسرة والفرقة الرياضية . أما في الثانية فالتأثير لا يكون وجهاً لوجه بل هو غير مباشر وغير شخصي ، ومن ثم فهو ضعيف نسبياً . وهذا التقسيم هام وان كان بعض العلماء لا يعتبرونه ذا أهمية بسبب أن التأثير الذي يحدث وجهاً لوجه في الأسرة يبدو أحياناً أقل قوة من التأثير غير المباشر . فالتأثير الذي يحدث مثلاً بين أعضاء طبقة اجتماعية كتنقابة عمال أو أعضاء شركة مساهمة ، أو أعضاء اتحاد أصحاب العمل أعظم بكثير من ذلك التأثير الذي يحدث بين أفراد أسرة أو عشيرة أو قبيلة واحدة . ومع ذلك فإن لهذا التقسيم أهميته ، ذلك لأن التأثير غير المباشر يفوق المباشر فقط في المجتمعات المزدحمة والمعقدة التي وصلت فيها الثقافة والتأسيسات الى درجات معينة من التطور . أما في المجتمعات غير المزدحمة والعادية فالتقسيم صحيح وله أهمية من حيث اعتبار القرية

جماعة أولية .

٢ — جماعة طوعية Voluntary وجماعة تلقائية غير طوعية Involuntary

فالاولى تمثل جماعات كرة القدم مثلاً والنوادي والهيئات العلمية حيث ينتمي اليها برغبته وارادته . والثانية تمثل الاسرة والقرية التي يولد فيها الفرد ، والطبقة المهنية Caste التي ينتمي اليها الانسان (في بعض المجتمعات) بحكم مولده . ونجد في كل مجتمع جماعات طوعية كالهيات الخيرية أو السياسية أو الاقتصادية أو جماعات الاخوة والصداقة . لذلك يبدو هذا التقسيم هاماً ولا سيما إذا عرفنا أن هذه الجماعات الطوعية تلعب دورها في الحياة السياسية والاقتصادية وخصوصاً في المجتمع الصناعي الحديث ، حتى أن بعض الأمم الصناعية الكبرى قد أطلق عليها اسم « أمة الواصلين » Joiner أي الذين يصلون ما بين بعضهم بعضاً . وتبدو أهمية هذا التقسيم أيضاً إذا درسنا ما لهذه الجماعات الطوعية من أثر في ظاهرة التمدين Urbanism أي تمصير القرى وتطوير الحياة الريفية نحو الحياة المدنية .

٣ — تنقسم الجماعات من حيث موقفها بعضها من بعض ومن المجتمع اجمالاً : فهناك جماعات ذات نزعة اجتماعية Pro-social وهناك جماعات ضد النزعة الاجتماعية Anti-social تماماً ، كما أن هناك جماعات تميل أو تدعي النزعة الاجتماعية Pseudo-social وأخيراً هناك جماعات لا من هؤلاء ولا من هؤلاء فهي غير اجتماعية Unsocial . فالجماعات ذات النزعة الاجتماعية هي تلك التي تشترك في بناء المجتمع وتعمل على رفاهيته وموقفها دائماً ايجابي انشائي . والجماعات ضد النزعة الاجتماعية هي التي تعمل ضد راحة المجتمع كجماعة اللصوص ومحتربي النشل والقتل . أما التي تدعي النزعة الاجتماعية فهي تشترك مع المجتمع فقط لكي تستفيد من هذه المشاركة واكثرها يكون عالة على المجتمع أو متطفلة على غيرها

من الجماعات الاخرى . وأخيراً الجماعات غير الاجتماعية هي التي تعيش منفصلة كالنوادي الخاصة أو منزلة وحيدة كالقرى النائية أو الواحات . وتبدو أهمية هذا التقسيم في دراسة الاعداد الاجتماعى Socialization إذ يقاس تأصل هذه العملية بقدر ما تشترك الجماعات المختلفة في بناء المجتمع بنصيب إيجابي وبقدر ما تتعاون الجماعات المختلفة على تطويره .

٤ — تنقسم الجماعات كما درسها دور كهايم الى جماعات بسيطة Simples وجماعات مركبة Composées : فالاولى هي التي لا يمكن لاحداها أن تنقسم الى أجزاء أقل منها ولا يلاحظ فيها علامات تدل على أنها مركبة . فالمدينة مثلاً هي جماعة مركبة لأنها قبل وصولها الى شكلها النهائي كانت عبارة عن عدة قرى وكفور ضمت الى بعضها بعضاً . والقرى والكفور هي أيضاً جماعات مركبة لأنها في الأصل كانت عبارة عن عدة قبائل تجمع بعضها مع بعض . ونحن إذا بحثنا في تاريخ المجتمع لا نجد تلك الجماعة البسيطة التي لا تنقسم الى أبسط منها ، ولكن دور كهايم أطلق على هذه الجماعة الوهمية اسم الـ Horde أو المعشر وهو بمثابة النقطة الهندسية في علم الهندسة إذ لا وجود لها عملياً ولكنها مع ذلك لازمة الافتراض لتسهيل البحث العلمي . فهذا المعشر Horde لازم الافتراض لكي يكون نقطة بدء ، لإنشاء سلم اجتماعي تتدرج فيه الجماعات من بسيطة الى معقدة الى أكثر تعقيداً . على أن علماء آخرين أمثال Mauss أثبتوا وجود مثل هذه الجماعة في بعض فصول السنة عند الاسكيمو وخصوصاً في ألاسكا وغرينلاند بل أثبتوا أيضاً وجودها في مناطق متعددة . وهكذا فالمجتمع المركب يتدرج من المعشر Horde الى العشيرة Clan ثم الى ما هو أعقد Phratry ثم الى ما هو أعقد من ذلك كالقبيلة والقرية والمدينة .

البحث الثالث

مفائىص الحياة الريفية اجمالاً

يسهل البحث في الصفات المميزة للحياة الريفية إذا قارناها مع صفات الحياة المدنية . وتبدو بعض الصفات واضحة لكل إنسان . فثقافة أهل المدن تختلف عن ثقافة أهل الريف . والمدن أكبر إجمالاً من القرى وأكثر تعقيداً في البنية بينما القرى هي أصغر وأبسط بنياناً . أما العلاقات الشخصية في المدن فضعيفة بينما هي أقوى في القرى حيث يلتفت الناس بعضهم إلى بعض ويفتح كل صدره للآخر باهتمام .

هذا وقبل ذكر المفارقات لا بد أن نعتف بالمشابهات وهي كثيرة أيضاً في كل أمة وكل دولة . فالدين مثلاً في أمة معينة قد يكون واحداً في المدينة والقرية وإن يكن أهل القرى أكثر تديناً في الدين نفسه . وقد ينقسم الدين إلى طوائف معينة ولكن الطوائف تبقى موزعة في المدن والقرى وكذلك الأحزاب السياسية . ومن حيث النظم الحقوقية بالنسبة للدولة المعاصرة فالمدينة والقرية تجاه القانون سواء . ومن الناحية العلمية نجد العلماء ينبئون في القرى كما ينبئون

هذا البحث مستقى من الكتاب التالي :

Lowry Nelson : Rural sociology, N.Y. 1948

مع اضافة أمثلة محلية من الواقع الشرقي .

في المدن ولا سيما إذا كان النظام الديمقراطي سائداً . وفي هذه الحال يضطر العلماء الكبار إلى ترك القرى لممارسة عملهم في جامعات المدن أو دوائرها الكبرى ولكن هذا لا يمنعهم من بقاء الاتصال في بلدتهم الصغرى المحبوبة على الأقل عاطفياً . وهناك نوع من الاخلاق الوطنية يشترك فيها أيضاً أهل القرى والمدن على السواء كما أن ثمت أخلاقاً قومية كالكرم عند العرب والتمسك ببعض العادات القديمة يشترك فيها الأهالي وإن تكن نسبة التمسك في المدينة أقل في بعض الاحايين ، وذلك لأسباب اقتصادية . فالكرم مثلاً يبقى في القرى أكثر انتشاراً لسهولة تطبيقه (كما في القرى الناعمة) أو لضرورة تطبيقه (كما في القرى النائية) . وبجملة واحدة نقول إن كثيراً من التأسيسات الاجتماعية كالدين والسياسة والتشريع والتربية والاخلاق تشترك فيها القرية والمدينة . فما هي إذن المفارقات بين كليهما ؟ للإجابة على هذا السؤال ينبغي تعداد العوامل الكثيرة التي فرقت بين المجتمعين . وإذا عدنا إلى العامل التاريخي نجد أن أصل المجتمعين واحد . فالطريق الاولى التي سلكها كل من القرية والمدينة هي واحدة ولكن الانحراف حصل بعد مسافة معينة حيث ظهرت المدينة متجهة نحو جهة والقرية نحو أخرى . وبعبارة أخرى إن المدينة أصلها قرية ولكنها تطورت بعد مرحلة ما من نموها تطوراً أسرع وأكبر من تطور القرية بينما بقيت القرية محتفظة ببعض خصائصها مع تطور بسيط من نوع آخر ومن طبيعة أخرى . وإذا شبهنا تيار الحياة الريفية في نهر يجري من أعالي الجبال فنقول إن مياه هذا النهر يتغير لونها حين يجتاز مسافة معينة ويدخل في أراضي معينة حيث ترفده فروع جديدة بمياه أخرى .

في البدء كانت كل شيء ريفياً وقد بقيت أمريكا الشمالية حتى عام ١٩٠٠ ريفية تقريباً . وبعد هذا التاريخ تغير لون الحياة تغيراً محسوساً . والشرق الأدنى يمر في المرحلة نفسها التي مرت بها أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر

فهذه دمشق تتسع لتسع إيساعاً سريعاً وتنقلب الى مدينة صناعية في جهتها الشرقية ، وربما في المستقبل في جهات أخرى . وهذه حلب تتسابق مع دمشق والمستقبل للحص وادلب واللاذقية . وما أدرانا لعل دير الزور بعد عشرين سنة تصبح مركزاً للزراعة الواسعة المنظمة فتكون سبباً للصناعة الزراعية الكبرى بعد ربيع قرن !

وإذا رجعنا إلى تاريخ انكسرا نري الثورة الصناعية قد غيرت وجه المدن والقرى معاً . فاختراع الآلة البخارية (عام ١٧٦٦) وظهور الصناعة الميكانيكية (عام ١٧٨٧) أحدثا توسعاً في المدينة وبالمقابل ضموراً في القرية . وقد نزح العمال نحو المدينة من القرى وشكلوا طبقة اجتماعية وتوسعت المدينة من أجل استيعابهم ونشأ عن هذا التوسع قوانين جديدة احتاج إليها أهل المدن دون أن يلمس ضرورتها أهل القرى . فالتغير في الثقافة إنما هو جواب للحاجات الجديدة التي تنشأ من تغير طبيعة الجماعة . وبقيت القرية ذات سعة ورفاهية بينما ضاقت المدن بسكانها وصارت كل مدينة تحترق المسافات يميناً وشمالاً في سبيل البناء . وكم شجرة خضراء كانت نضرة فنبت مكانها البناء بلونه الرمادي الاصطناعي ثم تراكم بعضه فوق بعض متزايداً ليحوي أكبر كثافة من السكان يخرجون صباحاً إلى معاملهم زرافات وجماعات فتضيق بهم وسائل النقل ويكثر الحشد والزحام وينتج عن ذلك ما ينتج من مسائل ومشاكل .

ولكي نعلم أي ميزة بقيت للريف علينا أن ندرس ظاهرتين فيه : العمل ثم كثافة السكان . أما العمل فهو الزراعة قبل كل شيء* أما كثافة السكان فهي إلى القلة أقرب ما دامت القرية تحتفظ بالصفات الريفية وإلا فزيادة السكان فقرونة بالتطور نحو الحياة المدنية .

العمل الزراعي

مها تعددت أنواع العمل في الريف ، فالزراعة تبقى هي المهنة السائدة التي تحبو الريف صفاته الاساسية . والزراعة إنما هي العملية التي تتضمن مبدئياً انبات النبات في سبيل استهلاكه من قبل الانسان كغذاء أو استخدام أليافه كثياب ، وبالمعنى الواسع تتضمن أيضاً اكثار نسل الحيوان للاستفادة من لحمه ولبنه طعاماً وصوفه وجلده كساء . وإذا اعتبرنا في الشرق الادني العربي ٧٠ ٪ من الناس يعيشون حياة ريفية ف ٦٠ ٪ منهم يزرعون ويتعاطون الفلاحة بمعناها الواسع أي استثمار الارض مع استثمار الحيوان، و ١٠ ٪ بدو رحل يستثمرون الحيوان فقط.

محيط الفلاح أثناء عمله :

يعمل الفلاح في الهواء الطلق خلافاً للعاملين في المدن الذين يشتغلون في جو محصور بعيد عن الشروط الطبيعية . والفلاح مع أسرته الريفية يعيشون في حلقة مغلقة Close association ولكنها وثيقة الصلة بالارض التي يعيشون من محصولها والكائنات الحية التي يستفيدون من نتائجها . ومع أن الفلاح يمارس حياة قاسية في شغله اليومي جسماً فإنه بالمقابل يتمتع بميزة العمل الزراعي فيتعرض إلى أشعة الشمس ويستنشق الهواء النقي ويحتفظ بنسبة كافية من الصحة الجيدة . وبرنامج العمل الزراعي إنما يتحدد سنوياً بتتابع فصول السنة . ففي فصل من الفصول (أواخر الخريف مثلاً) يعني الفلاح بحراثة الارض وبذر البذور أو تقليم الشجر ، وفي فصل آخر (أواخر الشتاء وأثناء الربيع) يعني في صغار الحيوانات الذي يتناسل أو ييوضه للحصول على أفراخه ، كما يعني بادخار منتوج الحليب من جبن ولبن مجفف . وفي فصل آخر (أواخر الربيع وأثناء الصيف)

يعنى بالحصاد وادخار البذور من الحبوب للعام القادم كما أنه يحفف الفواكه والخضار أو يعصرها ليصنع من عصيرها معجوناً قابلاً للحفظ طوال العام. ولعل أهم موسم يجلب الانتباه في سورية والشرق الأدنى إنما هو موسم الحصاد الذي يستنفد في وقت قصير أكبر مجهود من الأسرة الريفية . فترى الفلاح وامراته وجميع الاولاد ذكوراً وأنثاءً يساهمون معاً في هذه العملية التي ينبغي أن تنتهي في وقت قصير محدود . فلا عجب إذا ترك أولاد المدرسة دراستهم أثناء هذا الموسم لمؤازرة آبائهم أو أسيادهم ، بل ينبغي أن يحوي برنامج المدرسة الريفية عطلة رسمية في هذا الموسم خلافاً لبرنامج المدرسة المدنية . وإذا كان هم الفلاح الشرقي يرتكز حول الحصول على الحبوب التي تؤلف الشيء الأساسي من غذائه فإن الفلاح الاوربي - الامريكي يعنى بناحية أخرى يعتبرها مساوية الأولى في الاهمية (إن لم تكن أكثر أهمية منها) وهي المشاركة يومياً على نظافة الحيوان وتربيته على أحسن الطرق التي تكفل الانتاج الصحي ، فجهاد الفلاح الشرقي يمكن أن يوصف بأنه دوري أو موسمي Periodical بينما جهاد الفلاح الاوربي - الامريكي إنما هو جهاد يومي Quotidian .

معرفة الفلاح ومهارته :

كثيراً ما نزهد بثقافة الفلاح ومكتسباته الفكرية إذا اكتفينا بالنظرة السطحية ، مع أن التحليل الكافي ينبغي أن يغير هذه النظرة في الفلاح لنعتبره متمتعاً بمعلومات يجعلها أهل المدن . فلكل فئة من المجتمع ثقافتها الخاصة والفلاح المحرب يمتاز بثقافة لها قيمتها .

١ - فهو أولاً يفهم خصائص أرضه . وكثيراً ما برهن تجاه الاختصاصيين في الايام الاخيرة أنه يفهم أموراً علمية لا يفهمها الفنيون إلا بشكل نظري أبت .

فالأرض الواحدة تختلف خصوبتها من مسافة قصيرة إلى أخرى ، ومقدار السهاد ينبغي أن لا يكون خاضعاً لقاعدة مطلقة كما تذكرها الجداول الرياضية . هذه أمور يعرفها الفلاح بعد حراثة الأرض مدة طويلة منذ طفولته حتى شيخوخته كل عام . فكأنه يعرف طباع الأرض كما يعرف طباع حيواناته . وإذا زرعها في عام ما نوعاً معيناً من المزروعات فهو يعرف أي نوع آخر تصلح زراعته بعد النوع الأول . وإذا درس في المدرسة بعض المعلومات الفيزيائية والجيولوجية فهو يستفيد منها استفادة صحيحة إذا ترك لنفسه مجال إتمام المعلومات بالتجربة الشخصية أو الخبرة الجماعية . وهذه الخبرة نلّس آثارها في الأمثال العامة التي يذكرها الفلاحون في مناسبات عديدة سواء في تعاقب فصول السنة أو في تعاقب مراحل العمل الزراعي .

٢ - والفلاح ثانياً يفهم خصائص الطبيعة . فأنواع الرياح من حيث شدتها واتجاهها وأنواع الأمطار من حيث غزارتها وميعادها ، وآثار الشمس والقمر والليل والنهار كل ذلك معلوم لديه من حيث تأثيره على النبات والحيوان والإنسان وبشكل أدق في إقليمه الخاص ومنطقته التي يعيش فيها .

٣ - والفلاح ثالثاً يفهم طباع الحيوان . فقد يحدثك عن الحصان فتشعر بأنه عالم نفساني بطباع الخيل ، ويحدثك بمثل ذلك عن البقر والجل والخروف والدجاج . لا شك أن الفلاح العربي المعاصر تنقصه معلومات كثيرة عن أنواع الحيوانات الموجودة في أوروبا وأمريكا غير أن اطلاعه عليها مدة قليلة يكفي لإتمام معلوماته . وقد بدأ بعض المزارعين الأغنياء يجلبون أنواعاً جديدة من البقر والدجاج فتعلم فلاحوهم بسرعة كيفية استثمارها . ولهذا الغاية توجد الآن جمعيات أجنبية مثلاً (جمعية أمريكية في قرية النشابية) غايتها تعليم الفلاحين الأصول الحديثة لتربية الدجاج والحيوانات اللبونة ، وقد نجحت عملياً وهي في

طريق النجاح أيضاً . وسوف تكثر أمثال هذه الجمعيات في المستقبل القريب
فيصبح بعضها أهلياً أو محلياً وبعضها حكومياً أو جامعياً قوامه المثقفون
من الفلاحين .

٤ — والفلاح رابعاً يعرف أمراض النبات والحيوان . لا شك أن الفلاح
الشرقي قد لا يعلل تماماً أسباب المرض لأنه لا يزال بعيداً عن المرحلة الوضعية
Positive في تفكيره ، ولكنه مع ذلك من الناحية العملية يتقن بعض العلاجات
الطبية الطبيعية . وسوف يستفيد من العلوم المعاصرة حين تنتشر المدارس
الزراعية والمؤسسات الريفية . ويمتاز الفلاح في أوروبا وأمريكا بأنه طبيب ماهر ،
نباتي من جهة وبيطري من جهة أخرى . وقد أصبح لديه استخدام الآلة
والتلقيح شيئاً مألوفاً يعالج فيه كل يوم دجاجة وخرافه وثيرانه .

٥ — والفلاح خامساً يعرف بعض الآلات الزراعية . فإن كان عربياً
يستخدم المحراث والمنجل ويجري تصليح الأدوات المعدنية من لحم بالنار أو
تجليخ بالفولاذ . وإن كان غريباً فهو رجل ميكانيكي تمتد ثقافته إلى إصلاح
المحركات الصغيرة والاحتفاظ بها أكبر مدة ممكنة . كما أنه يدرك حوادث التيار
الكهربائي والقدرة الكهربائية فيستثمرها على أحسن وجه .

٦ — وأخيراً يعرف الفلاح إدارة المسكن والعائلة . فهو رجل اقتصادي ،
يدخر ما ينبغي ادخاره ويصرف ما يجوز صرفه . وإذا قدرنا مجموع الوارد
السنوي لفلاح متوسط بالليرات السورية أو الدولارات فالتنا نرى أن المجموع أقل
من الوارد السنوي لموظف متوسط في المدينة ، مع ذلك نجد الفلاح أكثر
اطمئناناً في حياته السنوية وأبعد عن القلق بالنسبة لأهل المدن . أولاً لأن مستوى
المعيشة في القرية أدنى منه في المدينة وأرخص نفقة مع كون الحاجات أقل عدداً .
ثانياً لأن الفلاح يختص بنوع من التربية العاطفية ينقلها إلى أولاده فيوفر عليهم

كثيراً من الاحزان ، ورغم أنهم يصبحون مسؤولين (فقد يتزوجون باكراً وينجبون أولاداً) مع ذلك يبقون بفضل إدارته وإشرافه عليهم أقرب إلى الارتياح والطمأنينة من شباب المدن العزب ، يستثنى من ذلك حالات فقر الأب . فقد يمرض أو تموت حيواناته لأسباب قاهرة أو قد يبالغ في اكثار التناسل (وفي الشرق قد يتزوج أكثر من واحدة من النساء) فيضيق الرزق بأولاده ويصبحون بضاعة تصدير نحو المدن ويزيدون بذلك أزمته . وبما أنهم يتحملون المشاق أكثر من أهل المدن فانهم يقبلون في بادئ الأمر أجوراً زهيدة ويعملون في المهن الشاقة .

الزراعة عملية عائلية :

تمتاز الأسرة الريفية بالتعاون الجماعي في سبيل الرزق الجماعي . والأب والأم والاولاد يعملون كلهم معاً وأحياناً بدون تفريق في أنواع العمل بل أحياناً يجتمع الجد والحفيد كالند للند وراء المحراث أو أمام الحفرقة . لا شك أن هناك توزيعاً طبيعياً في الاعمال اليومية ، فالنساء يطبخن ويغسلن ، والرجال يشترون ويبيعون . والرجال ينقلون الاثقال ويقودون المصاعب ليركوا إلى النساء الاشراف على الاطفال وترتيب الاثاث . غير أن هذا التقسيم في العمل لا يمنع الاشتراك الجماعي في العمل الزراعي في كل موسم . وبهذا الاشتراك الاقتصادي يظهر التضامن العائلي في أجمل صورته بالريف .

وتمتاز الاسرة الريفية أيضاً بأن مسكنها يقع في الارض الزراعية نفسها أو ليس بعيداً عنها . نعم لا تخلو كل مدينة من مزارعين أغنياء يعيشون في المدن ولا يزورون القرى إلا لماماً ، ولكن الظاهرة العادية الطبيعية هي أن يعيش الفلاح إما في أرضه أو في القرية القريبة من أرضه . وهنا يبدو الفرق كبيراً بين الفلاحين

والعمال ولا سيما الذين يعملون في المدن الصناعية الكبرى . فهؤلاء العمال يسكن بعضهم المدينة ولكن أكثرهم يلجأ إلى المناطق المجاورة ابتغاء الحياة الرخيصة مسكناً ومطعماً . وقد تقع بعض المناطق المجاورة على بعد كيلومترات كثيرة من مركز المدينة ، لذلك إذا وقف أحدنا قبيل الساعة الثامنة صباحاً في محطة من محطات هذه المدن يلاحظ نزول الركاب من القطار بكيات وافرة يخرجون من أبواب المحطة ليدخلوا المدينة ويتوزعوا على حوانيتها ومتاجرها ومصانعها ، وفي مساء اليوم تبدو الظاهرة معكوسة إذ يتوافد العمال ليركبوا القطار خارجين إلى الضواحي .

وتتمتاز الأسرة الريفية أخيراً بتجانس الجوار . فالريف يسكنه الريفيون والريفيون في المنطقة الواحدة هم عائلات متشابهة في الحياة اليومية والعمل اليومي . يخرجون صباحاً من مساكنهم البسيطة وينتشرون في الحقول لا فرق بين أحدهم والآخر ، كلهم في أيام واحدة يحصدون وكلهم في أيام أخرى يحرثون أو يبذرون . ومن المشاهد البديعة في القرى الاوربية الشمالية خروج الريفيين أيام الصحو (وهي أيام قليلة العدد) إلى البراري في موسم الحصاد وتعاونهم رجالاً ونساء كباراً وصغاراً في إنهاء هذه العملية قبل نزول المطر . وهذه صورة أخرى جميلة من صور التضامن العائلي في الريف ، بل التضامن القروي والمحلي في دائرة أوسع .

العمل غير الزراعي

إذا كان العمل الزراعي في الريف يؤلف القسم الاساسي من الحياة الريفية فهناك بعض الاعمال غير الزراعية التي تكملها من جهة أو التي تساعد الفلاح على نقل مجهوده إلى أماكن أخرى للاستفادة من محصوله فيبيع ويشترى ويؤمن

حاجاته الاخرى من ثياب وماوى وكاليات .

١ — في الريف أولاً توجد بعض المصانع الصغيرة . فكل قرية لا تخلو من حداد أو نجار وظيفته اصلاح الآلات الصغيرة . وقد يكون النجار نفسه حداداً أو بالعكس ، بل قد يكرس الصانع الواحد نفسه لاكثر من قرية واحدة . فاما أن ينتقل هو بحسب طلبات الزبائن أو تأتيه الزبائن من قرى مجاورة .

٢ — وفي الريف ثانياً توجد بعض المتاجر الصغيرة . وفضلاً عن أن كل قرية تحوي حانوتاً على الأقل ابيع الملبوسات (كالأقمشة والأحذية البسيطة) أو اللوازم المعدنية وشبه المعدنية (كالمسامير والزجاجيات) أو المصنوعات الزراعية (كالسكر وعلب الكونسروة) فإن بعض القرى تمتاز بوجود تاجر كبير أو أكثر اشراء الجبوب والمواشي من الريف واعطاء الفلاحين بدلاً عنها مالا أو بضاعة يجلبها من المدينة ، فكأنه حلقة وصل بين أهل الريف وأهل المدن . والقرية الامريكية بمعنى Village تمتاز بأنها مخزن تبادل لنوعين من المحاصيل : محصول الريف من جهة ومحصول المدن من جهة أخرى . وهي أشبه بمدينة صغيرة من مدننا الشرقية ، لذلك يسهل التمييز بين كلمة قرية Village وكلمة ريف Country . ففي أمثال هذه القرى توجد مراكز للبريد ومدارس كافية وملاهي صغيرة ومستشفى مع بعض الاختصاصات الضرورية . وكل واحدة منها تحوي شركة أو أكثر من الشركات المحلية التي تجمع محصولاً معيناً أو محاصيل من أنواع مختلفة لتبيعها بشكل تعاوني Association of Villager and Farmer كما أن كل واحدة تحوي ممثلين لشركات كبيرة وفروعاً لبنوك ومصارف مختلفة .

٣ — وفي الريف ثالثاً بعض المهن الصغيرة . وهي لا تخضع طبعاً لمبدأ تقسيم العمل . فقد يكون الطبيب نفسه صيدلياً وقد يمارس الحلاف مهناً أخرى غير مهنة الحلاقة . وفضلاً عن أن معلم القرية يمارس التدريس في أكثر من صف

واحد ، مثلاً في مدرسة ذات أربعة أو خمسة صفوف معاً ، فهو أيضاً يقوم بوظائف اجتماعية أخرى كتمثيل القرية تجاه المراجع الإدارية العليا ، وفي أوروبا يقوم أحياناً بما يقوم به مخزن القرية في بلادنا . ينتج عن ذلك أن أبناء الفلاحين في الريف الصغير يتحملون عناء الذهاب والاياب في سبيل الدراسة في القرى أو المدن المجاورة ذات الاختصاص الكافي ، كما أن المريض في هذا الريف يتحمل قطع المسافات في سبيل العلاج . وتقليلاً لهذه المتاعب تلجأ الدول الراشدة إلى مؤازرة أهل الريف مؤازرة خاصة سواء من حيث تخصيص الكراسي المجانية لأبنائهم في مدارس المدن أو من حيث تسهيل العلاجات لهم بالارساليات الدورية المنظمة ، ثم تهنيهم أيضاً مكتبات جواله ووسائل تعليمية أخرى كالأفلام والمتاحف الصغيرة تنقلها إلى الريف لتنقل معها أنواع المعارف المفيدة في كل مناسبة ويتمتع بفائدتها الصغار والكبار بآن واحد .

السلطان والمراكب الاجتماعية

كل مجتمع سواء كان ريفياً أو مدنياً يحوي على فئات Categories . ولهذه الفئات نوعان من الترتيب : ١ - الترتيب الشاقولي vertical ٢٠ - الترتيب الأفقي horizontal . فالترتيب الشاقولي ينظر إلى الفئات نظرة كمية أو نظرة كيفية ولكن قابلة للقياس التقريبي (مثلاً ترتيب المتعلمين بحسب الشهادات أو مقاييس الذكاء) . فإذا رتبنا السكان بحسب السن ينتج معنا ثلاث فئات معروفة هي : فئة الاطفال وفئة الشباب وفئة الشيوخ . لذلك نستطيع أن نتصور الترتيب الشاقولي على شكل أعمدة متزايدة الارتفاع . ومن أمثلة الترتيب الشاقولي ترتيب فئات العمل إذا رسمنا إلى جانب العاجزين ، العاملين ورمزنا لنشاط العامل برموز كمية . وكذلك ترتيب فئات الحرف إذا رمزنا للدخل المالي لصاحب الحرفة بأرقام

وخطوط بيانية .

أما الترتيب الأفقي وهو الذي يهمننا في هذا البحث فينظر إلى الفئات نظرة
كيفية أو نظرة كمية ولكن قابلة لمزجها مع القيم المعنوية . أمثلة هذا الترتيب :
الطبقات الاجتماعية Social classes أو Strata التي تتصورها كالتبقات
الجيولوجية . فهناك طبقات عليا وهناك طبقات متوسطة وأخيراً طبقات سفلى .
وهذا الترتيب يسمى التوضع الاجتماعي Social stratification أمثلته القديمة
نظام الحرف castes الذي عرفته الهند ومصر القديمة وفارس واليونان .
فالمجتمع مقسم إلى طبقات مهنية لا يسمح للفرد في إحداها العلو فوقها ، فإن
الفلاح يبقى فلاحاً وابن الحداد يبقى حداداً . وإلى جانب هذه الاعتبارات
الاقتصادية اعتبارات دينية بمعنى أن الآلهة فرضت هذا التقسيم وعلى
الجميع احترامه كما أن الزواج يتم أفقياً بين أفراد الطبقة الواحدة . وفي القرون
الوسطى كان نظام الاقطاع Feudalism مشابهاً لنظام الحرف في الهند . مثلاً
كان يقضي أن يكون لكل حركة كهنوت خاص ورجال دين ومعا بدخاسة بها دون
غيرها . أما في نظام الاقطاع فنجد مذهباً دينياً واحداً وثقافة وكنيسة واحدة .
وبينما نجد في نظام الحرف أن الطبقات السفلى « نجسة » غير تقية impure نجد
في نظام الاقطاع أن نظام الطبقات السفلى « مقيدة » غير حرة unfree بمعنى أن
الوضع القانوني حل محل الوضع الديني . وهكذا تمتع الاقطاعيون بامتيازات
كثيرة باسم القانون أيضاً . وفي القرون الحديثة اختلف نظام الطبقات
عن النظامين السابقين إذ أن جميع الافراد في المجتمع الحديث متساوون
أمام القانون في الحقوق والواجبات ولو أن تطبيق هذا المبدأ لم يتم إلا ببطء .
والطبقة الاجتماعية إنما هي فئة اجتماعية مفتوحة وتسمى طبقة مفتوحة
Open class وليس ما يمنع أحد الافراد إذا تغيرت شروطه الاقتصادية أن

يخرج من طبقته ليدخل في طبقة أخرى . لذلك يتصف المجتمع الحديث بصفة الحراك Social mobility وبفضلها يتاح للفلاح أن يتمصر والمديني أن يتريف . فالفلاح قد يتعلم في الجامعة ويضطر بحكم تزايد علمه أن يستقر في المدينة إذا امتحن مهنة فكرية (محامي أو استاذ جامعة) . والمديني قد يجمع رأس مال ويشترى أرضاً واسعة في الريف فينتقل اليه ابتغاء الثروة فيصبح بعد مضي زمن هو وأولاده من أهل الريف . إن هذه الهجرة مع تغيير مكانة الفرد نعتبرها حركة شاقولية أما لو كانت الهجرة من مكان إلى آخر ابتغاء العمل في المهنة نفسها فهي حركة أفقية . مثال ذلك هجرة العامل من مدينة كثيرة العمال إلى أخرى قليلة العمال ابتغاء العمل فيها ، أو هجرة الفلاح من بلاد ذات أراضٍ جديدة إلى أخرى ذات أراضٍ خصيبة ابتغاء الزراعة فيها .

رغم مرونة القانون والمفاهيم الاخلاقية الحديثة فإن الريف الشرقي لا يزال بطيئاً في عملية الحراك الاجتماعي . وإذا قسناه بما يجري منذ خمسين سنة في امريكا فهو يكاد يعتبر جامداً . وليس المقصد من ذلك أن نمدح حركة الانتقال من القرية الى المدينة بل العكس هو الذي نتوخاه . واننا نتوقعه بشكل خاص في سورية لأن طلائع الهجرة من المدينة إلى القرية تبشر باحتمال تزايدها . وذلك بمناسبة زراعة القطن وإتباع المدينيين إلى أهمية زراعة الحبوب زراعة واسعة في البادية والجزيرة . ومثل هذا الانتقال سوف يخفف أزمة المدن السورية ويساعد على إزالة المفاهيم الخاطئة في قيمة الفلاح . إن الحاضر وإن كان جامداً لكن المستقبل يشير بهجوم منظم نحو الريف بتزايد مع تزايد ورود الآلات الزراعية من الخارج وانتشار الكهرباء والماء في الداخل .

وإذا كانت هذه الحروف الثلاث (R E A) رمزت في الماضي إلى إدارة

الكهرباء في الريف الأمريكي Rural Electrification Administration

فان الحروف (إ ك ر) سوف ترمز إلى (إدارة كهرباء الريف) في البلاد العربية . والاحصاءات الاخيرة تدل على توسيع ادارات الكهرباء في المدن السورية وانتشار الادارات المحلية في القرى مما يساعد على تكاثر السكان في الريف ورفي ادارات الكهرباء في المدن السورية وانتشار الادارات المحلية في القرى مما يساعد على تكاثر السكان في الريف ورفي وسائل الحياة والراحة . يضاف إلى ذلك تغير مفاهيم القيم لدى أهل المدن واحترام العمل الزراعي والتفكير في التعاون الجماعي الريفي . إن ارتفاع تكاليف الحياة High cost of living الناتج عن ارتفاع مستوى المعيشة standard of living أدى إلى تحديد النسل في البلاد ذات المدن الكبرى . وبمعبر آخر أدى إلى انخفاض نسبة الزواج من جهة وانخفاض معدل المواليد من جهة أخرى . وقد انخفض معدل المواليد في بعض الدول الغربية إلى درجة أنه أصبح في زمن من الأزمان أقل من معدل الوفيات (مثلاً في فرنسا عام ١٩٤٩ أصبحت النسبة في الألف للمواليد ١٤ وللوفيات ١٥ أي فقدان فرد من كل ألف سنوياً دون تعويض) . وكثيراً ما يرافق انخفاض نسبة المواليد ارتفاع نسبة الطلاق (مثلاً في مدينة نيويورك عام ١٩٤٧ كانت نسبة الطلاق إلى الزوج ٥٠ في المائة) . ويعمل العالم Odum هذا الانحلال الاجتماعي بسبب عدم وجود الخطط المانعة . فلا بد في كل عصر من وضع خطط اجتماعية Social planning وتشريعات اجتماعية Social legislation لتنظيم العلاقات بين الافراد وإيجاد توازن بين الناحية المادية للحضارة (وهي الرغبة في التمتع بمستوى اقتصادي مرتفع) والناحية الروحية (وهي التعاون الانساني والمحافظة على الروابط الاجتماعية) . ويذكر العالم Ward أن واضعي الخطط الاجتماعية Social planners يجب أن يكونوا اجتماعيين من ذوي الالمام بمبادئ العلوم الأخرى . وهو لا يعتقد بمبدأ الاقتصاديين الاحرار Social economists

الذين يؤمنون بنظرية التطور وبقاء الأقوى . فبدأ التنافس الحر وإن كان يفسح المجال لتكافؤ الفرص الذي من مظاهره الملكية الزراعية الصغيرة والملكيات الأخرى المحدودة ، غير أنه من جهة أخرى يفسح المجال لبعض الافراد نحو ملكيات واسعة أي استغلال طبقة معينة من المجتمع لطبقة أخرى . لذلك ينبغي الحد من تطبيق هذا المبدأ لايجاد مجتمع أقل صراعاً . وهنا تفيدنا الخطاط الاصلاحية Socir reform التي تساعد على تضيق الهوة بين الطبقات وإيجاد امكانيات انتقال من إحداها للأخرى Possible social mobility في سبيل التوازن والانسجام . وما يقال عن الطبقات بالنسبة للمجتمع الواحد ، يقال عن المجتمعات بالنسبة للبشرية كلها : حرية في الحراك الاجتماعي مع تطبيق المبادئ الانسانية .

بعض الخصائص النفسية الاجتماعية

ذكرنا في البحث الثاني أن الريف يعتبر جماعة أولية Primary إذا اعتبرنا المدينة جماعة ثانوية Secondary . فمن السهل إذن أن ننسب إلى الريف الصفة الأساسية التي وصف بها العالم كولي Cooley الجماعة الأولية . وهي خير كشف علمي للجماعة الريفية وتتلخص بالجملة الآتية : « الحياة المشتركة وجهاً لوجه ، (Face-to-face relations) . فأهل الريف يقابل بعضهم بعضاً كل يوم ويجري تماس شديد بين أحدهم والآخر ويتبادلون الاعارة والاستعارة سواء في أدوات البيت أو آلات الزراعة . وهم يشتركون معاً في الأفراح والأحزان والسراء والضراء ، إلى غير ذلك من الصفات التي تتضح لنا بمقارنتها مع الصفات المدنية في الجدول التالي :

ريف أو مزرعة	قريّة أو مدينة صغيرة	مدينة كبيرة
Country or Farm	Village-town	City
نوع العمل :	زراعي ومتجانس	غير زراعي ومتنوع
محيط العمل :	الهواء الطلق	أقل طلاقة
أثر الفصول :	مهم جداً	أقل أهمية
مهارة الانسان :	عامة ومتنوعة	أقل عمومية
عمل الاسرة :	مشترك ومشابه	أقل اشتراكاً
مساحة الجماعة :	صغيرة	متوسطة
علاقات الجماعة :	قليلة لكنها شخصية وشديدة	معتدلة وأقل شخصية
التأسيسات :	قليلة وبسيطة	أكثر تعقيداً
الرقابة الاجتماعية :	قوة العادات والتقاليد	القانون مع التقاليد
صفات الافراد :	متجانسون في كل شيء	أقل تجانساً
الباس والطعام والتفكير		

وقد سمي العالم Odum صفات المجتمع البدائي Folk-culture أي ثقافة القوم . ومعنى ذلك ان هذه الصفات هي نتاج سكان المنطقة أنفسهم بدون التأثيرات الخارجية الناتجة عن مجتمعات أخرى . فالمجتمع البدائي منعزل ولا يستفيد من تفاعل المواصلات . وبالمقابل فقد سمي صفات المجتمع المتحضر State civilization أي حالة الحضارة . وهذه الحالة إنما هي نتيجة تبادل الثقافات Acculturation وانتشار الثقافة من مركز إلى آخر Diffusion .

أما العالم الألماني Tonnie فقد اشتهر بكلمتيه الألمانيتين Gemeinschaft كاسم للمجتمع البدائي و Gesellschaft كاسم للمجتمع المتحضر .

ومن العبارات المألوفة في علم الاجتماع الريفي كلمة Folk-lore وهي تدل على مجموعة العادات والتقاليد والاعتقادات والاشعار والاقوال التي يتصف بها قوم

معين أو قبيلة ابتدائية معينة . فنقول مثلاً فولكلور الاسكاندينافيين وفولكلور اليونان القدماء .

وبالامكان تمييز بعض العبارات الأخرى في هذا الصدد . مثلاً كلمة Mores تدل على التقاليد التي اقتنع الناس بفائدتها بعد التجارب الطويلة كاطاعة الوالدين واحترامها وتحية الشيوخ والقيام لاستقبالهم حين يحضرون المجالس . وبعض هذه التقاليد لا يزول أبداً وبعضها يتطور ويأخذ شكلاً أبسط أو أعقد . مثلاً قد يزول تقبيل يد الشيوخ وينقلب إلى مجرد مصافحة مع تطور الزمن على أن يبقى الاحترام الداخلي نفسه .

أما كلمة Folkways فتدل على العادات التي تكتسبها الجماعة على مر الزمن استجابة لحاجات معينة . وقد تسمي هذه العادات مع تطور الزمن غير معقولة Non-rational كعويل النساء وراء الجنازات أو غير منطقية Non-logical كغلاء المهور في عقود الزواج .

أما كلمة Technicways فتدل على العادات (والموضات) التي تنتشر بمناسبة الصناعات الجديدة . مثلاً تهافت الاولاد على شراء اللعب في كل عيد وارتداد النساء للسينما في كل اسبوع وتسابق الاغنياء على شراء أحدث السيارات أو أغلى الادوات الكهربائية . ومن هذا النوع تفاخر الشباب بلعب الميسر أو تعاطيهم الخمر مع التظاهر بمهارة الرقص الحديث .

والجدير بالذكر أن Folkways توجد بنسبة كبيرة في المجتمعات البدائية و Technisways توجد بنسبة كبيرة في المجتمعات الحضرية أما التقاليد Mores فتوجد بنسبة كافية في المجتمعات التي تتوازن في حضارتها الناحيتان الروحية والمادية .

البعث الرابع^(١)

العوامل البيكولوجية في تكون القرى والمدن

هناك خمسة عوامل بيكولوجية تؤثر في حياة الانسان باستمرار وتطبعه بطابع معين . وهي الأرض ، الماء ، الهواء ، الحرارة ، الأحياء (بما فيها من نبات وحيوان) .

تأثير الأرض :

يمكن البحث في تأثير الأرض على البشر من ناحيتين : (١) الناحية التوبوغرافية . (٢) الناحية الفيزيائية .

١ - فمن الناحية التوبوغرافية ننظر إلى مساحة الأرض ، هل هي كبيرة أم صغيرة ، هل هي واسعة أم ضيقة ؟ . ثم ننظر إلى شكلها الخارجي أي مرتفعاتها ومنخفضاتها . والخارطة التوبوغرافية تبين هذه المرتفعات والمنخفضات بخطوط اصطلاحية . فإذا كانت الخطوط متقاربة يكون الانحدار شديداً وإذا كانت

(١) هذا البحث مستقى من الكتب التالية :

صلاح العبد : مبادئ علم الاجتماع ، القاهرة ١٩٥٣ .

العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي ، بيروت ، دار الكتاب ١٩٤٧ .

Dodd : Social relation in the Middle East . Beirut 1946

مع اضافة أمثلة من الواقع الشرقي .

متباعدة فيكون الانحدار بطيئاً متدرجاً . فكثرة الخطوط المتقاربة في الخارطة تدل على البلاد الجبلية أما قلتها فتدل على البلاد السهلية .

والتأثير التوبوغرافي على الانسان يظهر في تحديد عدد السكان . إذ كلما صغرت مساحة الأرض (وتساوت الشروط الاخرى) قل عدد السكان . وكذلك كلما زادت زاوية الميل (الانحدار) قل عدد السكان . فعدد السكان يتناسب طردياً مع المساحة وعكساً مع الانحدار . لذلك نجد أن أكبر مدن العالم هي الموانئ البحرية وقليلون هم الذين يعيشون فوق الارتفاع (٣٠٠٠) متر ، والقانون اليبكولوجي ينص على أن كل مافي المرتفعات العالية عبارة عن قرى صغيرة حتماً كما أن السهول والحياض تحوي على المدن الكبيرة ؛ وعنها ينتج التخصص في المهن والتنوع في الثقافة والتعقيد في تأسيسات الحياة الاجتماعية . وقدماً كانت مراكز الحضارة في الصين والهند ومصر وفينيقياء واليونان وروما عبارة عن مدن سهلية ذات أنهار أو شاطئية ذات سهول ممتدة .

وبالمقابل يؤثر الانسان أيضاً في الأرض بعد تأثره منها ، فمثلاً حين يتكاثف في المدن الكبيرة ويتوصل إلى التخصص واستخدام الآلات ، فانه بفضل هذه الآلات يغزو المناطق الجبلية العاليه أو المناطق الصحراوية البعيدة . يقطع الصخور ويمهد الجبال (كما في اوربا الوسطى) أو يحفف المستنقعات ويبنى السدود (كما في هولاندا) أو يزرع الصحاري ويمد القنوات (كما في العراق وسورية) . لذلك يجوز أن تصور هجرة المدنيين إلى القرى بشكل أسهم تسير من المدن الى الجهات الجبلية وخصوصاً في بعض الظروف الى الجهات الصحراوية . وتطبيقاً لهذا المبدأ نتصور الجزيرة السورية في المستقبل القريب أو البعيد يغزوها البشر مع آلتهم الميكانيكية متجهين من المدن الغربية نحو الشرق (انظر الشكل رقم ١ في آخر صفحة من هذا البحث) . ونأمل ان تبدأ مصلحة الاحصاء في

الجمهورية السورية منذ الآن بضبط أرقام هذه الحركات في كل سنة ليتاح لنا دراستها بخطوط بيانية عاملاً بعد عام .

٢ - ومن الناحية الفيزيائية كيميائية ننظر الى وصف الأرض الفيزيائي ثم الى تركيبها الكيميائي أي الى بنيتها الداخلية . وبما أن وصفها الفيزيائي من لون وصلابة ناتج عن تركيبها الكيميائي فالدراسة الأساسية في هذا الموضوع هي دراسة محتويات الأرض . ومن السهل أن نقسم هذه المحتويات الى قسمين : (١) تربة سطح الأرض وعليها تتوقف الزراعة . (٢) تربة بطن الأرض أي المعادن وعليها تتوقف الصناعة .

تؤثر تربة سطح الأرض على النباتات بتحديد نوع الحاصلات الزراعية وكميتها وكيفيةها ، وفي التربة الرملية تنمو بعض النباتات وفي التربة الطينية تنمو نباتات أخرى . وتمتاز التربة الرسوبية بإنتاج أكبر كمية من الحاصلات الزراعية وأجودها كما هي الحال في ترسبات نهر النيل بمصر . أما المناطق الصخرية أو الحجرية فهي أعطل أنواع الأراضي ويضطر الإنسان فيها إلى مضاعفة جهوده للحصول على معاشه وقد لا يحصل إلا على شيء ضئيل . فالزراعة إذن تابعة لطبيعة التربة وهي بدورها تؤثر على الحيوان والإنسان . وتأثيرها على الإنسان يتجلى في نوع طعامه وملبسه ونمط حياته . فهو يأكل ما يزرع ويلبس ما تجود به أرضه من الألياف التي ينسجها بشكل كساء ، كالقنب أو الكتان . أما تأثير الإنسان على التربة فيكون بالسيطرة على حدودها أو حرثها أو نقلها من مكان إلى آخر . يبني الإنسان الخفافى والسدود ليمنع الأمطار من جرف التربة السطحية ، ويفرس الغابات أو يزرع أنواعاً خاصة من الحشائش والشجيرات ليمنع الرياح من نسف التربة الرملية . إن حرج الصنوبر في بيروت مثال صالح لهذه الحدود التي تقي

جنائن بيروت شر الرياح والرمال وخطر الامطار والسيول . وقد غرسه حاكم صالح منذ قرن تقريباً كجدار يحيط بسهل بيروت ويحفظه حفظاً مستمراً ، وبفضله انقلبت رمال بيروت الى جنان ملاءى بالصنوبر والموز والبرتقال . واذا كانت التربة محاطة بحدود طبيعية ومصونة من اطرافها القريسة أو البعيدة فالانسان يعنى فقط بحراثتها أو نقلها إلى الأماكن التي تحتاج إليها ، كما يصلح نوعها بإضافة الأسمدة الكيميائية أو البيولوجية . وهو يزرع الأرض بالتناوب وفي كل سنة يحكي حاصلًا يختلف عن حاصل السنة السابقة ، وبذلك تبقى في الأرض المواد اللازمة للزراعة القادمة . وقد تعلم الانسان في الأيام الأخيرة زراعة النبات في محلول ملحي بدون تراب . وربما توسعت ضروب هذه الزراعة اللاترابية في المستقبل بالنسبة للمدن الكبرى . وفي نية المفكرين أن يصنعوا أحواضاً مائية خاصة يزرعون فيها النباتات التي تنمو بزمان قصير ، فيكررون زراعتها مرات عديدة في السنة الواحدة بشروط اصطناعية يستخدمون فيها نور الكهرباء وحرارتها مع الأسمدة الكيميائية .

تؤثر المعادن على الانسان من جهة أخرى ، ونقصد بالمعادن هنا معناها الواسع أي جميع المحصولات الحاسوبية على المعادن أو التي يستخرجها الانسان من المناجم . فتدخل في زمرتها إذن الاحجار والاملاح كما تدخل في زمرتها الفحوم والزيوت فالمناطق الحجرية تجهز الانسان بحجارة البناء كما في لبنان خلافاً للمناطق السهلية التي تجهزه بالطين كما في العراق فيضطر الانسان إلى شوي الطين بشكل آجر (قرميد) . والمناطق الغنية بالمناجم تجهز الانسان بالفحوم والزيوت التي يستخرج منها النار والنور والكهرباء ، وهي أساس صناعته الحديثة ، إذ يكفي قليل منها لإنتاج عدد من البضائع لا ينتجه آلاف من العبيد قديماً لو عملوا طوال حياتهم . ومن المعادن ما هو مشهور في أيامنا هذه كالحديد والفولاذ اللذين منها

يتألف الهيكل العظمي لكل المصانع المعاصرة . والنحاس الذي يكسو كثيراً من الآلات كالجلد من الجسم البشري . والالومنيوم الذي منه يتألف بنية آلات الطائرة والذي بدأ يزاحم الفولاذ من حيث الأهمية . وفي الشرق اشتهر البترول كما اشتهرت الأملاح الذائبة في البحر الميت . وإذا اجتمع الحديد والفحم الحجري في منطقة ما جعلها حتماً صناعية فيؤثران على الإنسان تأثيرهما المعروف في المدن الصناعية الكبرى . أما تأثير الإنسان على المواد المعدنية فيكون بالسيطرة على مقالها ومناجمها . يحفر المقالع في الصخور لاستخراج الاحجار واستعمالها في البناء والطرق ، كما يحفر المناجم لاستخراج الوقود واستعمالها في المصانع والقطارات ، ومن هذه وتلك يستخرج المعادن والاملاح لاستعمالها هنا وهناك . والمعادن قابلة للانصهار لذلك يعطيها الإنسان اشكالاً عديدة بحسب وظائفها وسهولة استخدامها . أما الزيوت فيجرها بالانابيب إلى مسافات بعيدة ومن ثم بالبواخر والسيارات إلى مسافات أبعد ليم استثمارها في المدن الصناعية . والمدينة الصناعية تنال نموها الحقيقي بتحالف عاملين يتبادلان التأثير : (١) غزارة المعادن في منطقتها . (٢) تقدمها التكنولوجي . وتقصد بالتكنولوجيا Technology ذلك العلم التطبيقي الذي يكتشف الطرق الجديدة لاستثمار الموارد المعدنية واختراع الآلات إجمالاً . ولما كانت هذان العاملان هزيلين في البلاد الشرقية فإن مستقبل هذه البلاد يتوجه نحو الزراعة قبل كل شيء ، ولا يتوجه نحو الصناعة الحقيقية إلا بعد تكاثر السكان . وإذا رجعنا إلى تاريخ أمريكا نجد شبيه ذلك . فقد بدأ الإنسان بعملية اكتشاف الاراضي الزراعية والسيطرة عليها شيئاً فشيئاً مع تقدم الصناعة قليلاً قليلاً . ولما قاربت عملية الاكتشاف من الانتهاء توجه الإنسان إلى أعماق الارض وأخذ ينبش الآبار والمناجم رغم صعوبة العملية الجديدة . ومع توسع المدن الكبرى

توسعت عملية الاستثمار المعدني أقصى ما يمكن .

تأثير الماء :

الماء عامل أساسي يؤثر على الانسان ويغير نمط حياته تبعاً للكيفية والكمية اللتين تحيطانه منه . والماء يوجد بثلاث حالات في الطبيعة : (١) حالة الصلابة كالجليد والثلج . (٢) حالة السيولة كالطر والانهار والبحيرات والبحار . (٣) حالة الغاز كالبخار والغيوم والضباب والرطوبة الهوائية .

ويقاس توزع الماء على سطح الأرض في حالة الصلابة بمساحة الجليد أو عمقه أو بمقدار ما يسقط من الثلج مقاساً بالسنتيمتر ارتفاعاً . ويقاس هذا التوزع في حالة السيولة بمساحة البحيرات والبحار وعمقها ، وبحجم المياه الجارية في الدقيقة وبحجم حجوم المياه المخرونة في الاحواض والخزانات وبمقدار ما يسقط من الامطار سنوياً مقاساً بالسنتيمتر ارتفاعاً . فمعدل هطول الامطار في بيروت هو (٩٠) سم بينما هو في الصحراء (٥) سم فقط كحد أدنى . وقد يبلغ الحد الأعلى (١٠٠٠) سم في الاماكن التي يفرس فيها الشاي كبورما مثلاً . أما في الحالة الغازية فيقاس توزع البخار بالحجم أو الضغط مقاساً بالكيلوغرام على السنتيمتر المربع . وتقدر الغيوم بالنسبة المئوية لأيام السنة التي تتلبس فيها السماء . وتقاس الرطوبة « بالرطوبة النسبية » وهي النسبة المئوية للحد الأعلى من بخار الماء الموجود في الهواء في أحوال الحرارة العادية . وتقوم المراصد الفلكية بهذه القياسات وترفع فيها تقريراً يومياً . فمعدل الرطوبة الكثيرة يتراوح في بيروت بين ٧٢ ٪ في شهر نيسان و ٦٠ ٪ في شهر تشرين الاول . وجدير بالذكر ان الرطوبة الكثيرة تؤثر على جسم الانسان ومزاجه . تجعل الجسم لزجاً كما تجعل النفس شاعرة بعدم الارتياح . وزيادة الرطوبة تعجز الانسان اكثر مما تزعجه

زيادة الحرارة .

أما تأثير الماء على الإنسان فيكون بالنسبة للكيفية أولاً . إذ لا يوجد الإنسان في الأراضي المغطاة بالجليد . وإن وجد فقليل جداً وبحالة اجتماعية بدائية كالاسكيمو . ولا مجال هنا لحفر المناجم أو الزراعة . ويكون التأثير بالنسبة للكمية ثانياً . إذ لا يوجد الإنسان في الصحاري الجافة وإن وجد فقليل جداً وبحالة اجتماعية بدائية . وقد يكشف بعض الآبار المعدنية فتقلب منطقة الآبار إلى أماكن مأهولة بالسكان ولكن بشكل محدود ويبقى حظ الزراعة ضئيلاً مادامت المياه ضئيلة . فالأماكن الغنية بالسكان إنما هي المناطق الزراعية التي تجري فيها المياه وتنزل فوقها الأمطار . وكمية المياه هي التي تقرر كمية البشر . وبتعبير آخر إن أغنى الأراضي الزراعية هي التي يكون نصيبها أوفر من كمية المياه وبالنتيجة يكون حظها أكبر من توزيع السكان . ثم إن أعظم مدن العالم هي الموانئ البحرية التي تتساقط حولها المياه من مكان مرتفع إلى مكان منخفض وينتج عنها قدرة ميكانيكية تحرك الآلات وتولد الكهرباء . يؤثر الماء على الإنسان أيضاً من جهة أخرى وذلك باعتباره وسيلة من وسائل النقل كأنه سكة حديدية أو طريق من الطرق البرية . لا تمخر البواخر عباب البحر وتجري القوارب في الأنهار؟ إن هذا الاتصال المائي هو الذي ربط الفلسفة في الماضي بين جنوبي أوروبا (اليونان) وشمالي أفريقيا (مدرسة الاسكندرية) أما الإنسان فيؤثر على الماء بالسيطرة على مجاريه وتوجيهها بالنسبة لمنفعته . كما أنه يفتح المجاري الجديدة والتقنيات لوصل المجاري بعضها مع بعض . وهو يستخدم الانابيب المعدنية وشبه المعدنية لنقل الماء إلى القرى والمدن كما يخزن المياه الغزيرة في الخزانات لتوزيعها في الأراضي الزراعية . وأخيراً يحفر الآبار العميقة . يستفيد الإنسان من المياه يومياً . يغليها لطبخ طعامه ويدفئ مساكنه

ويفسل جسمه وملابسه . يولد البخار ليعقم الأشياء أو يحرك الآلات . والمحافظة على نفسه ضد الماء يشيد الملاجئ والسقوف لتقيمه من المطر ويصنع المظلات الشتوية والملابس الصقيلة . كما أنه يصنع المزلاج للسفر فوق المياه الجامدة أو الجارف لرفع الثلج من الطرق السالكة .

تأثير الهواء :

أول فائدة للهواء هي طبعاً التنفس . فالإنسان يعيش داخل الهواء كما تعيش الأسماك داخل الماء ، ولو لا الهواء الذي يتنفسه الإنسان لمات بأقل من خمسة دقائق .

يختلف توزيع الهواء على الأرض سواء من حيث الكثافة أو الحركة أو النقاوة . فالكثافة تختلف بنسبة عكسية مع الارتفاع ، اذ هي على ساحل البحر أكثر منها على قمة الجبل . والكثافة تتغير أيضاً قبل حدوث العاصفة وتنذر بحدوث الطقس الرديء ، كما أن حركة الهواء تتغير من نسيم عليل إلى رياح إلى عواصف وأعصار . وتقاس هذه جميعها بآلات خاصة تسجل الكيلو مترات التي يقطعها الهواء في الساعة مع بيان تغير الاتجاهات ؛ أما نقاوة الهواء فتقاس بتحليل الغازات التي توجد فيه تحليلاً كيميائياً أو بالترشيح الفيزيائي الذي يلتقط الغبار وذرات الفحم ، أو بالزرع البيولوجي الذي يدل على وجود الجراثيم في زجاجة مملوءة بالهواء وفيها بعض الطعام المعقم . ومن السهل أن نلاحظ أن النقاوة في القرى ولا سيما الجبلية هي أكثر منها في المدن إلا في المدن الساحلية فنقاوتها في الامكنة المتطرفة تعادل نقاوة الارياف . وتقل النقاوة إجمالاً في القرى والمدن على السواء أثناء هبوب الرياح التي تحمل الرمال والغبار من الصحراء وتنقل الدخان والجراثيم من المامل والاماكن المكتظة بالسكان .

يؤثر الهواء على الانسان علاوة على تجهيزه بالاكسجين ، بترطيب الجو أثناء التبخر الناتج عن حركته فينظم برودة البشرة من جسم الانسان . وهو الذي يحرك الغيوم وبسبب توزيع الامطار كما ينقل اللقاح من نبات إلى آخر فيسبب تكاثر الثمار . ويستفيد الانسان من حركته بالسيطرة عليها وحصرها في فراشات خاصة ، وعن ذلك نتج اختراع الطائرات والطواحين الهوائية والآلات الصناعية التي تحركها الرياح انتخرج الماء من الارض أو تولد الكهرباء . وتمتاز بعض البلاد بهذه المظاهر بشكل خاص كهولاندا . وفي سورية يمكن استثمار الرياح في أماكن عديدة ولا سيما في الدهليز الممتد من طرابلس الى سهل حمص .

تأثير الحرارة :

يختلف توزيع الحرارة على الارض فهي تزداد بالنسبة لقربها من خط الاستواء كما انها تزداد في الامكنة المنخفضة وتقل في الامكنة المرتفعة . ولما كانت الأرض تدور يومياً وتتحرف سنوياً فان إتجاه أشعة الشمس إليها يتغير ويتبدل فيسبب ارتفاع الحرارة في النهار وأيام الصيف وانخفاضها في الليل وأيام الشتاء . تؤثر الحرارة على الانسان تأثيراً شديداً سواء في حياته البيولوجية أو صفاته النفسية ، فهي تكفل له الحياة أولاً وتجهزه بالقدرة على الحركة . ويحتفظ جسم الانسان بدرجة داخلية دائمة مقدارها ٣٧ درجة ان ارتفعت أو انخفضت أكثر من خمس درجات سببت له الموت . ولقد ثبت بالتجربة ان الحرارة المتبدلة يوماً عن يوم وفصلاً عن فصل تنشط الانسان . فمدينة نيويورك مثلاً بطقسها المتبدل أفعال في نشاط الانسان من طقس ثابت كطقس مصر . وحرارة الشمس هي السبب الاساسي في التبخر وحدوث الامطار وتوزيع المياه كما انها سبب الرياح ونمو النباتات والحوانات . ولا يستطيع الانسان أن يعيش الا مؤقتاً في مناطق باردة كالمناطق

المتجمدة وفوق الثلوج على الجبال. كما أن أنواع الحاصلات وأنواع الحيوانات تختلف باختلاف الحرارة السنوية . ونور الشمس فضلاً عن ذلك هو النور الذي يسمح للإنسان أن يرى ويسير في أعماله النهارية كما أنه هو الذي ينشط بعض التفاعلات الحيوية في النبات كالتمثيل الكلوروفيلي .

أما تأثير الإنسان على الحرارة فيظهر في السيطرة عليها وحصرها في غرف محدودة في الشتاء . وهو يغلّق النوافذ حين يشعل المدافئ . وهو يستفيد من الشمس بفتح نوافذ البيوت نحو نورها ، وبفضل معلوماته الفيزيائية يتفنن في صنع المناخ الحرارية واستثمارها في جميع نواحي الحياة العملية والفنية . وقديماً هو الذي اخترع الموقد وهو اليوم يخترع البرادات التي يبردها بالحرارة نفسها (حرارة البترول مثلاً) وربما استثمر في المستقبل حرارة الشمس لتبريد الصحراء حين التزوم أو تسخينها بحسب الأحوال ليلاً أو نهاراً .

تأثير الازهواء :

ان العوامل الايكولوجية الثلاثة (الماء والهواء والحرارة) تؤثر بدورها على توزيع الاحياء في الارض . فالحياة مثلاً لا توجد الا في نطاق ضيق من الحرارة يتراوح بين الصفر والمائة درجة . وبعض الحيوانات كالغوريلا لا يعيش الا في الغابات الحارة بينما لا يعيش الدب القطبي إلا وسط الثلج والجليد . وينبت الصبير في الصحراء الجافة بينما يحتاج الموز إلى المياه الغزيرة . أما الحنطة فتتبع في حالة متوسطة بين هذين الطرفين . ومن الحيوانات ما يعيش في شروط عادية كالكلب الذي يعتبر حيواناً أليفاً للإنسان يعيش معه في القارات كلها . ولم تكن الخيول موجودة في أمريكا حين اكتشفها كولومبس ، ولا في استراليا أيضاً حتى أن استراليا كانت تجهل القطط والمواشي من البقر والغنم ، غير أن الإنسان أخذ

ينقل هذه الاجناس اليها كما أخذ ينقل أجناس النبات من بلاد إلى أخرى ليزيد تنوعها وتوزعها . ينبغي أن نضيف إذن إلى العوامل السابقة التي تؤثر في توزيع الأحياء ، عاملي النقل والزراعة اللذين هما من صنع الانسان نفسه .

تؤثر الاحياء على الانسان : فهي تزوده بالطعام والكساء وشقى المواد كالجلد والوبر وألياف النبات . ومن الحيوانات ما هو أليف مفيد كالبحر والدجاج ومنها ما هو شرس ضار كالذئب والجراد والبعوض والجراثيم الفتاكة . ولقد كان الانسان الابتدائي ضعيف السيطرة على الحيوان والنبات . لكنه لم يلبث أن تعلم كيف يدجن الحيوانات ويستفيد من لحمها وبيضها وكيف يزرع النباتات فيستفيد من خشبها وثمرها . وامل أهم ما يسجله الانسان الحديث من ضروب السيطرة على النبات هو : أولاً : تركيب الاطعمة كيميائياً من المواد غير العضوية . فالسكر مثلاً يمكن صنعه من ثاني أو أكسيد الفحم والماء ونور الشمس . وإذا كانت تكاليفه لا تزال باهظة فإن المستقبل سوف يذلل صعوبة غلائه . ثانياً : زراعة النبات في الماء . وهذا يتم بتحليل الاملاح التي يحتاج اليها النبات في الماء . وتنمو النباتات بهذه الطريقة نمواً سريعاً إذ الحنطة تنمو بعشرة أيام بحيث يمكن إجتناء ٣٦ موسماً من حوض واحد في السنة الواحدة . كما أنه يمكن جمع النباتات مزدهمة في حوض واحد ما دامت كمية الغذاء كافية لها بحيث يجوز غرس ما يحتاج إلى هكتار أرضاً في حوض صغير . أما أنواع الثمار الحاصلة من هذه الاحواض فيفوق النوع العادي وهذه الطريقة تخول المائلة أن تحصل على معظم مواد طعامها في داخل بيتها ، وبذلك تقل الحاجة إلى الارض الزراعية ويزداد سكان المدن حتى عشر أضعاف ما هو الآن . وقد تتحول المزارع عندئذ إلى معامل يشتغل عمالها في أعداد المحاصيل الزراعية وجمع الثمار وشحنها . بيد أن تحقيق هذه الطريقة لا يزال صعباً وتكاليفها أعلى بكثير من تكاليف الزراعة العادية ولن

تتحقق إلا بالحصول على الاملاح بثمن رخيص جداً كما في البحر الميت . لذلك يمكن أن يصبح هذا البحر مركزاً مزدحماً بالسكان كما أصبحت الاماكن الفنية بالفحم والحديد . وسوف يحدث هذا الازدحام انقلاباً اجتماعياً أهم من الانقلاب الذي أحدثه الازدحام حول الفحم والحديد .

تطور القرى والمدن

مرت الجماعات البشرية بمراحل أثناء تطورها ولا تزال بعض الجماعات الابتدائية متوقفة في الاولى أو الثانية من هذه المراحل وهي :

١ - مرحلة الصيد Hunting stage :

وهي أولى المراحل وفيها يعيش أفراد الجماعة على الصيد . يرحلون من مكان إلى آخر Nomads بحثاً عن موارد الرزق . ويلاحظ أن صيادي السمك أقل تنقلاً من صيادي الحيوان البري نظراً لقربهم من المياه ، وعدم نفاد أسماك المنطقة بسرعة . لذلك يستوطن بعضهم القرى الثابتة ويشيدون فيها منازلهم حول زعيم القبيلة بحيث يكون أقربهم إلى بيت الزعيم أقوامهم من حيث المركز الاجتماعي . كما أن كبار السن يحاطون بعائلات الشباب الأشداء حتى يحمي القوي الضعيف (أنظر الشكل رقم ٢ في آخر البحث) .

إن سلوك الفرد في هذه المرحلة يكون فطرياً على الأغلب وغريزياً بالإضافة إلى التجارب التي تنتقل من جيل إلى آخر ، ينقلها الابناء عن الآباء : كطريقة الصيد أو تربية الاطفال . ويتراوح عدد أفراد المجموعة في هذه المرحلة بين عشرة أو مائة يعيشون معاً في صعيد واحد . ونظراً لقلة الحيوانات البرية تنتشر الجماعة بين المجموعة البرية وتزداد بالنتيجة نسبة الوفيات عندهم .

٢ - مرحلة الرعي Pastoral stage :

يعيش الافراد في هذه المرحلة على الحيوانات التي تعيش في المراعي الطبيعية :
ينتفعون بألبانها ولحومها وجلودها وأصوافها . وهم يختلفون بين رحل Nomads
وقليلي التنقل نصف رحل Semi nomads .

٣ - مرحلة الزراعة Agrigultural stage :

ويعيش الافراد فيها على الزراعة بمختلف أنواعها : يحرثون الارض ويبدرون
البذور ويحنون المحاصيل والثمار ويقومون بعمليات البيع والشراء والتبادل .
تقسم المرحلة الزراعية بدورها إلى ثلاث مراحل :

١ - المرحلة البدائية Primitive village : وأول هذا النوع من القرى
تكون منذ خمسة آلاف سنة في مصر وألمانيا وفرنسا وسويسرا . وامتازت الجماعة
فيها بصفتين : (١) درجة قرابة عالية High dsgree of kinship . (٢) ملكية
عائلية للأرض Family ownership of land . أي أن ملكية الارض الزراعية
كانت مشاعة بين أفراد العائلة جميعاً وكان الاستيطان يسوده المحبة والوثام لصلات
القربى التي تربط بين أفراد القرية .

٢ - القرية الوسيطة Medieval village أي قرية القرون الوسطى وعهود
الاقطاع . وقد شاع هذا النوع بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ولم
يكن للقرابة إلا أثر ضئيل لأن الارض كلها مملوكة لفرد واحد هو الملك أو
اللورد أو الشريف لذلك كانت القرية ذات طبقات : (١) الشريف Sherrif وهو
المسؤول عن إدارة القرية وله أكبر نصيب من إيراد الارض . (٢) الجنود
Serfs وهم حماة الأمن والنظام يأخذون نصيبهم من دخل الارض . (٣) الفلاحون

Cotters وهم عمال الزراعة الذين يفلحون الارض وبأخذون أقل نصيب من ريعها . وبيوتهم منتشرة في الاماكن المتطرفة من القرية يتوسطها بيت الشريف تحيطه بيوت الجنود (أنظر الشكل رقم ٣ من آخر البحث) .

٣ - القرية الحديثة Modern village وقد زال منها النظام الاقطاعي لأن الملكية الزراعية تتوزع على سكانها المشتغلين بالزراعة . ويسودها الترتيب الالبيكولوجي بوضوح إذ نجد مثلاً أن مزارع الخضر والفواكه قريبة من مسكن الفلاح وهي أقرب إلى المسكن من مزارع المحاصيل الأخرى . وبعبير آخر نجد المسكن قريباً من مزارع الخضر والفواكه محاطاً بها بينما المزارع الأخرى تتباعد بمقدار ما تحوي من زراعة واسعة تجهز الانسان بالمؤونة أو الحبوب .

٤ - مرحلة الصناعة Industrial stahe أدى ازدهار الصناعة في مناطق الفخيم والحديد إلى انقلاب اجتماعي إذ حمل الكثير من عمال الزراعة على الهجرة من القرية إلى المدينة لممارسة النشاط الصناعي ، فتضخمت المدن الصغيرة واتسعت مساحاتها وتعددت وسائل النقل والتجارة وتنوعت الاعمال وتخصصت . وقد ساعد هذه الهجرة عاملان أساسيان أحدهما ان نسبة الولادة في المدينة أقل منها في الريف . ثانياً ان الصناعة نفسها جهزت الانسان بوسائل المواصلات بحيث أصبح متاح للملايين الناس الحصول على قوتهم اليومي وحاجاتهم الحيوية وهم في مدينة كبيرة .

إن المدن عندما تنقص بالسكان يتغير شكلها في أربع فواحي غالباً : ١) تنسع دائرتها المحيطية فتبنى البيوت في الحقائق المتطرفة والحقول الممتدة في ضواحي المدينة . ٢) تهدم مركز المدينة ثم يعاد بناؤه في مناطق مستديرة متتابعة مبتدئة في المركز . وتبديل بيوت السكن القديمة بالخازن والابنية التجارية .

(٣) يبقى بين هذه الابنية المركزية والمنطقة الخارجية منطقة متوسطة خلاية تسمى « منطقة الانحلال » تجتمع فيها بيوت السكن البالية دون ما اصلاح فلا يرغبها الساكنون فتؤجر بأثمان بخسة للطبقات الفقيرة . (٤) تنمو المدن عمودياً أي في الفضاء من جهة وتحت الارض من جهة أخرى .

ومما يؤثر في نمو المدينة مركزها الجغرافي ونشاطها الثقافي والاقتصادي وتعدد طرق المواصلات . وفيما يلي نشرح أهم ما يحدث فيها من تطورات :

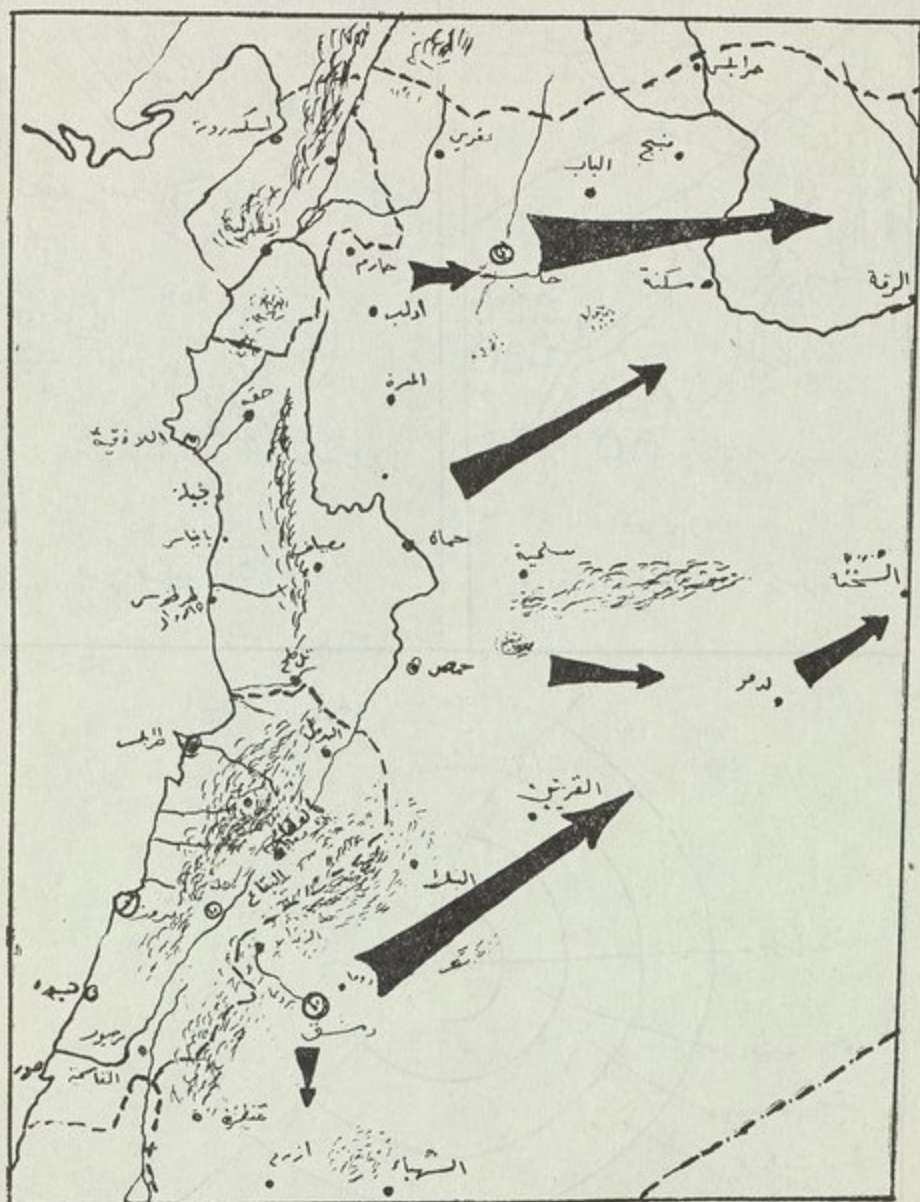
(١) التجمع Concentration وهو تجمع أفراد يشتركون في أوجه نشاط مختلفة في مكان ما حيث يجدون فرصاً للعمل وميادين الرزق . (٢) التركز Centralization وهو تجمع الافراد حول نقط معينة بالمدينة حول نشاط معين فهنا مركز لصناعة الفسيج مثلاً ، وهناك مركز لصناعة النحاس وما شابه ذلك . (٣) الانفراز Segregation وهو يشبه التركز من حيث تجمع الافراد إلا أن ظاهرة التشابه والتجانس أوضح هنا ، إذ يضطر العمال مثلاً أن يسكنوا معاً ليؤلفوا حي العمال في مكان مستقل في المدينة ، وكذلك حي الطبقة الارستقراطية . (٤) الهجوم Agression ويظهر خصوصاً أثناء هجرة طبقة معينة إلى جزء من المدينة أو انشاء مؤسسة هامة كالجامعة أو المدينة الجامعية ، حينئذ تبدو آثار هذا الهجوم بشكل محسوس في زيادة النشاط في الجزء الجديد .

(٥) التعاقب Succession وهو تغلب معالم الطبقة الجديدة واستمرارها بعد اختفاء معالم الطبقة القديمة شيئاً فشيئاً في مكان معين من المدينة .

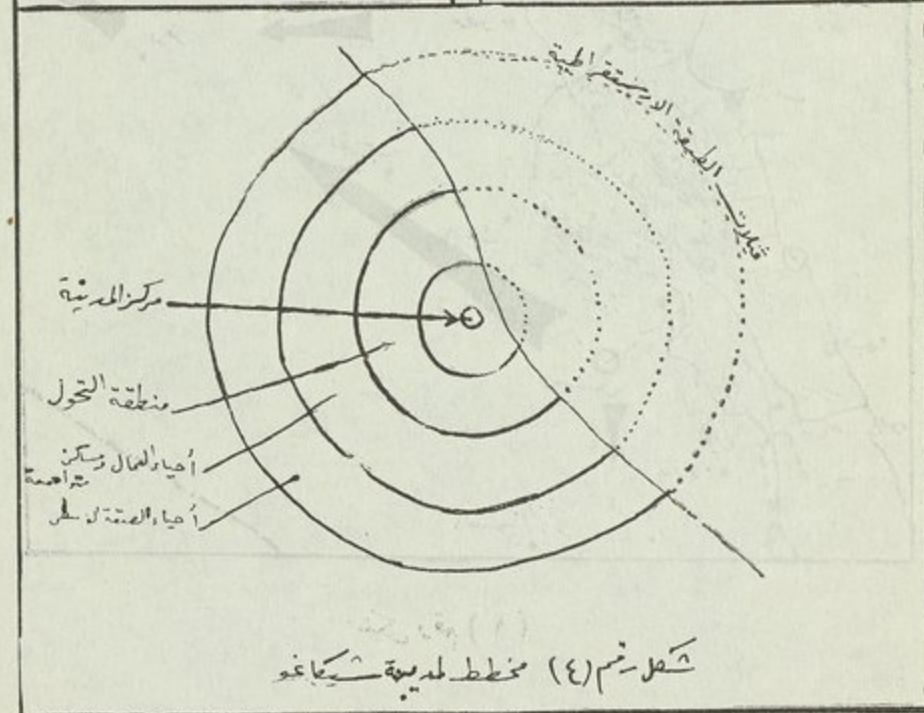
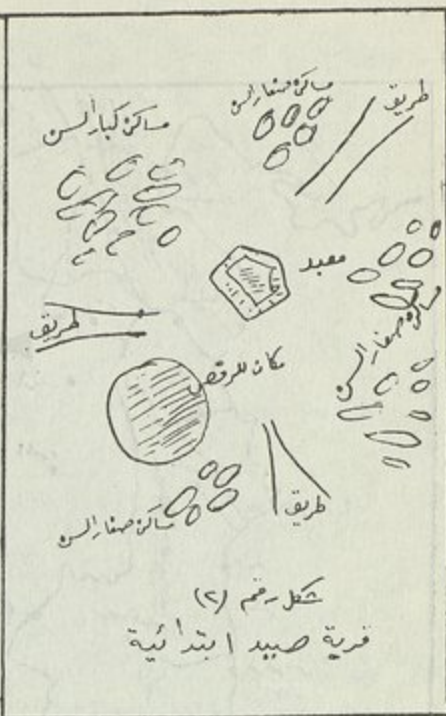
ومن قبل المثال عن التطورات المذكورة يمكن ملاحظة ما يجري في دمشق حالياً ، أو يمكن ذكر ما جرى في شيكاغو منذ أواخر القرن الماضي (أنظر الشكل رقم ٤ : ١) وسط المدينة وهو عبارة عن الحي التجاري Business section وتوجد به المحال التجارية والمصالح الحكومية وبعض

الفنادق الضخمة . ٢) منطقة التحول Zone of transition وهي منطقة اتساع
 الحي التجاري ، حيث تتبدل المساكن بمحال تجارية . ٣) حي العمال Zon of
 workingman لاقتربه من منطقة نشاطهم . ٤) حي الطبقة المتوسطة Zone
 of middle class وفيه بعض الفنادق أيضاً والبنائات الواسعة التي تحوي عدداً
 كبيراً من العائلات الصغيرة . ٥) حي الطبقة الارستقراطية Zone of upper
 class ويقع في النواحي المتطرفة .





شكل رقم (١)



البعث الخامس^(١)

الريف السوري (القسم الأول)

نموذج من الأرياف السهلية الصحراوية (بادية الشام)

بادية الشام في شرقها صحراء قليلة العمران إلا في بعض الاماكن التي تسقيها الانهار والقنوات كالحسكة ودير الزور وتدمر والقريتين . وضعها التوبوغرافي أقرب إلى الاستواء إلا في بعض الأكنات والوعرات . مناخها جاف الهواء قليل المطر تتوهج فوق ترابها الاحمر الاصفر وقدات الشمس الحساسة في الصيف وتهب على جوانبها نوافح البرد القارس في الشتاء ، إلا إذا هطلت الامطار وكانت غزيرة فتغدو البادية أريضة بهيجة ويكثر فيها الكلاء وتجود المراعي (وبعضها جميل زكي الرائحة كالعرار والشيخ والقيصوم) . وعلى أثر ذلك تنتشر قطعان الأبقار والاعنام ويسعد ساكنو البيوت المنسوجة من الشعر والتي تخفق الارياح فيها فيحبها البدو حباً خالصاً ويمنعونها من عواطفهم الشيء الكثير .

(١) هذا البحث مستقى من الكتب التالية :

— احمد وصفي زكريا : عشائر الشام ، دار اليقظة العربية . دمشق ١٩٤٧

— حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ، عام ١٩٤٩

— العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي . دار الكتاب بيروت ١٩٤٧

والبدو هم ساكنو هذه البيوت . قال اللغويون : تبدى = نزل البادية وتعلق
بالدابة وربى الابل أو الغنم أو كليهما وارتاد الكلاً ومساقت الغيث . وهؤلاء هم
أهل وبر لا أهل حضر ولا أهل مدر .

والدابة حالة من حالات الاجتماع معروفة في الصحارى كما هي معروفة في
الصحراء العربية . وهي ذات وظيفة اقتصادية لأن جماعة البدو يستفيدون من
المراعي الواسعة ويفيدون . فهم يمسحون المساحات الواسعة من العشب الأخضر
ليقبلوها بفضل مواشهم إلى لبن أبيض أو جبن جامد فينقلون إلى أهل الحضر .
وهذه مرحلة من مراحل تغذية الانسان تشبه تحول التراب إلى ثمار بفضل
الشجر وانتقال الثمار إلى الانسان. والبدو يحبون التجول في البادية رغم وحشتها،
فيمسحونها لاطعام الابل والغنم التي هي سبب رزقهم ومركز عنايتهم .

ويبلغ البدو في براري الجمهورية السورية نحو (٣٠٠.٠٠٠) نسمة . وهم
صانعو السمون وعندهم منبع الاصواف واللحوم التي يستهلكها السوريون في مدن
دمشق وحمص وحماه وحلب ودير الزور وسواها . وإذا كان التجار من سكان
هذه المدن يشاركون عدداً كبيراً من البدو في هذه الموارد فقسم كبير أيضاً
من موارد الدولة يدفعها البدو كضرائب ورسوم عن الاغنام والابل . فالدولة
السورية مدينة لهم وبالمقابل عليها واجب التفكير بما تستطيع أن تسديه إليهم من
خدمات اجتماعية .

أقسام البدو :

يقسم البدو في بادية الشام حسب عراقتهم في البدابة وأطوارها إلى
ثلاثة أقسام :

١- القسم الاول: العشائر الجمالة (وهم البدو الاقحاح الاصليون) أو أهل الابل
ذوو النجمة البعيدة يقطنون في نجعتهم ٥٠٠-٦٠٠ كيلومتر ويصلون حتى منطقة
الوديان داخل الحدود العراقية أو منطقة الخيرات داخل الحدود الاردنية والسعودية.
دأبهم الترحال أو التشريق والتغريب بين قفار البادية والبراري ارياداً للغدران
وانتجاعاً لمنابت الكلاء . ويتخذون الخيل لركوبهم والابل لنقل أثقالهم
والمقايسة في مبايعاتهم ومهر زوجاتهم . وهم أشد البدو بأساً وأكثرهم تحملاً
للمشاق وشظف العيش . ولا يغشون قرى المعمورة ومدنها إلا نادراً وللضرورة
في سني المحل والظماً للمسابلة أي للامتهار وشراء حاجاتهم وبيع أصوافهم وأوبارهم
والذكور من إبلهم وخيلهم . والمشهور منهم في بلادنا قبيلتان كبيرتان : قبيلة
عنزة في براري الشامية وقبيلة شمر في براري الجزيرة وما يتبعها من العشائر
العديدة .

٢- القسم الثاني: العشائر الغنامة (وهم الشوايا عربان الديرة) أو أهل الغنم . وهؤلاء
ينجمون في الشتاء ولكن إلى مسافات قريبة محدودة في براري الشامية والجزيرة ولا
يزيدون عن ٢٠٠ - ٣٠٠ كيلومتر مراعاة لمقدرة الغنم ولقرب الآبار والمناهل
الصالحة لورودها . وهم نصف بدو أو نصف رحل وعندهم حل وارتحال وطعن
وضرب . لكنهم فريقات فريق لا يرتزق إلا بالضرع أي يرعى الماشية فقط .
وفريق ثان يضم إلى الضرع امتلاك الضياع والارضين باستثمارها بالحرس والزرع .
والماشية التي يقتنونها إما أن تكون لهم وحدهم ، وإما أن تكون لأهل المدن
السورية في دير الزور وحلب وحماة وحمص ودمشق وسواها يشاركونهم في
تربيتها والمتاجرة بصوفها وسمونها التي تدر عليهم في سني الخسير ثروة طائلة .
والمشهور منهم في بلادنا الموالي والحديديون والفواعة والنعم وطبي والجبور

والأبو شعبان وغيرهم من العشائر في الشامية والجزيرة .

٣ - القسم الثالث : العشائر المتحضرة والمستقرة (وهم الاعراب الفلاحون = الفلاحي) وقد أصبحوا أهل حضر ومدر وتركوا البادية والبداءة وآووا إلى حمى الدولة . وبعد أن كانت بيوتهم من الشعر أصبحت من الطين والحجر وعكفوا على الحرث والزرع أكثر من تربية المواشي وصاروا أهل قرى . وهم في بلادنا منتشرون في الاقضية وكثير منهم من تعددت أسمائهم وصغرت أنسابهم وأحسابهم .

تختلف البلاد العربية من حيث نسبة العشائر البدوية . فالمملكة العربية السعودية تعد في الطليعة بعقبها العراق واليمن فشرق الاردن وسورية وفلسطين أما من حيث نسبة الارض الزراعية المهجورة فالعراق تأتي أولاً ثم سورية لأن المملكة العربية السعودية أرضها مجدبة قاحلة . لذلك كانت مصر أكثر استغلالاً من الجميع . وبالإمكان جعل العراق وسورية بنسبة كافية استغلالية إذا تنظمت أمور الري بفتح قنوات من دجلة والفرات وإحياء الأنهر المندسة القديمة كالنهروان والاسحاثي والثراء وحرية التي كانت تسقي أراضي العراق في العهد العباسي . حينئذ تتسع الأراضي لملايين من البشر وتقسّم على أساس الملكية الصغيرة وتتألف القرى المتحضرة التي تقضي على نظام المشيخة . إن اقطاع البدوي الارض يجري بشروط منها تسديد ديونه للبنك الزراعي ودفعه الضريبة المستحقة وانصاعه للخدمة العسكرية ولزوم إيشادة أبنية مستقرة له ولعائلته وفق النموذج موضوع من قبل الدولة . وبالإمكان أن نبدأ مع البدوي بالطرق الزراعية الابتدائية ثم نتدوج (عن طريق الجمعيات التعاونية) إلى الطرق الميكانيكية .

كان البدو حتى قبيل ٢٠ - ٢٥ سنة يعتمدون على الغزو والسلب والنهب ، ويعتبرون هذه الطرق طبيعية للارتزاق بعد رعي الابل والغنم . إلا أن قوى

البادية في سورية والعراق من راكبي الهجن إلى راكبي المصفحات قضوا على هذه التبعديت إلى حد بعيد ومن أجل ذلك أصبح البدوي في حاجة إلى التطور والانصراف إلى الزراعة لايجاد مورد من العيش جديد ثابت . وهنا يبدأ التحضر شيئاً فشيئاً .

الصفات البيولوجية والبيكولوجية :

البدو ذو أجسام نحيفة رجالاً ونساء . وقد تكون ضخمة وقد تكون رشيقة ومنها المتوسط أيضاً . لون البشرة أسمر وأقرب إلى السواد . جباه عريضة بارزة أو عادية . عيون سوداء بصاصة وأسارير مقطبة يحيطها شعر أسود مضفر على الغالب . أما وجوه الرجال فهي على كونها أسيلة تنتهي بذقون مدورة وتحمل لحى مستدقة الطرف . وقلما توشم كوجوه النساء ، بل إن بعض العشائر يعتبرون وشم الرجل عاراً . وينتشر الوشم إجمالاً بين نساء العشائر العراقية إذ يكون رمزاً (١) للعشيرة تعرف به (مثلاً في عشيرة العبودة من لواء المنتفك في العراق يكون وشم المرأة بقعة صغيرة على خدها الايمن ...) .

والبدويات سافرات بالطبع يتجولن في الخيام والبراري كالرجال . وطبيعة الحياة البدوية تقتضي التلاقي المستمر بين الجنسين سواء في حلهم أو في ترحالهم . ومن نتائج التعارف والتحاب الذي ينتهي بزواج ، مع العلم أنه محاط بسياج قوي من الصون والعفاف والخوف . وألا تعرض الرجل أو المرأة إلى القتل . وأحياناً

(١) الوشم غير الوسم الذي توشم به الحيوانات والبضائع . ويعتبر الوسم رمزاً ايضاً له فائدته العملية . فقد يسم البدوي فرسه وابله والبضائع التي يحملها الجمل . فاذا مات الجمل او حدث للبضائع حادث فانها تبقى معروفة بالوسم الذي له شكل هندسي معين بحسب القبيلة او بطونها وفخوذها . وتوسم عصا الجمل بحرق رأس العصا بالوسم المعين كما توسم الصخور في الصحراء بنقش الوسم عليها كاشارة للآبار التابعة للقبيلة او كحدود لدير القبيلة .

تحصل هوشات يشترك فيها جميع أفراد العشيرة بالتطاحن والتناحر .
إن النساء في البادية أكثر من الرجال عدداً ويرجع ذلك لكثرة وفيات
الرجال في الحرب والغزوات . والبدوية تقوم بأكثر الاعمال اليومية . وبينما ترى
الرجل طوال النهار وبعض الليل تحت خيمته يشرب القهوة ويقصر الاحاديث
عن شجاعته تجدد نساءه وبناته يشتغلن في رعي المواشي وجمع الاعشاب والحبوب
وتأمين الغذاء وحياكة الكسوة والخياطة .

لا تعتني البدوية في جسمها من الناحية الصحية . وهي تهمل النظافة مع أنها
تتمتع ببعض الحلي النحاسية والفضية من الناحية البديعية . والحوامل من
البدويات لا يتخذن شيئاً من الاسباب المانعة الواقية . فقد يحيثن المخاض وهن
سائرات في الطريق أو أثناء الشغل فيضعن أطفالهن في الطريق وحدهن دون
أدنى مساعدة . والولادة التقليدية تجري بقطع الحبل السري بحجر وربطه بخرق
قذرة بالية . أما الوليد فيلف بخرق مملحة أو مرشوشة بالرمل وتحمله الأم على
ظهرها وتستأنف سيرها كأن لم يحدث شيء . وأحياناً يفصل المولود أو يدهن
بزيت الزيتون . وإذا كانت المرأة ذات المخاض في الخيم يهرع بعض النسوة
المتقدمات في السن والقدر ويساعدها ولا تمضي ساعتان أو ثلاث على الوضع حتى
تعود النفساء إلى أعمالها المنزلية المعتادة . وإذا تعسرت عليها الولادة بحيث تخرج
بعض الاطراف فقط تأخذ حبلاً وتربط أحد طرفيه بأحد قدميها والطرف
الثاني بأحد أطراف الوليد الظاهرة وتشد عليه شداً قوياً حتى تحصل الولادة .
وهذه العملية التي يجري فيها سحب الطفل تشبه عملية سحب الطفل باللقط
Forceps التي تجري في المستشفيات الحديثة ، ولكن بطريقة ابتدائية جداً . ولا
يخفى على الخبير نسبة عدد وفيات الأمهات والاطفال المرتفعة التي تحدث من
جراء هذه الطريقة .

ولا يشهد أحد هذه الولادة أو يسجلها إذ ليس البدو سجل احصاء للنفوس ومن ثم يبقى المولود جاهلاً الزمن والمكان الذي ولد فيه . وإذا توفي البدوي فيدفن في المكان الذي توفي فيه بكل بساطة وبعد مدة من الزمن تمحي آثار القبر ولا يعرف مكان القبر أو صاحبه . فالحياة الابتدائية تظهر وتنمو ببساطة وتزول كذلك كأنها لم توجد . وما التمدن الحاضر الذي يعنى بالخلود إلا نتيجة المشاريع الكبرى التي قام بها أرباب المدن وحفظوها لنا في آثار ثابتة ونحن نقوم بدورنا لنقلها إلى أحفادنا .

إن الأمراض التي تصيب البدوية عقب الولادة عوارض سطحية وقلماً ترتفع حرارتها أو يتسمم جسدها . والعلاجات المتبعة تقتصر على شرب ماء الاعشاب المغلية وفصد الدم واستعمال المراهم المحضرة من مخ العظام . غير أن حوادث الاجهاض كثيرة عند نساء البدو . فقد تحصل بضربة اصطناعية أو بحركة خارجية عنيفة ، أو يبلع ماء بعض الاعشاب المستعملة لهذا الغرض . ففي كل الحالات التي يكون فيها الحمل غير مشروع أو في حالات منع الولادة المتعددة تجري عملية الاجهاض . وإن وفيات النساء والاطفال من هذه الطريقة عديدة ، ولا سيما عند قاطني ضفتي الفرات وأهم أسبابها الأمراض التناسلية كالزهرى المتمكن في سكان هذه المناطق منذ أجيال طويلة . ويقال ان هذا الداء منتشر بنسبة ٨٪ من السكان وأن كل امرأة تهبض ٨ — ١٠ مرات حتى يولد لها مولود واحد حي . ومن نتائج ذلك نقص السكان رغم كثرة الولادات وغنى هذه المناطق الواسعة .

أما أمراض البدو اجمالاً فهي قليلة نظراً لخشونة عيشهم وبقائهم في الهواء الطلق والشمس المحرقة التي تظهر أجسامهم . كذلك التغذية القليلة المركبة من الحليب والجبوب ومشتقاتها واللحم القليل والحلويات التي لا تزيد على التمر تقلل

من أمراض المعدة وعفونتها . ومع هذا فالبدوية تهرم بسرعة ولا تصل سن الثلاثين حتى يتفرض جلد لها ويترهل جسدها قبل الأوان ، وقد تموت قبل الخمسين . وعدم تعمير البدو نساء ورجالاً يرجع إلى أسباب متنوعة منها : (١) تعدد الولادات في النساء ومشاق الحياة بالنسبة للرجال . (٢) تقلبات الطقس السريعة بين الليل والنهار دون إمكان التحفظ منه ويكون تأثير القلب قاسياً في فصلي الربيع والخريف . (٣) سوء التغذية ونقص المواد الفيتامينية في غذاء الطبقة الفقيرة من البدو . وهو غذاء يحوي قليلاً من الزلال وغني بالمواد النشوية فقط . (٤) انتشار الأمراض السارية وغير السارية : كالسل والزهري والمalaria فضلاً عن أمراض العين . وقد يصاب البدوي بالآفة الخبيثة التي تنتشر في البادية بسرعة غريبة كالجدري والطاعون والهواء الأصفر . فمعد وقوع هذه الأمراض يفر من مضاربه تاركاً وراءه مرضاه بعد أن يضع لهم ماء وزاداً . وأحياناً يعهد إلى بعض المعجزة بالاعتناء بالمرضى حتى الشفاء أو الفناء .

وللبدو طريقة خاصة في معالجة الجدري إذا كان فردياً . يعزلون المريض في مكان بعيد عن الخيم ويجهزون به بالطعام والشراب برفقة بدوي كان أصيب بالجدري . فإذا شفي المريض يغسلونه أو يغسل نفسه بشرط أن يحرق ثيابه أو يغسلها بماء غالي ، كما يغسلون النعجة التي زودته بالحليب أو يقتلونها منعاً للعدوى . أما معالجة الجراح كبيرها وصغيرها فتكون بتركها تشفى مع الأيام وبمناخ سطحية هي عناية الحریم في الخيم مع الاستراحة الكافية داخل الخيم . وفي أمراض أخرى حين يشتد المرض بأحدهم إلى درجة الخطر واليأس ، يضرمون ناراً في الرمال ثم يجرفون الحجر ويضعون المريض مكان النار حتى يعرق فيطرد المرض منه . وآخر ما يلجأ إليه البدوي في فن التداوي هو الكي . فهذا إما أن يحصل بسخن من الحديد يحمى على النار ويوضع على محل معين ، وإما أن يحصل

بواسطة خرق ملفوفة تشعل من طرفها وتوضع على الحبل المطلوب ، حيث يحدث احتراق من الدرجة الثانية بشكل حويصلات مملوءة بسائل خلايا الجسم . وبعد أن تتفجر ويسيل السائل منها يأمل البدوي الشفاء .

لا يحفل البدو إلا بولادة الصبي . أما البنت فليس لها محل جدير بالاهتمام ، وإذا سئل أب عن عدد أولاده لا يعد إلا الصبيان منهم . على أن الطفل البدوي سواء كان ذكراً أو أنثى ينمو بشكل طبيعي كالجديان والحملان التي تعيش حوله فلا فرق بينه وبينها . وأقصى عناية يحظى بها إنما هي غسل بدنه بالملح أو الرمل حين يكون وليداً . وقد يدهن جلده بالزيت ثم تكحل عيناه ويلف بخرق مشدودة بخيوط القنب ويوضع على رأسه طاقية صغيرة عليها تمائم .

إن تغذية الطفل البدوي تقتصر على لبن أمه وأكثر البدويات قدرات على ارضاع أولادهن لمدة سنتين أو أكثر فلا يلجأ إلى لبن الحيوانات خوفاً من الاسهالات المعوية (مع ذلك فإن أكثر وفيات الاطفال لغاية السنة الاولى تكون بسبب الاسهال والتسممات المعوية الناتجة عن أسباب أخرى) . وبعد الفطم يأكل الطفل لبن الحيوانات والخبز والارز وجميع ما يطبخونه في البيت . وقد يعرض أثناء ذلك عدة مرات وربما هلك . وتقدر نسبة الوفيات في هذا الدور ٧٠٪ من المواليد .

يترعرع الطفل البدوي دون أن يتمتع بالعطف الأبوي تمتعاً كافياً . وهو لا يتمتع أيضاً باللهو واللعب ومسررات الطفولة زمنياً كافياً . تظهر أسنانه بعد الشهر العاشر من عمره ويمشي بين السنة والستين ولا يتكلم إلا بين السنة الثانية والثالثة بسبب تشتته الاجتماعي . وعندما يصبح بين الخامسة والسادسة يكلف ببعض الاعمال التي تشغله عن ملذات الحياة . أما لباسه فيقتصر على بقايا الملابس البالية القذرة التي كانت لأخوته وأبيه . قدماء حافيتان وتصلبان من كثرة المشي

على الحصى والاشواك . رأسه مخلوق إلا من خصلتين طويلتين تتدليان الاولى على جبينه والثانية تبقى في قمة رأسه (تستخدم كما يزعم بعض البدو كواسطة لسحب روح الطفل إذ يشدها ربه حين الوفاة) . ومع أن البدوي حريص على النسل ويفتخر بتعداد أولاده . فهو لا يهتم ببقائهم . وهو يؤمن بالقضاء والقدر ويعتقد أن وفاة الطفل البري تشفع له وعائلته في الآخرة .

إن الحالة الصحية للطفل البدوي سيئة اجمالاً . يظهر بطنه منتفخاً من سوء الغذاء وصدره بارز الاضلاع مقوساً كصدر الدجاج . أطرافه ضعيفة هزيلة ورأسه كبير يقف على عنق دقيق كالعنق . ولا تخلو جمجمته من علامات الخرع . ومن السهل تعداد الامراض المتنوعة التي تصيب الطفل البدوي فهي :
(١) الاسهالات بكل أنواعها . (٢) الجدري ، لأن اللقاح لا يزال مجهولاً عند أكثر البدو . (٣) الحصبة وتأتي بصورة عنيفة مع تقلبات الطقس القاسية . وأكثر الاطفال يصابون من جراء هذا الداء بذات الرئة وذات الجنب ويهلكون منها . (٤) الملاريا وهي كثيرة الوقوع . ويقال أن عشر وفيات الاطفال منها . (٥) الزهري وهو متمكن في بعض المناطق كما ذكرنا وينتقل بالوراثة فيحول دون نمو الطفل نمواً صحيحاً ويحط من مناعته . فاذا تعرض لأقل الامراض يهلك منها . (٦) التدرن الرئوي وأمراض الصدر وسواها . (٧) أمراض العين وأمراض الجلد وما ينتقل من آثار القمل والجراثيم المتعددة .

وإذا ما اجتاز الطفل سنته السادسة يصبح في أمان من الاخطار على الأغلب . ومعنى ذلك أن مناعته كافية وهي تنبئ بحياة قوية تبعاً لقانون بقاء الأنسب . فكل من يفلت من قبضة الموت حتى هذه السن له أن يثابر على مصاعب العيش ويزداد أمله بطول البقاء عاماً بعد عام . حينئذ يتمتع بملذات الحياة البسيطة كما تتمتع بها آباءه وأجداده . يرعى الابل والمواشي ويركب الخيل والجمال . يتزوج

ويحضر الحفلات ، رقص ويدبك مع الجماعة . يتناضل ويساهم في حياة الرجولة كما تفرضها قواعد الحياة المنعزلة في البوادي .

يمكن تصنيف البيوت التي يسكنها البدو إلى ثلاثة أنواع بحسب نوع الحضارة : (١) الخيام وبيوت الشعر : وهي مصنوعة من وبر الابل وشعر الماعز ومرفوعة على عمود أو أكثر . وكلما زادت أهمية الأسرة زادت أعمدة الخيمة . مثلاً يملك شيوخ العنزة وشمر (ابن شعلان وسواه) خياماً واسعة يقسمونها داخلاً بالستائر المزخرفة إلى غرف تشبه غرف البيوت الحضرية بما فيها من أثاث وسجاد وأدوات القهوة والمطبخ . أما البدوي العادي فيقسم خيمته ذات العمودين أو الثلاثة إلى قسمين . يخصص قسماً لأسرته مع قليل من الادوات والآخرة لضيوفه مع قليل من الاثاث . ومن الطبيعي أن تقل أمتعته تسهيلاً للحركات السنوية (رحلة الشتاء والصيف) . ولا يخلو البيت على كل حال من صينية نحاسية يأكل فيها الضيوف لحم الغنم والبرغل (أو الرز لدى القبائل المجاورة للعراق) مع إبريق القهوة المرة ذي المنقار وتوابعه . (٢) البيوت القصبية : وهي بيوت مصنوعة من القصب الطبيعي الذي تتداركه العواصف من الأهوار . يتألف هيكل البيت من حزم قصبية مرتبطة بشكل أقواس منحنية ، خمسة أقواس أو أكثر . وكلما زادت أهمية الأسرة زاد عدد أقواسها . يصنع السقف أيضاً من القصب الذي تزداد كثافته في الشتاء وتقل في الصيف مع فتح الجوانب بما يشبه النوافذ . (٣) الأكواخ : وهي بيوت مصنوعة من القصب والبردي يسكنها الفقراء لأن البردي يحصلون عليه مجاناً من الأهوار حين يخرج أحدهم بقرابه الصغير ليجرد منها ما يحتاج اليه . ويسكنها أيضاً (في نواحي العراق) المتوطنون الذين يزرعون الرز ويربون الجاموس قرب الأهوار .

الصفات الاجتماعية والنفسية :

يفيدنا قبل تفصيل هذه الصفات أن نذكر طريقة من طرائق البحث الاجتماعي في هذا الموضوع . وهي مثال واقعي قامت به بعثة دولية عام ١٩٤٩ . بعض أعضائها من جمعية الصليب الاحمر الدولي وبعضهم من الجامعة الامريكية بيروت وبعضهم من المؤسسة الصحية العالمية . وقد أجرت البعثة بحثها في أحد معسكرات اللاجئين في جنوب سورية في بعض القبائل الفلسطينية التي نزحت حديثاً من الجليل الأعلى . ولم تبحث البعثة في تاريخ هذه القبائل خوفاً من الشك الذي قد يتسرب إليهم بأن هذا البحث له علاقة بقضية إعادتهم للوطن . وعلى العموم يمكن اعتبارهم طبقة من الزراع انحدرت حديثاً من البدو الرحل منذ ٥٠ - ٧٥ سنة تقريباً .

اهتمت البعثة بجمع المعلومات عن الحالة الاجتماعية والعادات الخاصة بهذه القبائل كما اهتمت بمعرفة نسبة الاصابة ببعض الامراض المهمة . أما المعلومات عن الحالة الاجتماعية فقد حصل عليها بالتحدث إلى ٢٠٠ رجلاً من أرباب العائلات بينهم ٢٠ مختاراً (رئيس عشيرة) و ١٠٠ امرأة من السيدات . وكانت مناقشة الرجال تجري في مجموعات تتكون من ٨ - ١٦ نفرأ بحضور رئيس عشيرتهم (المختار) وكانت تلقى عليهم الاسئلة من أوراق مطبوعة يقرأها طبعاً بعض أعضاء البعثة . وللتأكد من صحة المعلومات التي جمعت بهذه الطريقة ، أعيد سؤال ٢٠ ٪ من الرجال ذوي عائلات أكبر من المتوسط . فحضر من الاربعين رجلاً الذين طلبوا المقابلة ٣٦ رجلاً ، ومن هؤلاء ٥٠ ٪ أعطوا إجابات مطابقة للأصل تماماً و ٢٣ ٪ أخطأوا أخطاء تافهة (كالاختلاف في عمر الطفل عند وفاته) و ١٧ ٪ أخطأوا أخطاء كبيرة في إجابتين (كالاختلاف في معرفة عمره

نفسه أو عمره أثناء زواجه) .

فاذا أخذنا مجموع عدد الاطفال وعدد الاحياء والاموات منهم كأرقام للمقارنة بين المعلومات التي نتجت عن المقابلة الاولى والمعلومات التي نتجت عن المقابلة الثانية وجدنا ان الخطأ لا يتجاوز ٥ ٪ . ولما كان متوسط عدد أفراد العائلة الواحدة حوالي عشرة أفراد فإنه يمكن اعتبار النتائج التي جمعت بهذه الطريقة صحيحة في مجموعها وجوهرها .

١ — وجد أنه من بين ٢٠٠ رجلاً سئلوا عن موضوع (تعدد الزوجات) اثنتان وثلاثون أي ١٦ ٪ أجابوا بأن لهم أكثر من زوجة واحدة وكان أقصى عدد لهذا التعدد هو أربعة ، وفي معظم الحالات كان الزوج يفرد لكل زوجة حجرة أو خيمة مستقلة ، إلا أن رجلاً واحداً أمكنه أن يجمع زوجاته الاربعة بأطفالهم في خيمة واحدة مفرداً لكل منهن ركناً من أركان الخيمة .

٢ — في موضوع (سن الزواج) لوحظ أن الرجل العادي لا يعرف بالتأكد عمره أو سن زواجه ، وهو إذا سئل أعطى رقماً من مضاعفات الرقم ٥ كأن يقول ٢٠ أو ٢٥ ، الخ ... ومن بين الـ ٢٠٠ رجلاً الذين سئلوا عن سن زواجهم اتضح أن أصغر سن كانت ١٤ سنة وحدث ذلك في حالة رجل واحد ، و ٦ ٪ منهم تزوجوا في سن ١٥ سنة ، و ٢٥ ٪ في سن ١٨ سنة ، و ٥٩ ٪ في سن ٢١ سنة ، ويقابل ذلك ٩ ٪ تزوجوا في سن الثلاثين أو بعد ذلك .

٣ — في موضوع (الطلاق) رغم أنه يجري بسهولة حسب العادات المرعية بين القبائل فقد لوحظ أن نسبته ضئيلة في هذه القبائل بشكل خاص . إذ وجدت ثلاث حالات فقط من بين الـ ٢٠٠ رجلاً أي بنسبة ١,٥ ٪ لذلك يجوز افتراض بعض الفرضيات لتعليل هذا الشكل الخاص .

٤ — في موضوع (عدد الاطفال) دلت المعلومات على أن ال ٢٠٠ رجلا لهم ذرية تبلغ ١٣٤٤ طفلاً كان يعيش منهم أثناء بحث البعثة ١٨٩٣٠ . ومن الاطفال الذين توفوا ١٣٠ أي ٩٧٪ ماتوا في السنة الاولى من حياتهم (أي أن نسبة الوفيات بين الاطفال تبلغ ٩٧ في الألف) . وبعض هذه الوفيات حدث نتيجة للحرب أو لما تبع ذلك من تشرد اللاجئين وتنقلاتهم ، فمن بين ال ١٣٠ طفلاً المتوفين ٢٤ طفلاً ماتوا في المدة بين ترك الوطن وتاريخ هذا البحث : (مما يقلل النسبة الخاصة بوفيات الاطفال ويجعلها ٨٠ في الألف ولو أن بعض هؤلاء الاطفال ربما قد كان توفي على أية حالة ...) .

ويمكن القول على العموم أن ١٠٪ تقريباً من مجموع الاطفال يموتون في السنة الاولى من حياتهم وأن ٢٠٪ يموتون في الخمس السنوات الاولى من الحياة . وقد دلت المعلومات عن العائلات الكبيرة التي لها سبعة أطفال أو أكثر (ويوجد ٧٢ عائلة من هؤلاء) أن ٩ عائلات بينها أي ٢٥٪ أمكنها أن تربي جميع أطفالها بدون خسارة واحدة ومن هذه العائلات من لها تسعة أو عشرة أطفال — وهي جهود لا يستهان بها — أما الباقي فنذكر منه ٢٣ عائلة أي ٣٣٪ من مجموع هذه العائلات ، قد فقدت ٥٠٪ أو أكثر من أطفالها .

٥ — في موضوع (التعليم) لوحظ اختلاف درجاته بحسب الاحوال المادية . كما لوحظ أن الأمية منتشرة جداً ولو أنه لا يمكن بالتحديد اعطاء رقم يمثل نسبتها . وهي تكاد تكون تامة عند بعض الاطفال والشبان حتى أنهم لا يعرفون شيئاً من القرآن الكريم ولا يحفظون منه أي سورة .

ويدخل الاطفال المدارس الابتدائية في سن الثانية عشرة، وذلك في القرى التي توجد بها هذه المدارس . وقليل جداً من أبناء القبائل الموسرة من يدخل مرحلة الثانوي . أما تعليم البنات فانه قاصر فقط على عدد قليل من بنات الاغنياء .

وبالرغم من عدم وجود أفكار تعصبية ضد تعليمهن إلا أن الاهلين يرون أن ليس هناك فائدة تعود إلى البنت من التعليم .

وفي القرى التي ليس بها مدارس يتجمع الاطفال عند الشيخ أو الامام الذي يلقيهم مبادئ القراءة والكتابة ويحفظهم بعضاً من القرآن الكريم . ومع هذا وبالرغم من تفشي الأمية فإن الكبار وضعوا التعليم في قائمة المطالب الهامة الرئيسية التي يطلبون تحقيقها .

٦ - في موضوع (العائلة والزواج) بحث البعثة عن سعة العائلة أولاً فانضح أن متوسط عدد الاطفال في كل عائلة يبلغ ٤ - ٥ أطفال . وهي عائلة واحدة فقط بلغ ٢٥ طفلاً لم يبق منهم حياً إلا ١٦ طفلاً .

وعادات الزواج تختلف كثيراً بين قبيلة وأخرى . ففي بعض الاحيان يستقل الشاب مع زوجته عند زواجها بمنزل أو خيمة خاصة ، وفي أحيان أخرى يبقيان مع العائلة القديمة لمدة طويلة حتى تكبر العائلة الجديدة فتستقل . وقد لوحظ أن ٦٠ عائلة أي ٣٠٪ تعول واحداً أو أكثر من الاقارب الكبار في السن .

أما تكاليف الزواج فهي مرتفعة بشكل خاص في هذه القبائل خلافاً لما يتوقعه الباحث الاجتماعي . وهذه التكاليف بالنسبة للرجل العادي في القبيلة تعتبر البند الرئيسي في ميزانية حياته كلها . ومع اختلاف قيمة المهر بين قبيلة وأخرى فإن المتوسط هو (١٥٠) جنياً فلسطينياً للقريبة و (٣٠٠ - ٤٠٠) جنياً للغريبة . ووجوه اتفاق هذا المبلغ تختلف بين قبيلة وأخرى ، وعلى العموم يكون التصرف فيه من حق والد العروس الذي يعطيها منه مبلغاً لشراء الحلوى والصندوق وبعض الاثاث ، وما يبقى يتصرف به حسب حاله المادية وكرم سجيته . وهي قبيلة واحدة لوحظ أن والد العروس يدفع مبلغاً مماثلاً لما يدفعه العريس وكلا المبلغين

بمطيان لها ، وفي قبيلة أخرى يدفع المهر للعروس وهي التي تعطي والدها ما يترأى لها . وقد كان واضحاً أن ما تحصل عليه العروس من والدها يختلف كثيراً بين حال وأخرى .

٧ - في موضوع (مركز المرأة) سبقت الإشارة إلى أن البنات لا يحظين بالتعليم . وذكرنا أيضاً أنهن في نظر آبائهن أقل حظوة ومنزلة من البنين . وهو ما لوحظ في بحث البعثة عند سؤال الأب عن عدد أطفاله . فكثيراً ما يذكر عدد الذكور فقط ولا يذكر عدد البنات إلا إذا سئل عنهن . وربما كان ذلك عن خجل منه أو عادة خلقية في القبيلة . وقد عرض بعضهم طفلة للبيع على عضوة من عضوات البعثة بمبلغ زهيد .

على أن نظام التملك يعطي للنساء حقوقاً . فعند الزواج يكون الاثاث والحلي ملكاً مشتركاً للثنين ولا يجوز الزوج أن يتصرف في شيء منه إلا بعد موافقة الزوجة . وعند موت الزوج ترث الزوجة ثمن أمواله وعقاره وتكون في العادة وصية بالباقي لأطفالها ، إلى أن تزوج ثانية .

صفات أخرى اجتماعية نفسية :

ينتج مما سبق أن الحالة الاجتماعية والعادات الخاصة تختلف كثيراً بين قبيلة وأخرى في مجموعة من القبائل نزلت عن بقعة صغيرة . فإنا قولنا في مجموعة من القبائل كثيرة العدد عديدة المناطق ؟ فالمعلومات التي نحصل عليها (بتفصيلاتها الخاصة) في منطقة معينة لا يمكن تطبيقها في مناطق أخرى إلا من قبيل التقريب فهي معلومات نسبية كسائر المعلومات الاجتماعية التي يسجلها الباحثون . أما المعلومات التي نحصل عليها (في خطوطها الكبرى) فهي مشتركة إجمالاً . وفيما يلي معلومات من النوع الأخير مستقاة من مجموعات أخرى في البادية ، اتماماً للبحث

وتنويراً لبعض النقاط الهامة :

١ - في موضوع (الزواج والطلاق) يجوز دفع المهر مقدماً ويجوز دفعه من المواشي وأحياناً من الحلى والمجوهرات التي يتميز بتقديمها الاغنياء فقط . ومن مفاخر بعض البدو أنهم يسمحون لبناتهم قبول طالب الزواج أو رفضه وهم يفتخرون بهذه العادة على أهل القرى والمدن . ولا حاجة لاقامة المراسم باحتفال الزواج ، بل توجه بعض الاسئلة القليلة بحضور أهل العريسين فيجاء عليها وينتهي العقد . ثم يولم العريس وليمة الزواج بينما تنتقل العروس إلى خيمة أمه حيث يلتقي بها .

وأم صفة تستحب في المرأة هي قدرتها على انجاز واجباتها البيئية وتلبية جميع حاجات العائلة داخلياً . أما واجبات الرجل فهي حماية بيته وممتلكاته والدفاع عنها . وإذا نشأ خلاف بين الزوج والزوجة ، فيستطيع الزوج أن يطلق زوجته . ومن الاسباب المبررة لذلك عقم الزوجة . وإذا كان المروجة شكوى هامة ضد زوجها ، تترك خيمتها وتلجأ إلى خيمة قريب أو صديق فتدخل تحت حماية زوجته ثم يدعى والد الزوجة فيأتي ، وهنا إما أن يجبر ابنته على العودة إلى بيت زوجها ، أو أن يحاول الاصلاح والتوفيق بينهما . فإذا فشل وأصرّت الزوجة على الطلاق ، وجب إذ ذاك على أهلها أن يعيدوا إلى الزوج جميع المهر الذي أخذوه . وبعد ذلك يحق لها أن تتزوج مرة ثانية إذا لم تكن حاملاً . وإذا طلق الزوج زوجته بدون سبب شرعي (كسوء السلوك أو العقر مثلاً) فيحق لها أن تأخذ معها حمل حمل كامل من أملاك زوجها وجميع ما حملته له يوم زواجها .

٢ - في موضوع (الغزو والحرب) تقوم جميع عادات البدو على فكرة المحافظة على قواتهم الحربية . وهذه الفكرة نتيجة لفريضة حب البقاء وتنازع البقاء الذي بمقتضاه يحافظ كل بدوي على حريمه وأولاده وحيواناته . لا شك أن

« العصبية » تؤدي وظيفة حيوية واقتصادية ، غير أن الشيء المبالغ فيه هو وجود صداقات ومحالفات بين بعض القبائل المتجاورة وعداوات وثورات قديمة جداً بين البعض الآخر . ولا تتوقف سلامة القبيلة إلا بالمحافظة على القوات الحربية والمبالغة في هذه المحافظة . وعندما ينوي البدو القيام بغزوة ، تؤخذ الاستعدادات وتوضع الخطط حالاً ، ثم يعين المشتركون في الغارة قائداً لهم يكون عادة من عائلة الشيخ يختارونه لأنه عارف بتلك المنطقة أو لأنه قام بخدمات جليلة في هذا المضمار .

إن نظام القبائل الاجتماعي مزيج غريب من الاقطاعية والديموقراطية . فالشيخ الحاكم هو اجمالاً من العائلة المترعمة في القبيلة التي تقرر أن يحكم من كانوا من أبنائها . أما العادة المتبعة فهي أن يحكم ابن الشيخ الأكبر فيحل محل والده ، ولكن ذلك ليس شرطاً . فإذا كان الوارث ضعيفاً محتقراً بين القبيلة انتقل الحكم إلى أخيه أو أحد أبناء أعمامه ويتم ذلك برضى الجميع . ويحذر الحاكم دائماً أن لا يسيء إلى الرأي العام في القبيلة وإلى العادات والتقاليد المعترف بها في الصحراء . أما الصفات الضرورية لزعيم القبيلة والتي تضمن له النجاح فهي الشجاعة والغنى والكرم والعدالة . ويخاطب الشيخ عادة باسمه الأول (الشيخ فلان) وإذا كان المتكلم أكبر منه سناً فيخاطبه بدون لقب شرف ، وبشيء من عدم الكلفة . منادياً إياه يا أبا فلان (مسمى ابنه الأكبر) . كقولهم أبو فيصل أو أبو علي للملك حسين .

٣ - في موضوع (مجلس البدو) يعتبر بيت الشيخ نادياً لرجال القبيلة ولا سيما إذا قدم ضيف من الحضر . فإذا ما رأوه انسلوا من كل حذب وصوب وجاءوا لرؤيته وقعدوا حوله بهفون آذانهم لأقواله وأخباره الطريفة . وهذا ما يسمونه (علوم) . وإذا لم يكن في بيت الشيخ ما يتسلون به من القصص

والاخبار يأخذ شاعر القبيلة ربابة يضرب عليها ويفكهم من محفوظه أو نظمه بأشعار يدور أكرها حول المآثر والمفاخر التي جرت لمشاهير الفرسان والغزاة كما يدور بعضها على وقائع الحب والهيام ينشد الشاعر كل ذلك بلهجتهم البدوية وأنغامهم الفطرية بأسلوب لطيف شجي يتوافق مع رنات الربابة وترنح له أعطافهم حماساً وطرباً . وما عدا هذا النشيد فإن لديهم ألعاباً يتسلون بها كسباق الخيل يطلقونها ليروا الفائز منها أو العراضة وهي اجتماع الخيل مستعرضة تلعب أمام نساء العشيرة أو الرقص الذي يجرونه في الاعراس وحفلات الختان وفي أيام الربيع وأوقات المتعة والراحة .

من مميزات البدو في الصحراء والبادية جههم للضيافة . والقول السائد بين البدو هو : « إن الله قد وهبنا هذه الخيرات فهي للجميع » . وترجع عادة الضيافة إلى عهود قديمة وهي وإن كانت معروفة منذ عهد الآباء والبطارقة القدماء غير أنها ترجع إلى ما قبل هذا العهد . يأتي الضيف للمفاوضة بشروط الصلح أو ترتيب الفدية عن قتل أثناء الغزو أو الأخذ بالثأر ، فلا يسأل عن مهمته إلا بعد تناول الخبز والملح ، بل لا يبحثون المسائل الهامة إلا بعد العشاء وأحياناً تؤجل حتى الصباح رغم تشوق الطرفين إلى طرحها على بساط البحث والوصول إلى حلها .

على الرغم من اتفاق أهل القبيلة واتحادهم أثناء الخطر الخارجي فانهم كثيراً ما يختلفون داخلاً بعضهم مع بعض . وهم أناس متعصبون متحزبون حتى في الأمور الثانوية . والخلافات التي تنشأ بينهم يومياً تحال في الصباح إلى المجلس (مجلس الشيوخ) حيث يعرض البدوي قضيته ، فيدافع أنصار كل بدوي عن قضية صديقه بكثير من الضجة والحساسة . ولكل من حضر حق اسداء النصيح لأن محكمة البدو هي محكمة حرة ويتاح للبدوي أن يقف أمام الشيخ الحاكم ويناقشه

كفرد ويدافع عن حقه بكل ما أوتي من صراحة . ثم يجتمع الشيخ بعد استماع القضية بالشيخ الآخرين والمتقدمين في القبيلة فيتخذون حكمهم بدون تحيز أو رشوة وخدمهم مبرم نافذ لا يقبل الاستئناف . وقلماً يخطي الشيخ في حكمهم لأن بيئتهم صغيرة وكل منهم يعرف كل شيء عن حياة الآخرين وأعمالهم . ويستطيع الشيخ الحاكم بجلسته واحدة أن يحل أي نزاع إلا إذا تغيب أحد الشهود فيضطر إلى تأجيل الحكم لجلسة أخرى . وإذا ما صدر الحكم يدفع البدوي ما يترتب عليه من الغرامات بحسب قرار المجلس وإلا ينفي من القبيلة ويصادر الشيخ مواشيه .

٤ - في موضوع (أخلاق البدو) تختلف القبائل بالاخلاق والسمعة . بعضها حسن السمعة قوي الشكيمة وبعضهم خلاف ذلك . قال الأب (لامنس) المستشرق المشهور : « يستحيل علينا أن نحسب البدوي متوحشاً رغم مظهره الخشن . فان حزمه وثباته وسرعة خاطره وقدرته على استقبال الضيف كل ذلك يجعلك تشعر أنه (جتلمان) بالفطرة . وإذا وضعته في ظروف ملائمة فبإمكانه أن يقتبس بسرعة فائقة أرقى تطورات المدنية الحديثة . وقد أعد البدو للعالم ملوكاً لبابل ، ومشرعين مثل حمورابي ، وامبراطوراً لروما مثل فيليب العربي ، كما أعدوا أمثال زنوبيا التي حكمت الشرق العربي برهة من الزمن . وقد بنى هذا العربي تدمروالبترا ، وسيطر على التجارة داخل آسيا . وإذا سلمنا أن اللغة تعكس عقلية الشعب الذي ينطق بها ، فتدل اللغة العربية على أن البدوي ليس متوحشاً ، فقواعد لغته غاية في الدقة ولغته غنية بالمصطلحات والمفردات ذات المعاني العميقة . يشعر البدوي بأنه فرد من أفراد القبيلة ويطيع رئيسه أو غيره من الرؤساء الذين يشرفون على أمور القبيلة في حالة الحرب أو السلم . وقد يدفعه إخلاصه للقبيلة إلى مناصرة منافس لرئيسه الشيخ فتتشق القبيلة في ظروف كهذه ولكن انشاقها لا يدوم أكثر من بضع سنوات محدودة . وإلى جانب الشعور القبلي

الذي يقوى في البدوي فردياً فإن شعوراً آخر بالواجبات الانسانية لا يفارقه . فهو كريم مضياف كما ذكرنا ويعنى بتوطيد الصداقة مع ضيفه واستمرارها في المستقبل طالما قد شاركه في الخبز والملح . ورغم أن البدوي لا يعنى بولادة البنت ولا يفخر إلا بالذكور ، فهو يحترم المرأة ويصونها من التعدي . فالمرأة محاطة بالسلام ولا يمسها البدوي بأذى مهما بلغت الخصومة بين القبائل . وبناء على هذه الحرمة إذا قتلت امرأة لا تودى بدية واحدة بل بأربعة إلى ثمانية ديات بالنسبة لحال الجريمة . ومن صفات البدويات عزة النفس وشدة التعلق بالأهل والأزواج وقيامهن مقامهم في ضروب المتاعب فضلاً عن مساعدتهن لهم أيام الحروب والغزوات . وقد يصبرن معهم على الجوع والظما ولو في حمارة القيظ ويتخذن الارض فراشاً ولو أثناء الشتاء .

وإذا كان نظام البدو مزيجاً من الارستقراطية والديموقراطية، فالارستقراطية لا تبدو إلا في ظاهرات محدودة كالحكم ورياسة القبيلة ومراسم الزواج . أما الديموقراطية فمجالها أوسع في شتى نواحي الحياة اليومية . فالفرد وشيخ القبيلة والأمير يأكلون جميعاً الارز والبرغل واللحم والخبز والتمر على طراز واحد ويلبسون الثوب والعباءة والعقال والكوفية ويتمتع أفرادهم بحرية لا حد لها . وأجمالاً يمتازون بالزهد بالنسبة لمظاهر الدنيا ، فلا يلبس أحدهم إلا ثوباً واحداً أو ثوبين يبدلها مرة واحدة في العام بمناسبة عيد الفطر إذا كان مسلماً أو عيد الميلاد إذا كان مسيحياً .

يرجع البدوي أن يموت في ساحة القتال ، وإذا مات في الخيم موتاً طبيعياً فالحزن شديد والغم شامل . على كل حال يكفنون الميت بقماش بسيطة سواء كان أميراً أم فرداً عادياً ، ثم يدفنونه في حفرة عادية إلى جانب أمثاله . وقد يرصفون فوق الحفرة حجارة حفظاً للجثة من الطيور والحيوانات ويغرسون حجراً قرب

الرأس ليدل عليه . ومن السهل أن تزول هذه الآثار بعد زمن قصير .

التغيرات الحديثة في حياة البدو :

لن يقطن الصحراء أحد غير البدو ، إلا إذا انتشر الري وأصبحت الصحراء القاحلة أرضاً . وإذا انتشر الري تتحسن الأحوال الصحية بدون ريب . وأهم من ذلك تحسين نظامهم الاقتصادي بتنظيم تجارتهم على أساس تعاوني ، وإلا فيبقون تحت رحمة التجار الظالمين والمرايين الطامعين . وفي المستقبل القريب ينقلون منتوجاتهم إلى المدن على السيارات عوضاً عن الجمال ويضمنون بذلك السرعة والتوفير ، ومنذ الآن بدأت الاغنام توضع في السيارات لتسير في يوم واحد ما كانت تسيره سابقاً في أسبوعين . وعندما تصبح وسائل النقل والسفر تحت سيطرة الحكومة (الخطوط الحديدية مثلاً) يصبح في مقدور تجار المدن الذهاب بأنفسهم إلى مخيمات البدو ليمقدوا صفقات البيع . وبقليل من التحسينات الاقتصادية تزداد موارد البدو ، ولعل أهم هذه التحسينات تنظيم المراعي وملاجئ المواشي مع استثمار آبار المياه بطرق علمية . وسوف يهد لهذا الاستثمار استثمار ينابيع البترول . كما أن السيارات والطائرات سوف تكون عوامل قوية في توطيد الأمن وتغيير مستقبل القبائل البدوية ، وبإمكان كل واحد منكم أن يتنبأ بما ينبغي لهم الدهر !

فالسيارات تمكن الجنود وجباة الضرائب وموظفي الحكومة من قطع الصحراء بسرعة فيلحقون بالقبيلة أنى تكون . والطائرات تستطيع اكتشاف مقر أي قبيلة منعزلة . لذلك يعتقد شيخ قبائل شمر في شمال العراق ، وهي من أكبر القبائل العربية ، أن الغزو سيبتل ثم يتسائل ما معنى استمرارنا في القتال والقضاء على اخواننا وبني جنسنا ؟ ويفتخر أن قبائله لم تشن غزواً منذ عدة

سنوات . وقد وافق الملك ابن السعود على فكرة منع الغزو ، فمنعها في بلاده .
أما الوسيلة الاولى التي تستطيع بها الحكومات أن تسيطر على البدو فهي تقوية
الآبار ومصادر المياه لأن البدوي يضطر إلى النزول عند رغبة من كان مسيطراً
على المياه . وإذا قلنا مياه نقول أيضاً كهرباء .

إن النقل بالوسائل الحديثة بدأ يؤثر فعلاً في حياة البدو . ففي كثير من
المناطق كان البدو يؤجرون جمالهم لنقل الحنطة إلى أسواق المدن ، أما الآن
فتنقل الحنطة بسيارات الشحن والقطارات. وقد كان البدوي في الماضي لا يعرف
إلا حياة الصحراء فتكيف على حبها وألفها ، أما الآن فصار يستخدم وسائل النقل
السريعة الرخيصة ويזור المدن الكبيرة مستوحياً منها عدم الرضي على شظف
العيش الرقي ومتاعبه . ويتأثر البدوي الساذج ، في أغلب الاحيان ، بمفاسد
المدينة وشروها مثل الفسق والشرب والمقامرة والتادي في الأكل وتناول
الحدرات . أما الذين نشأوا في المدينة فهم غالباً أقدر على تجنب هذه التجارب من
الذين يرتعون في أحضانها دفعة واحدة. ويستطيع التجار اليوم أن يحملوا بضائعهم
بسهولة إلى مقر القبائل فتزداد حاجة البدو رجالاً ونساء إلى مستحدثات المدينة
فالיום تجدون مثلاً أن الاحذية ذات النعال المصنوعة من مطاط السيارات تملأ
الصحراء بينما كان سكانها حفاة من قبل . وتجدون النظارات السوداء ، كما
تجدون سيارات الشيوخ القوية التي كثيراً ما يستعملونها في الغزو بدلاً من الخيل
العربية الاصلية . أفلا ترون إذن أن التقاء حضارتين عند أهالي الصحراء قد
يفسد عليهم نواحي كثيرة من حياتهم السعيدة ؟ أفلا يوقعهم ذلك في حيرة
الاختيار بعد زمن ؟ وماذا سوف يرجحون ، حضارتهم أم الحضارة
الثانية المغربية ؟

بإمكانكم أن تحيوا على مثل هذه الاسئلة : وهام أولاء بعض الشيوخ يرسلون

أولادهم إلى مدارس المدن فيتعلمون لغات جديدة وثقافات جديدة . إنهم يتعرفون على مستويات من العيش مختلفة ويطبقون أساليبها كالاستحمام بالدوش والأكل بالشوكة والنوم على فراش وثير وارتداء الملابس الغربية وقراءة المجلات المصورة والتمتع بأفلام السينما والتحدث إلى الناس بآراء طريفة . فماذا يفعل هؤلاء الأبناء إذا رجعوا إلى قبائلهم ؟ هل يصبرون على الحرمان من الفواكه والخضر ويثابرون على الاقلال من الثقافة ومتع الحياة فتضييق بأعينهم الدنيا ؟ لا شك أنهم يرجحون الرجوع إلى المدن ولكن إذا صعب عليهم ذلك فماذا يفعلون ؟ إنهم بلا ريب يندفعون إلى تحقيق ما يمكن تحقيقه من رغباتهم في الصحراء نفسها . فالاتصالات المستمرة بين المدن والبوادي تجعل تطوير البدو أمراً محتوماً لا بد منه يوماً ما . ولكن البوادي لا تزال كما كانت منذ آلاف السنين ولا يزال قاطنوها يعيش في خيمته التي صنعها من شعر الماعز والجمال ، ولا تزال أغنامهم ومواشيهم ترعى بالطريقة القديمة ذاتها وفي الأماكن المطروقة عينها . فإلى متى يدوم ذلك وكيف يتم التطوير ليحقق الراغبون رغباتهم ؟

مسألة تحضير البرو :

عليكم أن تهيئوا على الاسئلة السابقة بأنفسكم ومجال الاجابة ذو سعة . ولعل قصة القوم العربي في كل مجلس هي هذه القصة . وسوف أخلص لكم بعض المقترحات التي تعرض لها بعض الباحثين العرب في اجتماعهم صيف ١٩٤٩ في لبنان وقد نشرها تفصيل جميع جلساتهم في كتاب عنوانه : « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية عام ١٩٤٩ » . وهذه خلاصة بعض المقترحات بشرط أن تضيفوا إليها ما تضيفون وتتوسعوا ببعضها ما يتاح لكم التوسع فيه (١) :

(١) مثلاً تأسيس نوادي كالنوادي الأمريكية المسماة (4 H-clubs) لأن لها أربعة

١ - توطيد الأمن في البوادي بحيث إذا أراد المزارعون استثمارها على طريقة الزراعة الواسعة فإنهم يجدون في عملهم الاطمئنان الكافي والضمانة اللازمة لقطف ثمرات جهودهم . ولا يتم ذلك إلا إذا وجد البدو فوق رؤوسهم حكومات قوية تطبق القوانين الصارمة بحزم وتسهر على مصلحة المزارعين باستمرار .

٢ - انشاء قرى نموذجية وبناء مساكن صحية لا تتأثر بالعوامل الطبيعية السريعة التقلب في البوادي ، واعداد الشرطين الاساسيين الماء والكهرباء .

٣ - توزيع الاملاك العامة بين البدو توزيعاً عادلاً بحيث يحصر البدوي جهوده في فلاحه أرض معينة وتربية مواشي معينة . وبهذه الطريقة تنتفع الدولة من احياء الاراضي واستغلالها فتزيد الثروة العامة وتؤدي إلى توسيع المشاريع شيئاً فشيئاً .

٤ - تعليم البدو الاساليب الزراعية الحديثة وامدادهم بخبراء فنيين وبآلات زراعية وفسح المجال لاحتكاكهم بالمزارعين في المناطق المجاورة ليتعلموا منهم فنون الزراعة ويتعودوا على الحياة الحضرية فيتذوقوا هوائها . والانسان بالفطرة لا يؤمن بالنظرية حتى يلمس نتائجها الواقعية لمساً محسوساً .

٥ - انشاء المؤسسات الصحية في الدرجة الاولى للأُم والطفل ومراقبة حياتها الداخلية وتعويد أفراد العائلة على النظافة واللجوء إلى الطبيب عند الحاجة مع تلقيح أكبر عدد ممكن من السكان ضد الامراض السارية والأوبئة الخبيثة .

٦ - تطبيق مبدأ التعليم الانزامي المجاني وفتح المدارس الليلية في المدن لايواء الاطفال البدو واخراجهم من بيئتهم موقتاً لخلق روح النظام في نفوسهم

اهداف تبدأ بحرف الـ H أولاً الرأس Head ثانياً البد Hand ثالثاً القلب Heart رابعاً الصحة Health ويتعهد العضو بقوله : « أتعهد بأن أكرس : رأسي لتفكير أوضح ، وقلبي لاخلاص أعظم ، ويدي لخدمة أكبر ، وصحتي لحياة أفضل - في سبيل النادي ومجتمعي وبلادي » .

وحب الاستقرار في طباعهم .

٧ - الغاء عرف البدو ونظامهم العشائري وإخضاع فئات الأمة كلها لتشريع واحد وقوانين واحدة . حينئذ يفهم البدوي معنى القانون العام والمصلحة العامة واحترام حقوق الآخرين ، كما يفهم معنى بذل الجهد والشخصية للوصول إلى حقوق مشروعة .

٨ - إيجاد شبكة من المواصلات بين القرى والوادي من جهة وبين المدن والقرى من جهة أخرى ، تسير عليها العجلات والسيارات لتربط أعضاء المجتمع في جهاز محكم شديد الاتصال سريع الترابط . فلا تعطل الأمور ولا تصعب معالجة الاخطار والمشاكل حين الزوم . وخير أنواع الشبكات الخطوط الحديدية : أولاً لأنها أثبت وأبقى ، ثانياً لأن نفقاتها اليومية أقل بكثير من نفقات السيارات . إن استهلاك البنزين في الوقت الحاضر يسبب خللاً ملحوظاً في ميزانيات الدول العربية وهبوطاً واضحاً في نسبة الصادرات على الواردات .



البحث السادس^(١)

الريف السوري (القسم الثاني)

نموذج من الارياف الجبلية (القلمون)

وصفت لكم في البحث السابق نموذجاً من الارياف السهلية الصحراوية . وفي هذا البحث أصف لكم نموذجاً من الارياف الجبلية . لقد عثرت على كتاب يصور حياة النبك تصويراً أميناً . وإذا قلت لكم حياة النبك فأعني بذلك أيضاً حياة القلمون إجمالاً مع بعض الفروق البسيطة في التفصيلات الخاصة . ويكفي أن تصوروا الريف في جبل القلمون حتى تعمموا هذه الصورة على أكثر الارياف الجبلية في سورية ولبنان بل في الشرق الادنى أيضاً . ألم تلاحظوا أثناء سياحتنا في قرية سرغايا كيف يتشابه فلاحو هذه القرية مع فلاحي بعلبك ؟ ألم يقل لكم ذلك الفلاح الذي استجوبتموه في سرغايا أن نصف أهله هنا والنصف الآخر في بعلبك ؟ وأنه لا يفهم من الحدود بين البلدين سوى أن الدرك يسألونه عن هويته كلما اجتازها ؟ أضيفوا إلى ذلك ما تسمعونونه من أغاني أهل الجبل عموماً في سورية ولبنان فانكم واجدون الطابع الداخلي للشعب واحداً . أقصد بالطابع

(١) يوسف موسى خشت : طرائف الاملس وغرائب اليوم ، أو صور من حياة النبك وجبل القلمون في اواسط القرن التاسع عشر . مطبعة القديس بولس في حريصا ، لبنان ١٩٣٦

الداخلي « النفسية الجماعية » التي تتصف بها أهل هذه الارياف .
والكتاب الذي أحدثكم عنه ، فضلاً عن أنه يمتاز بالأمانة التاريخية وصدق
الرواية ، فهو يختص بتصوير القلمون في القرن التاسع عشر فقط ، وهذا بنظري
يزيد قيمة الكتاب من الناحية الريفية ، لأن القرن العشرين أدخل على حياة
الريف من نفسية المدن الشيء الكثير . لذلك بإمكانى أنؤكد لكم أن القروي
الآن الذي يعيش في المصايف — مثلاً في مصايف الزبداني والقلمون (سورية)
ومصايف عاليه والأرز (لبنان) — يكاد يكون أقرب إلى أهل المدن في طابعه
الداخلي والخارجي ، بل قد يكون أحياناً أكثر تعمقاً في تفكيره من أهل
المدن لأنه يعيش حياة الريف وحياة المدينة بأن واحد ، وبمارسته هاتين الحياتين
يتاح له اجراء كثير من المقارنات النفسية الاجتماعية . وهذا ما قصدته حين قلت
لكم في البحث الثالث : لا تكفي أن تكون نفسية القروي ريفية لمجرد أنه يسكن
القرية ، ولا يكفي أن تكون نفسية المدني حضرية لمجرد أنه يسكن المدينة .
والميزة الثالثة التي يمتاز بها الكتاب الذي أحدثكم عنه هي البساطة في التعبير
وذكر الاصطلاحات العامة كما يرويها القرويون أنفسهم . وقد ينحيل إلى القارىء
أن مؤلفه يكتب باللغة العامة لكثرة الامثلة والشواهد التي يسردها عن
الاصطلاحات الريفية . وإني إذ أخلص لكم الكتاب أحفظ أيضاً بهذه الاصطلاحات
ولن أغير أثناء تلخيصي سوى ترتيب الافكار وذلك تبعاً للمنهج الذي أعلنته لكم
في البحث الاول حين ذكرت ترتيب العلوم ترتيباً منطقياً .

القلمون من الناحية الطبيعية :

يمكن القول إن النبك في منتصف القرن التاسع عشر تمثل القرية الجبلية
الكبيرة . وكانوا يسمونها بلدة صغيرة منذ ذلك الحين لأن سكانها بلغوا نحو

٣٥٠٠ نسمة (١) . وهي واقعة في منتصف الطريق بين دمشق وحمص ولها « بوابات » أي أبواب كبيرة يغلقتها الاهالي في وجه العربان الغزاة حين يهاجمون البلدة . وإنما سميت « النبك » لأنها تقع على تلال (نبكة = تل) ممتدة على طرف الصحراء . ويبلغ ارتفاعها نحو ١٤٠٠ متراً عن سطح البحر . تطل بيوتها على سهل فسيح ويحيطها من الشمال والشرق بسانين وكروم ترتوي من نهرها المشهور بعذوبة مائه . على أنها تحوي آباراً عديدة في الجنوب الغربي وهي ، علاوة عن توفر الماء فيها ، جيدة المناخ هواؤها بارد جاف . لذلك اشتهر أهلها بقوة أبدانهم ونشاطها وحدودهم الوردية . وهم يعمدون إلى بناء مساكنهم على وضع يستفيدون فيه من الشروط الصحية والاقتصادية . مساكن منبسطة في منحدرات التلال مؤلفة من طابقين بعضها أعلى من بعض بحيث يتمتع ساكنوها بمجال المناظر البعيدة . كما أنهم يرون كل يوم مشاهد القوافل وعابري السبيل مع خيولهم وإبلهم ذات الجلاجل التي لها رنين موسيقي عذب .

النواحي البيولوجية والبيكولوجية :

كان النبكيون يبنون مساكنهم على طبقتين . نصف الطبقة السفلى بحجارة صلبة ونصفها الآخر العلوي باللبن ثم يسقفونها بخشب « اللزاب » الذي يستحضرونه من صرود فليطة والمعرة لأنه رخيص الثمن ومتين . وكانوا يخصصون هذه الطبقة لدوابهم ودواجنهم ولحفظ التبن والوقود وآلاتهم الزراعية . أما الطبقة العليا فكانوا يبنونها باللبن فقط ما عدا إطارات الابواب والنوافذ التي تبنى من الحجر « الكدات » ويسمونه « النحيت » وهو من أراضي النبك ومقالها . يسقفون هذه الطبقة الثانية بخشب الحور الذي يمتاز بصلابته إذا كان من

(١) ٣٠٠٠ منهم مسلمون شافعيون والباقي ٥٠٠ من السريان والروم الكاثوليك .

منتوجات النبك فلا يسطو عليه السوس كغيره من الحور ، كما أنهم يبنون إيواناً أمام الغرف العلوية المتجهة نحو الجنوب ، فتدخل إليها الشمس شتاءً فلا يحرقون الوقود إلا في أيام شديدة البرد . وظل أهل النبك يجهلون الزجاج إلى أن اتخذت بلادهم مقراً للحكومة في عهد مدحت باشا ، فاستعملوه منذ ذلك الحين في النوافذ . يقول المؤلف « لعل القارىء يعجب لسماعه أنهم يبنون بالابن طبقتين من مساكينهم . فكيف لو علم أنهم يبنون اليوم ثلاثاً وأربعاً ؟ فالابن في هذه البلاد متين جداً ، لأن تربتها كلسية جبسية يضيفون إليها تبناً بنسبة معلومة ويعتنون بصنعه ... ويفلقونه بعد البناء بطينة لزجة من التراب نفسه فتريده مناعة لسنين طويلة ... رأيت بعيني داراً قديمة جداً ورثها جدنا عن جده ، هدمها أبناء عمي منذ خمس وعشرين سنة وأعادوا ما أخرجوا منها من الابن السليم إلى بنائهم الجديدة » (١) .

لبث النبك في القرن الماضي محط رحال القوافل التي كانت تسير بين حلب ودمشق . وكانت محطة تنزل فيها قوافل الاعجام يوم كانوا يحجون إلى البيت الحرام وكان ذلك موسماً سنوياً قبل فتح قناة السويس إلى أن مدت السكة الحديدية بين حلب ورياق فانقطع الموسم . وكان الاعجام يضعون خيامهم قرب النهر بجوار مقام الولي ، فيبادر أهل النبك والقرى المجاورة لاقتناء السلع العجمية كالسجاد والشال والجوارب والبسط واللباد والخيل والبغال وغيرها وترى حتى الآن في بعض بيوت النبك بعض الاقمشة والسجاد والشال منذ ذلك العهد .

يتعاطى معظم سكان القلمون الفلاحة والزراعة ومنهم من يربي المواشي في الجبال ، إلا أن بعضهم يزاول عمل اليد بالطين والبناء فيها جر إلى دمشق سعياً

(١) الكتاب المذكور سابقاً ، ص ٥

وراء الرزق وقسماً آخر له أهميته يتاجر ويمارس « المكاراة » على الجمال والبغال والحمير . لقد كان عند أهالي النبك ٥٠٠ حملاً يستخدمونها للتجارة ويكaron عليها بين دمشق وحلب حتى أورفه وديار بكر . وقد يسافرون إلى ما هو أبعد من ذلك مثلاً إلى تركيا شمالاً ومصر جنوباً والعراق شرقاً . وكانت قوافلهم مشهورة ببأسها تجاه هجمات البدو وقطاع الطرق ولما يرجعون إلى بلدتهم كانوا قبيل وصولهم يطلقون البارود دلالة على سلامة الوصول فيخرج أهلهم وذوهم لاستقبالهم فرحين . أما الصناعة فقليل من أهالي النبك يحترفها كالنجارة والحداة ودينج الجلود والحياكة . ولم تكن المهاجرة إلى أمريكا معروفة عندهم حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ففي عام ١٨٩٢ سافر إليها اثنان من المسيحيين وبعدهما قويت حركة الهجرة .

يعيش سكان اقلمون عيشة بسيطة مما تنتجه أراضيهم ورواشيمهم . يأكلون من الحبوب الخنطة خبزاً وبرغلاً وطعاماً وكذلك الذرة الصفراء . ثم يطعمون دوابهم الشعير والكرسنة ولا يجسرون على زرع غير هذه الحبوب ، لعدم سلامتها من آفة البرد والصقيع في الشتاء . ويفرسون من الاشجار الجوز والآجاص والعنب الاحمر والمشمش وقليلاً من التوت . وكذلك الحور والصفصاف والدردار والنشب . ومن الخضر والبقول يزرعون البطاطا واللفت والجزر والفجل والقرع والكوسى واليقطين والبصل والثوم والبيقية والحبسة والفوة . وهذه الاخيرة نبات كان يستعمل للصبغة والادوية ويغل أرباحاً ، غير أن انتشار الاصباغ الاوربية أبطل زراعتها . أما باقي الحبوب والنباتات ، كالحمص والفول والبطيخ والخيار والبندورة والباذنجان والزيتون والتين والتفاح والبرتقال والليمون فكان الاغنياء يتناعونها من الخارج ولا يكاد يصل بائع إلى البلدة بنوع من هذه الاصناف حتى يأتي إليه الناس أفواجا فيبدلون بها عندهم من القلال ،

أو يشترونها بالنقود الرائجة . وطبيعي أن الفقراء لا يعبأون بها ولا يذوقون منها شيئاً مدة سنين طويلة .

يأكلون من اللحوم لحم الماعز والضأن والبقرة والجمال ، وللاغنياء عادة خاصة إذ يعلفون الغنم حتى تسمن ثم يذبحونها ليجمعوا من لحمها قطعاً كبيرة أو صغيرة مجففة بعد قليها بالإناء ويسمونها « قاورمة » كلمة تركية معناها اللحم المقلي . وباقي الأطعمة السورية معروفة عندهم إلا أن المأكلة التي يدخلها اللحم تصنع في أوقات معينة كالإعياد والولائم و « للفعالة » أي للعامل أيام عملهم الزراعي مستأجرين كانوا أم مساعدين . وأشهر المأكلة الخالية من اللحم « المجذرة » المؤلفة من البرغل والعدس والزيت والبصل . وهي باعتقادهم طعام كامل لذلك هي طعامهم الدائم . على أن هذا الطعام كما تعلمون هو وبعض المأكلة الزيتية ، يكاد يكون عاماً شاملاً لدى الأرياف والمدن العربية إلا بعض الأرياف التي يكثر فيها السمن والرز وبعض المناطق المتطرفة في الشرق العربي كالعراق حيث يفضلون السمن على الزيت والرز على البرغل (الرز المسمى عندهم = تمّن) .

ولأهل النبك نوع خاص من المأكلة يحبونه ويبدلون في صنعه كثيراً من الوقت والتعب ألا وهو « الكبة بالكشك » مما جعل أهل الجوار يتهمهم عليهم بقوله :

أكل النبيكي كبة بكشك

وحين تشرع ربة الدار في صنعه تنظف الجرن وتنظف الغرفة التي فيها الجرن اعتقاداً منها أن الملائكة تأتي على أصوات دق الكبة وترقص حول الجرن لتبارك من يعنى بدق الكبة . ثم تأتي الجارات لمساعدتها . وبعد دق اللحم وجبله بالبرغل الناعم يصنعن منه أقراصاً ، الكبير منها يشوينه ويسمى « المشاوي » والصغير منها يسلقنه في حساء الكشك شتاء وفي اللبنية صيفاً . والمشاوي تقدم

عادة للعزير من الاصدقاء أو الصهر الجديد أو طالب المصاهرة . وإن لم يكن تمت لحم فانهم يحتالون على الكبة بحبل البرغل مع قليل من الطحين ويضيفون اليه كمية كافية من الفلفل والبهار أو من البقول المسمى « أم أحمد » نبات يشبه الاسبانخ ثم يحشونها دهناً أو جوزاً مع البصل وحب الرمان الحامض وأخيراً يسلقون الاقراص بحساء الكشك ويسمونها « كبة حيلة » أو « كبة الراهبة » . يأكلون من الحلواء الدبس الذي يصنعونه من زبيب كرومهم . ومن الدبس والحليب يصنعون حلواء « المخطوط » التي يؤلفونها بالطريقة التالية : بعدما يحلبون الحليب مساء يضعونه في أوان واسعة ويتركونه إلى الصباح . تأتي ربة الدار ومعها الخبز التنوري وتطرح الارغفة فوق الحليب فيأخذ الرغيف من الزبدة ما يغطي به وجهه . تعود وترفع الارغفة وتطبق كل رغيفين معاً . وبعد مرور ساعة يأكلون منه مع الدبس . ولهم طريقة مفيدة في حفظ العنب حتى الشتاء . إذ يضعون العنب بعد تنقيته من كل حبة فاسدة ، في غرفة مظلمة يدخلها الهواء قليلاً ومفروشة بالتراب الأبيض . يرصفون العنب فوقه ويغطونه بورق الكرمة ثم بملاحف من الخلام . يبقى محفوظاً طوال الشتاء حتى شهر نيسان .

أما قطف العنب فيكون مع عيد رفع الصليب (١٤ - ٢٧ ايلول) أو قبل الميعاد إذا أقبل البرد باكراً . يقومون صباحاً بمجهزين بأطباق النحاس والطناجر وصناديق الخشب والقفف مع الاواني الحاوية على ماء القلي المغلي وكلها محمولة على الدواب مع طعام النهار ويذهبون إلى الكروم . يشرعون في قطف العنب ثم يجمعونه في طست كبير مملوء بماء القلي المزوج بقليل من الزيت (زيت الزيتون) ثم ينتشلون العناقيد بعود ذي شعبتين خوفاً على الايدي من ماء القلي الكاوي . وأخيراً يرصفونه على أرض محصبة يهدونها لهذه الغاية . وهذه العملية تسمى « السطاح » أي سطح العنب ليحفظ على أشعة الشمس ويصير زيبياً . وقد تدوم

هذه العملية أياً ما فيقضونها بالفرح والسرور حين يدعو بعضهم الاقرباء والاصحاب لتناول العشاء . وقد تفرغ البلدة إلا من الشيوخ والمجاثر الذين لا يقدرّون على الذهاب إلى الكروم . وينقسم العاملون عادة إلى قسمين : قسم يظل في القطاف والسطاح وقسم يذهب إلى جمع ما سطح قبلاً ، فترى الجميع يتسابقون في قطف العنب متضامنين (١) خوفاً عليه من هجوم الصقيع ، سواء نضج العنب أم لم ينضج . والناضح منه إذا كان فحلاً يحفظ بالطريقة المذكورة آنفاً دون تعريضه إلى عملية السطاح .

كيف يصنعون الدبس ؟ بعد تجفيف الزبيب بشهر تقريباً يختارون منه كل حبة نامية للمؤونة والباقي للدبس بحسب المثل السائر لدى الفلاحين « دبّس ودبّس » . لا شك أنكم تعلمون صنع الدبس الذي هو من الحوادث المألوفة لديكم بصفتكم مواطنين سوريين ، غير أنني أوردته هو وصنع الكشك وصنع البرغل ، لألفت نظركم إلى بعض الاعتقادات والتقاليد التي ترافق الصناعة الريفية مما يذكرنا بالتقاليد الصناعية للجماعات الابتدائية .

يأخذون ما تبقى من الزبيب إلى المعصرة « ليمعسوه » بواسطة « المدار » . وهو حجر ضخم يدور حول محور ، يديره بغل يشد إلى خشبة متصلة بالحجر المذكور ، فيسحق ما تحته من الزبيب المنثور عليه قليل من الحواري (لمعرفتهم أن هذا التراب يزيل حموضة الزبيب) . يجمّلون من الزبيب المسحوق « كومة » أي كتلة كبيرة يحفظونها في زاوية من المعصرة ويكتبون عليها بأصبعهم اسم صاحبها . وبعد شهرين يكون صاحب « الكومة » قد استحضر من البرية الشيخ الضروري يذهب صباحاً إلى المعصرة ويفتت كومته بأداة « القدوم » . وفي المعصرة أحواض

(١) وهذا مثال آخر من الامثلة التي يمكن ذكرها عن التضامن الريفي الموسمي (البحث الثالث : خصائص الحياة الريفية ص ٣٤ ، ص ٣٨) .

صغيرة يتألف كل منها من ثلاث قدور خزفية مثبتة على بناء مرتفع مجوف ومرتبة الواحدة إزاء الأخرى . وفي أسفل البناء وتحت كل قدر قدر أخرى تماثلها مثبتة على الأرض ولكنها غير مثقوبة كالعليا ، وفيها يتجمع السائل (شراب الزبيب المسمى جلاب) الذي يتقاطر من العليا . يأتي صاحب الكومة بأجزاء من فئتين زيبه ويضعها في القدر العليا بعدما يسد الثقب . ويضع في أسفل القدر قطعة من الشيح يسمونها « عرنة » يثقلها بحجر ويصب فوق الفئتين ماء قراحاً حتى تمتلئ القدر ويمضي . يأتي صباح اليوم الثاني ويفتح ثقب القدر الأولى ليتقاطر الجلاب إلى القدر السفلى ويضع فتيتاً جديداً في القدر الثانية . يأخذ الجلاب الذي نزل من الأولى ويصبه في الثانية مع سد ثقب الأولى وسكب الماء الجديد فوق فتيتها ليتركه إلى اليوم الثالث حيث يفتح ثقب القدرين ويضع فتيتاً جديداً في القدر الثالثة ناقلاً جلاب القدر الثانية إلى الثالثة وشراب الأولى إلى الثانية . وهكذا حتى يفتح في اليوم الرابع الثلاثة معاً فيأخذ جلاب القدر الثالثة إلى الطبخ في الخلقين بعد أن احتوى قيع القدر الثلاث . يأتي الدباس ويخبط جلاب الخلقين بمسواط من خشب نحو ساعة من الزمن حتى ينضج ، ويكون صاحب الجلاب قد أوكّل أمر الوقيد تحت الخلقين إلى شخص من أسرته . ينقله حينئذ بقادوس إلى طناجر معدة له ، فتنقله النساء على رؤوسهن إلى الدار . وهذه الطبخة الأولى تسمى « حلوية » وإذا بقي شيء من الدبس بأشارة من صاحبه يصب عليه جلاباً وتوقد النار تحته حتى يجمد ويقسو فيسمى « شبرقة » . ومن هذا الدبس الجامد يطعم الشيوخ الجالسين حول النار يتدفأون ويتسامرون ، ويأخذ الباقي إلى أولاده الصغار الذين يفرحون به كهدية التديس . ثم يكرر العمليات حتى يأتي على آخر ما يسحق من الزبيب . وبهذه المناسبة يقول الفلاح : نيسال من زرع العفير ودبّس ، وجلب من حطب الجرد وكردس ، وخطب

ابنه وعريس .

كيف يصنعون الكشك ؟ إذا كانت المرأة من عامة الشعب فانها تصنع الكشك في الربيع إذ يكون الحليب كثيراً ورخيصاً . وإذا كانت من نساء الوجهاء المثرين فتصنعه في الخريف لكثرة الدسم في الحليب . وفي كلتا الحالتين تأخذ المرأة من البرغل الكمية المناسبة لعدد أعضاء الأسرة ، وتنقعه بالماء في معاجن منذ المساء حتى الصباح فيصبح ليناً طرياً . تأتي بالحليب واللبن الرائب الذي تحلل فيه خميرة العجين (من دقيق القمح أو الشعير) مع الملح وتصبه فوق البرغل الذي يتشرب حينئذ اللبن ويختمر . ثم تعجنه بيديها وينقلونه من وعائه إلى ملحفة واسعة يسطونها فوق التراب الأبيض الذي يمتص حموضته خلال يومين . ينقلونه بعدها إلى « خاية » خلال ١٠ — ١٥ يوماً ثم إلى السطوح . تأتي النساء صباحاً مدعوات من قبل ربة الدار ويشرعن في « قرقطه » أي تقطيعه أجزاء صغيرة بالأصابع (بالابهام والسبابة) وتحفيفه بأشعة الشمس حتى العصر . وفي الليل تدعى الصبايا والشباب لفركه بالأيدي في غرفة داخل البيت وهم ينشدون بعض الاغاني الشعبية . تنتهي السهرة بتقديم « السهرية » لهم مما يتيسر وجوده من الفواكه وسواها . ويعتبر صنع الكشك واجباً هاماً من واجبات ربة الدار إذا أهملته تثير نقد الجيران وسخط الزوج . يوصفها الجيران مثلاً بعدم الكفاءة البيئية فهي « هطة » أو « رشلة » أو « خمة » .

كيف يصنعون البرغل ؟ يأخذون القمح بعد تنقيته من الحصى والرمل والتراب ويسلقونه في خلقين يسمى « جعيلة » ، وهي مرجل كبير من النحاس يكون لأحد الاوقاف أو لامرأة أرملة تأخذ أجرته شيئاً من البرغل . يبنون للجعيلة موقداً في ساحة متوسطة من الحي ليسلق أهله فيه . تدعو ربة الدار جاراتها فيدخلن قائلات « ابركة سلاقمكم » فتجيبهن « حلت البركة » . يذهب قسم

منهن جلب الماء من النهر وقسم ينقل الحنطة من الدار إلى الخلقين ويكون النقل
 على رؤوسهن في قفف أو أطباق نحاسية . تشعل إحداهن تحت الخلقين ناراً من
 الشيع والقصل خلال ساعتين حتى ينشف الماء وينتفخ القمح ، ويمكن إضافة
 الماء إتماماً لعملية النضج وتنتهي العملية بانتظار ما يخبث من النار حتى « يهدى »
 القمح المسلووق . وفي هذه الاثناء يتحدثن غالباً بأحاديث الخطبة والزواج . يسألن
 المخطوبة عن حياتها مع خطيبها وعما بلغ إليه « مصروفه » ونفقته عليها وهل
 وصلها « حق رقيتها » وعن موعد الزفاف ... ولا تخلو الاحاديث طبعاً من
 التحويطات والبسملات لرد العين الشريرة عن الخطيبة والخطيب ، وعلى كل امرأة
 أن تقول : « يخزي العين ، يخزي العين ، عالبركة سلاقكم ، ما شاء الله حول من
 يسلق ، الصلاة على النبي ... » . يأتي الشباب لمساعدة النساء في تحريك القمح
 بالمشل وهو عصا طويلة ذات مجرفة نحاسية ويسمونه « المشالة » وفي اجتماع
 الجنسين تكثر الحوادث العاطفية ويختبر الشباب والفتيات بعضهم بعضاً من النواحي
 الخلقية والصحية ويتبارى الشباب بتقديم المعونة اللازمة سواء في تفرغ القمح
 من الخلقين إلى الاطباق التي تحملها الفتيات إلى السطوح على رؤوسهن أو تناول
 الاطباق من رؤوسهن لتفريغها أكواماً على السطوح . وقد تطول العملية حتى
 الليل فيرافق شابان أو ثلاثة الفتيات أثناء جلبهن الماء من النهر أو القمح من
 الدار حتى لا يخفن . وهكذا يحظى الشباب بالاجتماع بمن يريدون ويلبون الدعوة
 حين يطلب إليهم أن يشاركوا أهل الدار في العشاء فيأكلون مع النساء القمح
 المسلووق المحلى بالسكر أو الدبس والمخلوط مع الجوز أو بزر القنب (القنبز) ثم
 يخرجون شاكرين وهم يقولون : « عقبال كل سنة » فيجابون « وأنتم سالمين ،
 الله يسلم ديتاكم » . وفي الايام التالية تشاير النساء على « تنوير » القمح أي على
 تحريكه بعد نشره وذلك صباحاً وظهراً وعصراً خلال خمسة أيام أو ستة . بعدها

يجمعونه في أطباق ويصبون فوقه الماء الساخن بأشعة الشمس ، وتفركه النساء بالأيدي حتى تنفصل قشوره ، ثم يفرشونه على السطوح يومين أو ثلاثة « لتنميشه » أي لازالة ما يبقى من القشور الرقيقة وإتمام جفافه . حين يجف ، تجري عملية جرشه في « جواريش » الواحدة اسمها « جاروشة » مؤلفة من قرصين حجريين القرص الأعلى الذي يدور فوق الاسفل الذي يتوسطه محور خشبي يدخل فيه حلقوم القرص الأعلى الذي يدور باليد البشرية بواسطة رائد خشبي مثبت في طرفه (أنظر الشكل ٥) . يجلس كل ثلاثة أشخاص حول جاروشة إما شاب وفتاتان أو فتاة وشابان وقلما يكون الثلاثة من جنس واحد . يقعد الواحد منهم ويطوي رجله اليسرى ويمد رجله اليمنى أو بالعكس فيحتضن الجاروشة وكذلك الآخرين فيحيطها الثلاثة كأنهم السوار حول المصم . يقبضون على رائدها ويدبرونها ويلقي القمح في حلقومها من هو قريب إلى الطبق ويحسن العمل . يغنون أثناء الدوران ومع نغماته الرتيبة أغاني شعبية منسجمة معه موسيقياً كالوليا والدلونا والعتابا وغيرها . كل من الحاضرين يغني على ليلاه وينتظر في الغرفة فراغ إحدى الجواريش حتى يستولي عليها أو يذهب إلى الجرش في دار أخرى قياماً بالواجب أو تسليفاً لأن الجرش سلفة ووفاء . على أن الفتاة لا تأتي إلى الجرش ما لم يدعها أهلها خلافاً للشباب الذي يباح له دخول أي جرش كان بدون دعوة . أما النساء أهل الجرش فيأخذن البرغل المجروش ويغربلنه في زاوية الغرفة ويمدن الجيوب التي لم تجرش إلى أطباق الجارشين . ومتى انتهى الجرش يدعى الجارشون إلى تناول الطعام كما هي العادة في نهاية العمل التعاونية .

تلك هي أمثلة من الصناعات الريفية وأكثرها كما تلاحظون صناعات غذائية بقي علي أن أشرح لكم العملية الأساسية للفلاح وهي الزراعة .

كيف يزرعون ؟ يقسم الفلاحون في القلمون إلى ثلاث طبقات : قوية ،

متوسطة ، ضعيفة . فالفلاح من الطبقة الاولى يملك أرضاً واسعة تسقى بماء البلد (١) وأراضي أخرى كثيرة تسقى بماء المطر وتسمى « الأراضي البعلية » وهي ملك مشاع بين عامة الاهالي إجمالاً إلا قطعاً صغيرة مملوكة ملكاً خاصاً . والفلاح من الطبقة الثانية يملك مقدار نصف أو ثلث ما يملكه الاول من السقي ويساويه في الأراضي البعلية أما الثالث فقليلاً جداً من السقي وبعض المكروم التي يسقيها في الشتاء لوفرة الماء . وقلد من لا يملك كرمًا أو دابة مها كانت فقيراً . والدابة أداة ضرورية لكل فلاح أولاً للزراعة ، ثانياً لجلب الوقود من البرية ، ثالثاً للمكراة حين اللزوم وللمأرب أخرى . لا يكاد يقبل الربيع حتى يهب الفلاح نشيطاً إلى الأراضي البعلية مستصحباً دوابه والسكة والعدة التي ورث أشكالها عن أجداده ، و « يكدن » أي يقرن زوجي بقر أو بغال أو حمير ، يشدهما إلى المحراث ويقود الفدان بعصا طويلة اسمها « مساس » يمسكها بيده اليمنى ويقبض في اليد الاخرى على « كابوس » السكة التي تشق الارض أثناء سير الفدان . يترك الارض ثلاثة شهور لتفعل الطبيعة بها ما تشاء ثم يعود في حزيران لفلاحتها ثانية ، ويتركها حتى شهر آب حين تصبح صالحة للزراعة . يأتيها بالحنطة أو الشعير ويساعده في عملية البذر أولاده وشركاؤه من الفلاحين الذين من طبقته . يزرعون معاً على بركات الله منتظرين حلول رحمته بالمطار والثلوج طوال الشتاء . وحين ينضج زرع الأراضي البعلية يكون صبر الفلاح

(١) يقسم ماء البلد الى ٢٤ عداناً . يعتبرون النهار « عداناً » والليل « عداناً » ويقسمون كل عدان على ثلاث فرق فيكون لكل فرقة ٤ ساعات . يتوزع العدان على أسرة واحدة (مثلاً بيت الشيخ ، بيت المشحم ...) أو على عدة فرق . ويتغير توزيع ال ٢٤ عداناً كل ١٢ يوماً ، فالذين سقوا نهائراً يسقون ليلاً وبالعكس . على كل حال تنال الاسرة السقي مرة واحدة « عداناً » كل ١٢ يوماً .

قد نفذ مع مؤنثه السنوية فيحصد مع أولاده وشر كائنه الغلة . يصلح أولا ما تعطل من الادوات أثناء عملها في العام الفائت ثم ينقلها إلى البرية وهي النوارج والرفوش والمذارى والقرب (لأخذ الماء معه خشية العطش) مع أدوات الطعام والمأوى كالصاج (للخبز) والطناجر (للطبخ) والبسط والفرش والالحف و«البواطي» نوع من الاعبئة تحاك من الصوف سدى ولحمة ، ذات أكام قصيرة (يلبسها الفلاح تحت العباءة في الليل لزيادة التدفئة) . وقديماً كان لا ينسى البندقية إذا كانت أرضه بعيدة (للمدافعة أثناء هجوم عربان البادية أو جبل الصفا أو الدروز) . يستيقظ ويوقظ أولاده باكراً ويشرعون في الحصاد بأيديهم وهم جالسون القرفصاء على صف واحد ويتبارون في الصبر على مضض العمل الشاق إبان الحر ويغننون الاغاني شأنهم في كل عمل جماعي . منها :

ليت الحصيدة كلها كرسنة والموت أهون من حصاد الحمص

يرمون ما يحصدون وراء ظهورهم « شمائل » فيأتي الفتيان والصبايا يلتقطونها حزماء « أغماراً » ومتى تجمع منها ما يكفي لحمل الدواب يحزمونها « أحمالاً » كل حمل على شبكتين معدتين لهذه الغاية ثم يرسلونها فوق الدواب مع ولدين أو ثلاثة يسمون « رواجيد » يرجدونهم إلى البيادر وهم حفاة الاقدام حتى يصلوا فيجدوا « الناطور » في انتظارهم ويساعدهم على تفريغ الاحمال من الشباك . يعود الاولاد إلى الحقل تاركين الحصيدة عند الناطور الذي يكدها بشكل مخروطي « كدساً » في وسط بيدر من القش . وهكذا حتى ينتهي الحصاد الذي يختصونه « بجورعة » أي بوليمة يقيمها صاحب الحصيدة مع « تعليلة » أي ليلة راقصة رقصون أثناءها ويدبكون على صوت المزمار . يذهب الفلاح إلى البيدر ويعزز في قمة الكدس عصاً طويلة ليبدأ عملية الدراس . يأخذ جبلاً طويلاً (٧ — ١٠ متر) ويعقد في طرفه أنشودة يدخلها برأس العصا لتدور عليها .

يأخذ بيده المزارعي فينشل بها مقداراً من القش ويفرشه حول الكدس بشكل « طرحة » يضع عليها نورجاً أو أكثر بقدر ما عنده من الدواب . يربط مقود البغل بالجبل ويغطي عينيه « بالطماسات » ويضع على كتفيه « كدانة » من الخيش أو اللباد وفوقها « السفاقات » من الخشب التي يصل النورج بها . يركب على النورج أحد أولاده مع حجر ثقيل ويقود البغل الذي يدور فوق الطرحة ليدرسها النورج من ورائه . وهكذا يدرسها أولاً وثانياً حتى يأتي على آخر الكومة شيئاً فشيئاً . وبعدها يجري عملية « التذرية » أثناء هبوب الرياح ، هو ومساعدوه من الشباب ، وذلك عصرأ أو ليلاً حين يكون الهبوب شديداً . يضعون خشبة طويلة مضادة للرياح حتى تفصل بين الحب والتبن ويباشرون برفع المذاري وإطلاق الحصيد المدروس في الهواء الذي يقذف التبن بعيداً فيتساقط القمح بشكل أكوام . ولا تخلو هذه العملية من الاغاني :

يا هو انا ما أطيبو عالموا وتجنبو

تخرج النساء صاحبات بغيرايلهن « للغرلة » وبعدها يتم نقل الحبوب إلى القرية . ومن هذه الحبوب يفي الفلاح دائنيه ، اللحام ، النجار ، الحلاق . ويبيع بعضها للحصول على نقود ويحفظ الآخر للمؤونة والبذار . وقبل أن يعطي مساعديه أجورهم يقيم لهم غداء فاخراً من البرغل واللحم والخبز ... فينصرفون شاكرين « عقبال كل سنة » . فيجيبهم « وأنتم سالمين ... » .

النواحي الاجتماعية والنفسية :

ينتج مما سبق أن هناك تقسيماً للعمل بين الرجال والنساء وإن كانوا جميعاً يشتركون ببعض الاعمال الجماعية . فالمرأة هي ربة الدار أولاً . فهي التي تجلب اللحم من حانوت اللحام ، وتدق منه الكبة أو تلف معه اليرق وتطهي الطعام .

وهي التي تشرف على طحن القمح في الطاحون ثم تعجن العجين في البيت وتخبره على التنور . وهي التي تغسل الالبسة وتعني بترية الاولاد وترقع ثيابهم وثيراب زوجها كما تساعد في الاهتمام بالدواب وبعض أشغاله الزراعية . وأخيراً هي التي تطين الدار وتبيضها بالحواري وتسلق البرغل وتجبرشه وتصنع الكشك بمساعدة جاراتها .

في الصيف تستيقظ قبل شروق الشمس وتذهب إلى مورد الماء حاملة على رأسها الجرة مبطوحة وفها إلى وراء (حتى لا يراه من يصادفها من الناس لأنهم يتشاءمون منه) . وفي طريقها ينبغي أن تحيي من تصادفه من النساء اللواتي على رؤوسهن الجرار كما ينبغي أن رد التحية بمثلاً وفي ذلك ما فيه من مناسبات لمعرفة أخبار القرية من خطبة وزواج وطلاق وولادات ... ويوم يطلب منها العجين أو الغسيل تستيقظ قبل بزوغ الفجر لتعود باكراً . فإذا كان الماء للعجين تسخنه في أقرب تنور في الحي ، وإذا كان للغسيل تضع فيه كيساً صغيراً حاوياً على القلي وتسخنه كذلك مغتنمة فرصة تسخينه لتجمع الالبسة الوسخة التي يخلعها زوجها والاولاد . وقد تقوم بعملية الغسيل أحياناً على شاطئ النهر وذلك « بمخبط » من الخشب على أن ترش كمية من مسحوق « الشنان » (١) فوق الثياب المبتلة . ولما تعود إلى دارها حاملة « غسيلها » تنشره في صحن الدار أو السطح ثم تزاوّل باقي أعمالها كأن تأخذ طعاماً لزوجها إلى الكرم أو تمارس الغزل وتمشيط الصوف ...

(١) الاثنان اليابس . اذا أحرق هذا النبات وهو أخضر يخرج من رماده القلي المعروف . وكانت تصدر منه كميات كبيرة من سوريّة الى الخارج قبل ان تراجمه المواد الكيماوية الحديثة .

أما الرجل فهو رئيس الأسرة الذي يعنى أولاً بالأعمال الصعبة دون أن يتهاون بها وشعاره « نخوشنوا فان النعم لا تدوم » . يستيقظ قبل شروق الشمس ويتفقد دوابه ويقدم لهم الملف . وبعد أن يتناول الفطور مع الأسرة يخرج مع أولاده القادريين على العمل إما إلى الكرم أو إلى الحقل ويقضي أيامه بين فلاحه و « تجريف » وحصاد « وسطاح » . ويتعلم منه أولاده هذه الحياة العملية دون أن يتجهوا إلى العلم لأن كل ما يمكن تعلمه في « الكتّاب » القراءة البسيطة أو حفظ القرآن . وإذا انتهى النهار يرجع قبل غروب الشمس إما إلى الدار رأساً وإما إلى ساحات البلد العامة إذا كان الطقس جيداً . هناك يستمع إلى الأخبار الداخلية والخارجية أو يلهو مع أصحابه ببعض الألعاب المسلية ، مثلاً المنقلة (١) حتى موعد العشاء .

ترتدي النساء والرجال ثياباً داخلية متشابهة أما الثياب الخارجية فمختلفة كما هي الحال في سائر المجتمعات . ويوجد اختلاف بسيط في الثياب الداخلية نفسها في أرجل السراويل التي تبقى « مزمومة » الأطراف عند الاقدام لدى النساء ترتدي المرأة فوق القميص الداخلي رداءً ثانياً بدون أكمام يسمونه « خراطة » وهو أحمر اللون . وفوقه « صدرية » ذات أزرار أمامية وفوق الصدرية « قنباز » ذو ثلاث فتحات : واحدة من العنق إلى القدم واثنان جانبيتان من الخصر إلى القدم . وإذا بقي القنباز مفتوحاً من الأعلى ، تظهر الصدرية بأزرارها الفضية المعلقة بحلقات فضية أيضاً . وهناك أبسة أخرى ترتديها المرأة . مثلاً « التنورة »

(١) المنقلة قطعة من خشب الجوز ذات ١٤ حفرة في صفين متحاذيين . يوضع في كل حفرة ٧ كرات من الحصى يجمعونها من النهر . يبدأ اللعب فيها بتوزيع الحصى بمقتضى قواعد خاصة من حفرة إلى أخرى .

المصنوعة من خام أزرق يحيطها في مستوى الخصر زنار من الصوف الملون أو شالة عجمية . أما لباس الرأس فهو طاقية سوداء تستر المرأة بها شعرها العلوي وتعصب جبهتها فوقها « بشملة » حريرية أو عصابة قطنية سوداء على أن تلف رأسها بمنديل طويل ملون تطلقه إلى الوراء حتى القدم اعتباراً من قمة رأسها ، ثم تسبل « سالفها » أو شعرها الجاني على خديها حتى الذقن فيظهر وجهها مستديراً يستلقت النظر (شكل ٧) . أما حذاء القدم فهو « البابوج » المصنوع من الجلد الاصفر ، معقوف الرأس من الامام (شكل ٨) ، وفي الشتاء الققباب « الشراوي » أي بعلو الشبر اتقاء الرطوبة والوحل . ويمكن أن تزين بالخلخال الفضي ذي الجلاجل الصغيرة التي ترن عند خطو لابسته . على أن الزينة المألوفة هي الاقراط « الخلق » والخواتم والاساور ، منها الفضي ومنها الذهبي ، وأحياناً « الخزام » نجمة ذهبية تتوسطها خيزة زرقاء مجهزة بدبوس قصير يدخل في الأنف من ثقب جانبي (يشبه ثقب القرط في الأذن) ويربط من الداخل برباط معدني يمنع الخزام من السقوط .

يتألف لباس الرجل من قميص طويل حتى القدم فوق سرواله الأبيض المصنوع من الخام البلدي . وفوق القميص « صدرية » ذات أزرار أمامية بدون أكمام ومعها « شنتيان » أي سروال أزرق من الخام البلدي المطرز بالحرير الأحمر والاصفر عند جيوبه وقدميه . وفوق الصدرية « صدرية ثانية » بأكمام بدون أزرار تسمى « أجلك » مطرزة كاشنتيان . ثم يتمنطق الرجل في مستوى الخصر بحزام عريض من الصوف الملون ينسجه هو بيده أو قرباؤه . وفوق هذا كله يلبس عباءة صغيرة تشبه الأجلك تسمى « ريع » وأكمامها تبلغ المرفق فقط . وفي أيام البرد يلبس عباءة أكبر من الصوف الأسود الأبيض على خطوط متوازية وتسمى « زنارية » لأن الرجل يترزز فوقها أثناء الشغل . على أن الشبان يلبسون فوق القميص والسروال رداء كالتقباز يسمى « صاية » مصنوعاً من الخام البلدي

الازرق ويتمنطقون فوقه بسير من الجلد في الصيف وزنار من الصوف الملون في الشتاء ، كما أنهم يلبسون عباءة حمراء مقصبة كالزنارية يحبونها من الزوق (بلدة في كسروان لبنان) . أما لباس الرأس فهو طاقية تحوكمها النساء وفوقها الكفية والعقال المبروم من الصوف أو الور ويضعون فوق الكل عباءة من الصوف طويلة حتى القدمين وتغطي الجسم لترد عنه البرد والمطر والثلج . أما حذاء القدم فهو « المداس » من صنع اسكافي البلد . يصنعونه من جلد الجمال أو البقر بشكل خاص (أنظر الشكل ١٠ في آخر البحث) ليحيط بالقدم إحاطة محكمة . وله نمطان : نعل عادي ونعل من فراسن الجمال وكلاهما حتى يحتديه الجمالة . وقد يتفنن الشباب بوضع العقال على الرأس يميناً أو يساراً والاعنساء منهم يطيلون صفائهم بحيث تتدلى على أعناقهم حتى الصدور ويتباهون بها مع حمل الاسلحة ليقلدوا عرب البادية . ويحمل بعضهم في آذانهم أقراطاً ذهبية (تهدي عادة إلى المبكر إذا كان غلاماً) غير أن الزينة المألوفة هي الخواتم الفضية .

إن أهم عملية تسبب الافراح للأسرة هي تخطيب الاولاد غلماناً كانوا أم بناتاً ولا سيما إذا كانت الأسرة ذات غلام وحيد ، إذ يكون هم الوالدين الوحيد الاسراع « بفرحته » أي بتزويجه . ولهذا الأمر صدى في المحيط أيضاً ، إذ كلما رأى الوالدين أحد من أصحابها وأقربائهم ، فانه يحثها على الاسراع بالزواج حتى يفرح به وهما في قيد الحياة ولكي تحظى الأم بكنته تساعدتها في البيت . وبديهي أن تستيقظ عواطف الصبي المراهق لدى هذا الحث المتواصل والترغيب الملح فيصبح همه الاوحد انتخاب فتاة تشاطره أعباء الحياة وتمنحه قلبها . ثم لا يكاد يتحول بصره من فتاة إلى أخرى حتى ينتهي بضائته المنشودة قائلاً هذه فرحتي . حينئذ يختلف مع والدته إلى بيت الفتاة في كل مناسبة ليدرس أخلاقها وطريقة « حوستها » أي تديرها المنزلي . ولهذا التدبير أهمية كبرى لدى بيت حميها ،

لأنهم يرون في الفتاة عوناً لهم على تطيين الدار والسطوح والجدران ودهنها بالحواري ودق الصلبة ولف الميرق وتحضير الخبز والبرغل والكشك وسائر الاشغال البيتية والزراعية كالخصاد والقطاف والسطاح . وتؤدي مرحلة الزيارات إلى رفع الكلفة بين الأسرتين مع بقاء المجاملات (١) والتحويلات (حوطةك بالله وباسم الله ، أو بسورة يسن . . . أو باسم المسيح ، باسم الصليب . . .) التي يكثرون منها خوفاً من العين الشريرة وأذاها . ومتى انتشر الخبر بين الناس يدعو أبو الفتاة أخوته وأبناء عمه ليمسك لهم الامر . وكأنه بذلك يطلب إليهم السماح بأن تزف ابنته إلى من يطلب يدها . وهو يعتبر استشاراته حقاً لأبناء عمه وإخوته لاحتمال وجود من يرغب الاقتران بابنته . فليس على أبيها والحالة هذه إلا الاذعان لهذه الرغبة فيحمل ابنته على قبول الزواج بابن عمها ، رغبت فيه أم لم ترغب ، ما لم يرض ابن عمها بأن تكون أخت الطالب أو ابنة عمه ، خطيبة له بدلاً من ابنة عمه ، فتزف تلك إليه مرغمة راضخة لأمر والديها ولا يكون لها في اختيار رفيق حياتها أى نصيب . وإذا كان أبناء عم الفتاة المطلوبين غير قادرين على الخطبة في ذلك الحين ، أو لا يرغبونها لسبب ما ، فانهم ينتحون عنها برضى وانتظام حتى لا يحولوا بينها وبين طالبها ولا يعرفوا مساعي والديها في إسعادها . فيقر رأي أهل الفتاة عندئذ على طالبها ويشيع في البلد بأن « فلاناً أعطى قولاً بابنته فلانة إلى فلان بن فلان » .

يعقب مرحلة الزيارات مرحلة « التمشية » : إذ يستدعي أبو الشاب جميع

(١) لهذه المجاملات شكليات لا يجوز التهاون بها : اذا قالت القروية « بيش » فنقول بعدها « ما تشوفي النيبش » واذا قالت « رز » ما تشوفي الرزية ، « القم » ما تنغمي ، « الكمي » ما ينكوى لك قلب على غالي . . . من غير شر . . . بلا ظفيرة . . . بلا مؤاخذه . . . الخ .

أقربائه ليطلهم على رغبته النهائية فينتخبون وفداً يذهب إلى بيت الفتاة «عشون» عليها ، أي يطلبون يدها رسمياً من أهلها ، فيعطهم أبوها قولاً بشرط أن يذهبوا ويأخذوا قولاً من أعمامها وأخوالها جرياً على العادة المتبعة . يذهب الوفد في اليوم التالي إلى أعمامها وأخوالها يأخذون قولاً بالرضى والقبول وتقدم لهم « النقولات » من زبيب وتين وجوز علامة الرضى ، فيخرجون شاكرين أهل الفتاة لكرمهم وصدق طوبتهم ، مع تحديد موعد الخطبة الرسمية .

في مرحلة « الخطبة » يدعو أبو الشاب رئيساً روحياً والاقارب والاصحاب ومشايخ البلد إلى العشاء في داره ، فتوافد الوفود في اليوم المعين قبل غروب الشمس ويجلسون في غرفة كبيرة مفروشة بالسجاد والبسط وعلى جوانبها الفرش والوسائد . يدخلون متعاقبين ويصطلون (١) على موقد في الزاوية فوقه أباريق القهوة والشاي . وعندما يكمل عددهم تبسط السُّمُط على الأرض وتوضع عليها « مناسف البرغل » ، فيأكلون متبمين آداب السفرة التي لا يجرؤ أحد على مخالفتها لأنهم ينتقدونه جهاراً « هذا عيب ، هذا حرام ... » . وبينما هم يأكلون يخدمهم اثنان أو ثلاثة من أهل البيت ويقدمون لهم ما يحتاجون من ماء وطعام إذا نفذ . وبعد العشاء يعودون إلى ما كانوا عليه من شرب القهوة والشاي والدخان « بالأركيلة » و « السبيل » بحسب شهوة كل منهم . ثم يستأنفون حديثهم في مواضيع شتى حتى ينهي بهم الكلام إلى موضوع الخطبة : يتقدم أبو العريس ويعطي الشيخ أو الرئيس الروحي غازياً أو غازيين وشملة حريرية سوداء . ثم يذهبون رجالاً ونساءً إلى بيت أبي العروس . فيخف أهلها لاستقبال الوفود بكل

(١) يتحتم حمل موعد العرس بين كانون أول وشباط لأن القرويين يفرغون من أشغالهم ثم تكون بيوتهم ملاءى بالثؤونة والمأكّل الواجب تقديمها .

ترحيب ومجلونهم في صدور مجالسهم وتبدأ الاحاديث المختلفة من حديث إلى آخر حتى تحمل الفرصة المناسبة فيلتفت الرئيس الروحي إلى أبي العروس ويقول : « الله يمسيكم بالخير يا جماعة الخير ، جئنا إليكم خاطبين راغبين أن نتسبب منكم ، فلا تردونا خائبين . ونحن نطلب ابنتكم فلانة إلى ولدنا فلان ... » فيقول أبو الفتاة أهلاً وسهلاً بكم جميعاً على عدد ما مشيتو وجيتو . وإذا لم تسعكم البيوت تسعكم القلوب ، إلا أن هذا الأمر منوط بعمها أبي فلان وخالها أبي فلان ... » فيتجه الرئيس الروحي إلى من أشير إليهم ويقول « جئناكم خاطبين راغبين » . وبعد الأخذ والرد والمحاورة والمزاح يقول المدعوون لأبي العريس « جعله الله مباركاً » عقبال الفرحة الكبيرة « أي الزواج . ولأبي العروس « عقبال فرحة أولادك » وتزغرد النساء اللواتي يجتمعن في غرفة تحوي أنواع الضيافات من برغل ورز ولبن ودبس . وبعد شرب القهوة يعود الجميع إلى بيت العريس فرحين مرحين فتلاقيهم النساء بالزغاريد والرجال « بالترديد » أي أنهم يرددون الهازيج منها :

كم راس قطعنا وكم جثه رميناها
بالموج والموج وضرب السيف خضناها
نحننا ونحننا من سود اللحي نحننا
نحننا الصقورة ولو قُصَّتْ جوانحنا

ومما تزغرده النساء قولهن :

ايها يا فرحة الي الي عامين بنظرها

ايها وسألت رب السما ان يكملها

ايها وتكملت يا علي يا ابن الكرام

ايها وتكملت بعناية ربنا العالي

... لولوليش

ايها نحنا ونحننا ومن سود اللحى نحننا
ايها نحننا نكيد الأعادي اين ما رحنا
ايها ما قلت لك يا فلان يا سيفنا نحننا
ايها روس الأعادي غنم دبّاها نحننا
... لولولوليش

في اليوم الذي يلي الخطبة تذهب العروس باكراً إلى مورد الماء لتملأ جرتها وتأتي بها إلى بيت حميها الذين يستقبلونها بالترحيب ويتحفونها بقطع من النقود الرائجة مع هدية (مثلاً بابوچ أصفر) تسمى «عبرة الدار» أي الزيارة الأولى لبيت حميها. وبقونها عندهم ذاك النهار تعاونهم في تحضير الطعام ويدعون أهلها إلى تناول العشاء وقضاء السهرة بالغناء والرقص والضرب على الدف والنقارات والنفخ بالشبابات. يقابلهم بالمثل أهل العروس بعد أيام قليلة، بعدها ينصرف العريس إلى شراء الجهاز. وعندما يتم عمل الألبسة وتحضير الاثاث اللازم من دمشق تبدأ المذاكرة بين أهل العروسين لتحديد موعد العرس ونوعه هل كبير أم صغير. فإذا قر رأيهم على أن يكون كبيراً اغتنموا هذه الفرصة ليصالحوا من هو بينه وبينهم شقاق ليشارك جميع أهل البلد في الافراح. وبعد ولائم تمهيدية عديدة وتحميم العروسين بحفلات خاصة والاعتناء بتزيينها وتلبيسها بحفلات خاصة أيضاً (كتحضير الحناء للعروس والاهتمام بحلاقة العريس ...) يجتمع الشبان في غرفة العريس في سبيل التعليلة الحافلة بدءاً من المساء. وإذا ما انقضت ساعات ثلاث من الليل يذهب العريس مع صديقين له مخلصين إلى بيت العروس فيراها من الباب وهي «مصمودة» على المنصة بثيابها الجديدة وحولها النساء تغردن فيتحذ هذه المناسبة ليشكر بيت حميه «ويستكثر بخيرهم». وبعد أن يلثم رأس حماته شاكرأ، يرجع أدراجه إلى الشبان الذين ينتظرونه لاتمام التعليلة. وأثناء

ذلك تتوجه العراصات نحو بيت العروس ليقودها إلى بيت العريس وهي راكبة فرساً وهم ينفشون :

يخلف عليكم كثر الله خيركم انتو المناصب ما مناصب غيركم
= = = = =
انتو الاكارم ما أكارم غيركم والخ..
وفي الطريق يكثر التصفيق والدبك المنظم مع حمل الاسلحة ، وتزغرد النساء قائلات :

جبنا العروس وجينا تسلم يا أفندينا
= = =
خلو العريس يلاقينا ، الخ...
وهكذا حتى يقترب الجميع من دار العريس فيخرج في موكب يلاقي موكب العروس . وعندما تصل إلى باب الدار يعطونها قطعة من الخميرة وهي لا تزال راكبة فتلصقها على قوس باب الدار وتدخل ويدخل العريس وراءها في موكبها . وحينما تنزل عن الفرس يرمون على رأسها فسات الخبز ويعطونها قطعة أخرى من الخميرة لتلصقها على قوس باب الغرفة المدة لها « كرمز لاختار العروس في بيت حمها » . ولا تدخل الغرفة إلا بخطوات خلفية سائرة إلى الورا رمزاً إلى أنها لا تترك الدار إلا على قفاها أي حتى الموت . فيدخل معها عريسها ويتركونها راجين للعروسين الرفاه والبنين .

ينتهي العرس وتم الافراح وتم الايام فينصرف العريس إلى أشغاله كما تنصرف العروس إلى أعمال البيت . فإذا مضى شهر أو شهران تشعر ببعض الخمول فتفضي بذلك إلى أمها ثم إلى حماتها ، فيفرحن بالخبز ويلفطن نظرها الى ضرورة الاعتناء بنفسها مع اعلامها بعض المعلومات التي تجهلها . ثم يباشرن بتهيئة القمصان واللفائف والاقطة ... حتى اذا انقضى الشهر التاسع وشعرت الحامل بالخاض ، يستدعين القابلة وبعض القريبات فتجري عملية الولادة محاطة ببعض المعادات ومتبوعة

بالحفلات والولائم منها « سفرة الخلاص » أو « سفرة ستي نفيسة » . ويقدم
الطفل الى أمه كلما سمعن صوته اترضعه شيئاً فشيئاً حتى يحسن الرضاعة. ولا تزال
الغالبه تتردد على بيت النفساء صباح مساء وتتابع أعمالها بتمليح الوليد وتمسيده
بالزيت و « تايبسه » أي رش مسحوق الآس عليه ، حتى ينقضي على الولادة
أربعون يوماً . فتؤخذ الأم الى حمام الاربعين بحفلة وهي آخر الحفلات . بعدها
تربي الأم ولدها تربية ساذجة وتقي له أثناء نومه ويقظته :

نام يا أمي نام لدبحلك طير الحمام
لا تصدقوا يا حمامات أنا اضحك عا ابني حتى ينام

.....

تقبرني تقبر تقبر تنزل على التربة تحفر
تقبرني يا نور العين تقبر أمك أم حسين الخ ...

ولا يكاد الصبي يمشي ويقدر على أداء بعض الاعمال حتى يكلفه أبوه بالمساهمة
في أعمال البيت ثم بالاعمال الزراعية دون أن يكون للتعليم المدرسي شأن كبير .
فقد يذهب الى الكتاب ويتعلم بعض الشيء مع حفظ أجزاء من القرآن ولكنه
سرعان ما ينصرف الى الحياة العملية ، فأبوه هو معلمه الحقيقي والطبيعة هي مدرسته
الزراعية . أما مدرسته الاجتماعية فالقرية نفسها بما فيها من أقرباء واصدقاء
مركزها الرئيسي « منزل » المختار حيث يجتمع القرويون في أوقات فراغهم
يشربون القهوة ، فيستمع بدوره الى أخبارهم وأحاديثهم التي تؤثر ، بما فيها من
انتقادات وقيم ، على تكوين شخصيته وتطبعها بطابع ريفي معين . وفي أحوال
خاصة يحتم القرآن بالمسابقة على الكتاب ثلاث أو أربع سنوات ، فيختم بذلك
حياته المدرسية دون ان يتأثر بها تأثيراً عميقاً وتقام له حفلة « الختمة » رأسها
شيخه ويشارك بها رفاقه من سنه يطوفون شوارع القرية (وهو يحمل القرآن

على رأسه فوق كرسي صغير ، مرتدياً ثيابه الجديدة) وينشدون أناشيد الختام .

مول اصلاح الريف السوري :

كان بودي أن أضيف قسماً ثالثاً للريف السوري أعرض فيه عليكم نموذجاً من الارياض السهلية الصرفة (كمنبج والباب من أقضية حلب) أو نموذجاً من الارياض السهلية المختلطة بالجبلية (كدوما وقطنا من أقضية دمشق) غير أنني وجدت الكفاية في عرض نموذجين : (١) السهلي الصحراوي . (٢) الجبلي الصرف . وقد شرحت لكم في النموذجين كيف أن التشابه بين الارياض السورية (في خطوطها الكبرى) حاصل ، فأخشى ، اذا استرسلت باكثر الامثلة ، أن أقع في التكرار الممل أو غير المفيد . مع ذلك فاني أرشدكم الى كتاب تجدون فيه التفصيل الكافي اذا رغبه أحدكم ، وهو الآن يطبع (١) وينتهي طبعه مع انتهاء العام الدراسي حيث تقرأونه في الوقت المناسب . وقد اطلعت شخصياً على الصفحات الاولى منه وقرأتها باهتمام لأن المؤلف يعرض على القارئ كثيراً من تجاربه ومشاهداته فضلاً عن توسعه في البحث والجمع . وبما أنني أختتم بحثي في نواحي تطبيقية اصلاحية فسوف أسرد لكم مقترحاته في اصلاح الريف السوري لتضيفوها على المقترحات التي ذكرتها لكم في خاتمة البحث السابق تلخيصاً عن « حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ١٩٤٩ » . وقد أشرت لكم منذ البحث السابق ان مجال المقترحات والتوصيات ذو سعة وانه دائماً يجوز لنا اضافة مواد جديدة على القائمة ، لذلك تركت لكم حرية التوسع في الموضوع . وسوف تلمسون وجهة نظري أثناء تعداد مقترحات المؤلف المذكور ، وتدركون كيف يتاح للباحث الاصلاحى التوسع غير المحدود .

(١) احمد وصفي زكريا : الريف السوري ، مطبعة دار البيان . دمشق ١٩٥٥

يعرض المؤلف أولاً نقائص الريف السوري. وسأكتفي بتعدادها لكم بدون تعليق : ١) فقدان الاصابة في انتقاء الموظفين الاداريين من غير ذوي الكفاءة أحياناً . ٢) فقدان الاصابة في نقل الموظفين الاداريين من مكان إلى آخر بسرعة دونما سبب ، سوى الاهواء والاحزاب . ٣) فقدان الاصابة في نصب المختابر بالانتخاب المحلي المغرض . ٤) فقدان الخدمات البلدية في القرى أو قلتها . ٥) فقدان طرق المواصلات أو رداؤها ، وعدم تبيد أو تزفيت أكثر الموجود منها . ٦) فقدان التخطيط الهندسي والتنظيم العمراني . ٧) فقدان التصميم والترتيب في بناء البيوت . ٨) فقدان الماء المشروب إلا في القرى الجبلية ذات العيون العذبة . ٩) فقدان النور الكهربائي الذي أصبح ضرورة حيوية في هذا العصر . ١٠) فقدان الخدمات الصحية أو عدم كفايتها من جراء تهافت أطبائنا الناشئين على العمل في المدن وانحصار شؤون الطبابة في طيبب القضاء أو الناحية وحده . ١١) فقدان الارشاد الروحي الذي يفقه الناس بالدين ويعرفهم أو امره ونواهيهِ . ١٢) فقدان أو نقصان المدارس الابتدائية في كثير من القرى وضمف جهاز التعليم ووسائله في بعض الموجود منها . ١٣) فقدان الاصابة في تأسيس الاحزاب في القرى لأن الحزبيات كلما دخلت قرية أفسدتها . ١٤) فقدان روح الاقتصاد والتوفير في الأمور المنزلية ، وعدم حساب الدخل والخرج في الاعمال الزراعية ، وسيطرة التقاليد العربية الجاهلية المحبذة للكرم فوق الطاقة مما يجب أن يدعى إسرافاً وتبذيراً ، خاصة في إقراء الضيوف وإقامة الاعراس أو المآتم ، وينبغي تصحيح المثل القائل « اخرب بيتك وبيض وجهك » . ١٥) فقدان الروح التعاونية المؤدية الى تأليف الجمعيات التعاونية الواجب ايجادها في كل قرية . ١٦) فقدان الارشاد الزراعي أو قلته . ١٧) فقدان الالعاب الرياضية ووسائل اللهو والتسلية البريئة المناسبة لعقل الفلاح ومعيشته . وفي الوقت الحاضر لا يجد

نادياً يرتاده سوى « منزل » المختار أو أمثاله يحتوي هناك القهوة المرة ويسمع ما يجري في القرية من القيل والقال . (١٨) فقدان الاغاني والازجال الشعبية اللطيفة ذوات المعاني المعبرة عن خوالج الفلاح والمحبة له مباهج الطبيعة وجمال الحياة القروية والاعمال الزراعية .

وبعد أن يعرض المؤلف النقائص يعدد الخصائص ليبرهن للقارئ إمكانية الإصلاح وضرورته فيقول ما خلاصته : إننا رغم هذه النقائص لا يسعنا إلا أن نحمد الحالة التي عليها أريافنا إذا قارناها بما في بقية الاقطار العربية الكثيرة الشكوى من أعداء الانسانية الثلاثة ، الفقر والجهل والمرض . فالفلاح في بلاد الشام مهارق حاله لا يلبس أحياناً بالية ولا يمشي حافي القدمين ، على خلاف ما نراه في جموع الفلاحين الذين يمرون في شوارع بعض الاقطار الشرقية ، وإذا وجد أثر من ذلك في بعض مناطقنا التي لا تزال على النزعة العشائرية فهو بنسبة ضئيلة . ثم إن فلاحنا لا يسكن عششاً وأكوأخاً بل دوراً ثابتة مبنية باللبن أو الحجر وتحوي أثاثاً نظيفاً . وقد تسمع حديثه فتصني اليه باعجاب ، كما ان الأمية قد نقصت وهي الى زوال مستمر وقد تخرج من القرى السورية رجال بارزون الآن في الجيش والطبابة والهندسة . وتقوم دوائر الصحة بما في وسعها ، إذ بذلت منذ ١٩٤٠ مساعي محدودة لتجفيف المستنقعات واستعملت الادوية الحديثة المضادة للحشرات وقد زالت أكثر الامراض السارية من القرى ونشطت الابدان . ولو كان في بلادنا بنايع النفط وأمثالها من مصادر الثروة والنعمة كالتى في بعض الاقطار العربية المحظوظة ل زاد صلاح الحالة العامة وتوارى الفقر والجهل والمرض بفضل ذكاء السوريين الذين أثبتوا وجودهم في مواطنهم كما في أماكن غربتهم . وأخيراً ينتهي المؤلف الى ذكر مقترحاته الإصلاحية فيقول : (١) إيجاد الامور التي قلنا انها مفقودة وإكمال ما هو ناقص ، وإصلاح ما هو فاسد بأقصر

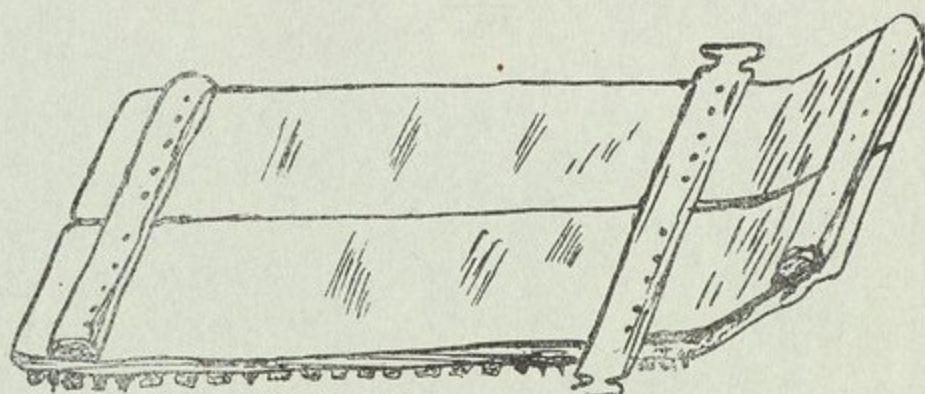
زمن ممكن لكي نعوض السنين التي فانتنا ونلحق الامم التي سبقتنا . ٢) وضع القوانين والتصاميم المبنية على دراسات علمية . ٣) احداث المراكز الاجتماعية وقد أحدثها مصر سنة ١٩٤٥ وأحدث لبنان أول نموذج منها سنة ١٩٥٤ . والآن يحتوي كل مركز في مصر (١) على بناية كبيرة فيها عيادة طبية للفحص والعلاج وصيدلية ومكان لرعاية الوالدات والاطفال ودائرة لتعليم الصناعات الريفية المنزلية ونادي رياضي وملعب عام وحظيرة للدواجن الممتازة وحقل نموذجي وقاعة للمحاضرات فيها مذياع ومكتبة ريفية ... هذا وما زلنا في سورية ننتظر صدور قانون في هذا الموضوع آملين متفائلين .



(١) جدير بالذكر مساعي اليونسكو في هذا الصدد ، فقد فتحت بالاتفاق مع بعض الدول كمصر والعراق وليبيا ، مراكز اجتماعية لتدريب الريفيين على الصناعات الريفية وجلبت لكل مركز اختصاصيين مع الآلات اللازمة للتعليم ...



شكل (٥) الجاروشة المؤلفة من قرصين من الحجر الاسود



شكل (٦) النورج المجهز بمكعبات من الحجر الاسود في وجهه السفلي



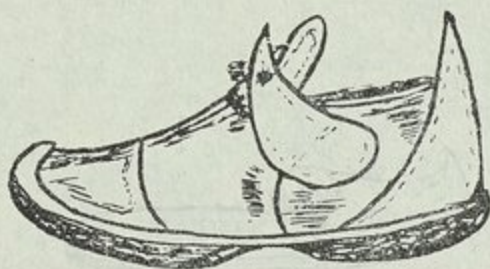
شكل (٧) لباس رأس المرأة



شكل (٨) حذاء المرأة «البابوج»



شكل (٩) لباس رأس الرجل



شكل (١٠) حذاء الرجل « المدا »

الصفات المشتركة للأرياف السورية

وأرياف الشرق الأدنى اجمالاً

ما هي الصفات المشتركة بين الجبلي اللبناني الذي يتسلق الصخور كل يوم من قريته الى حقله ، والبدوي الذي يتلاشى في رحاب المساحات الواسعة ؟ كيف تقرب بين البستاني الذي يعمل بعناية في المزرعة الفنية المحاطة بأربعة جدران وبين حاصد السهوب الذي ينتزع سنابل القمح النادرة من خلال الحصى سنبله سنبله ؟ ثم ما هي أوجه الشبه بين الحياة في البيت المبني من الحجر والحياة في الخيمة ؟

إن رحلة بحرية من سواحل سورية حتى قبرص نحو الغرب تكشف لنا خصائص هامة : قد نجد في اليونان مثلاً حقولاً ومزروعات تشبه ما نراه في سورية ، وقد نرى الجفاف والغبار والمناظر العارية نفسها ، لكننا نلمس آثار حضارة خاصة تختلف عن حضارة سورية . إن الفلاخين الهيلينيين فلاحون

(١) هذا البحث ملخص بتصرف عن كتاب :

J. Weulersse : Paysans de Syrie et du Proche Orient, p.213

مع تلخيص مقالين للدكتور عبد المطلب البقاعي : الهجرة (مجلة العمل ، دمشق ١٩٥٤) والصناعات الريفية (حلقة الدراسات الاجتماعية الرابعة ، بغداد ١٩٥٤) .

بالمعنى الغربي للكلمة وليسوا فلاحين بمعناها الشرقي Fellahs . ويمكن تمييز ميدان الفلاح الشرقي ، كمنطقة كبرى من المناطق الريفية العالمية ، بخصائص فرضتها ظروف تاريخية واقتصادية ، امتد أثرها في الشرق الأدنى حتى مصر بل والمغرب العربي رغم الاختلافات الجغرافية المحلية . وهذا الميدان يحوي فلاحين مسلمين ومسيحيين أحاطتهم ظروف واحدة فجعلت المسيحيين أحياناً (في حوران مثلاً) يطبقون نظام تعدد الزوجات المشروع في الاسلام . ولا يظهر الفرق بين المسلم والمسيحي في المدن إلا بالحجاب الذي تضعه امرأة المسلم وهذا الفرق آخذ بالزوال تدريجاً . أما في القرى فلا فرق جدير بالذكر وكل القرويين يخضعون لقساوة محيط ضيق وظروف واحدة مفروضة على الجميع ، إذا استثنينا بعض القرى القليلة المتطورة على غرار المدن .

الصفات البيولوجية والبيكولوجية :

الغذاء : يشغل بال الفلاح بالدرجة الاولى هم الطعام . وهو يعيش من غلاله فقط ولا يشتري شيئاً من الخارج . ولما كانت سورية بلاداً تنتج الحبوب فالتغذية القروية تركز على القمح والشعير اللذين يستهلكهما الفلاح بشكل برغل وخبز . وعملية الخبز هي أول الواجبات النسائية ، والمرأة هي التي تحضر الخبز « رقيقاً » على الأغلب في التنور . والتنور عبارة عن تجويف بيضوي الشكل من الطين المشوي توقد داخله الاعشاب والاعصان اليابسة وتلصق على جدرانها الداخلية أرغفة العجين الرقيقة ، خلافاً لعملية الخبز على الصاج الذي تلصق فوقه الارغفة . والخبز الرقيق يحتفظ بطراوته ويستخدمه الفلاحون في جميع ما كل المائدة القروية حيث يستعملون الاصابع لتناول الطعام .

يعتبر الخبز والبرغل واللبن « المواد الاساسية الثلاثة » التي يقتات بها الفلاح

خلال الفصول الاربعة . ولا يتنوع الطعام القروي إلا في المناطق المشجرة فيضاف الى المواد الاساسية الزيتون والتين والعنب والمشمش والفواكه المعروفة . أما اللحم فتناوله نادر الحصول إلا في الاعياد والافراح . ويرجح لحم الضأن الذي يسلق مع البرغل ، وفي الولايم تنوج ذروة المسائدة برأس الخروف المسلوق أو جذعه .

يشرب الفلاح قليلاً من الماء الذي يأخذه من البئر أو الصهريج وقد يخلطه أثناء الصيف باللبن . ولم ينتشر بعد مشروب الشاي ، وهو مشروب البدو الرحل في سائر الارياض . أما القهوة فكل أسرة ميسورة تستعد لشربها بكميات كافية ، وكل بيت يملك عدتها التقليدية : الجرن ، المدق ، المفلاة ، الفناجين الصغيرة . والمشروبات الكحولية معروفة رغم منع الدين لها ، وقد يفرط الفلاح في شرب العرق (وهو كحول العنب المعطر باليانسون) ولا سيما اذا اشترك في مباراة الشارين . على ان الادمان كما هو معروف في الغرب لا يزال قليل الانتشار في الشرق .

المسكن : يتصف البيت الربيعي السوري بصفات تتجت عن الشروط الايكولوجية والشروط الاجتماعية معاً . فالاقليم يساعد على الحياة في الهواء الطلق لذلك لا يحتوي البيت « المزرعة » وتعقيداتها المعروفة في الغرب ، وكل ما يحتويه قاصر على مستلزمات « الملجأ » بالدرجة الاولى . وقد يكون « مدفاً » بالمعنى المعروف عند سكان البحر الابيض المتوسط Foyer لكن هذه الصفة تأتي بالدرجة الثانية نظراً لتساهل الشتاء . فاذا اعتبرنا البيت بهذا المعنى ثم أضفنا اليه وظائف أخرى بسيطة لها علاقة بتربية الأسرة اجتماعياً ، أدركنا أسباب بساطته وتواضعه . وفي الواقع ، ما الفائدة من الاقبية والسقائف ما دام لا يوجد خمر ولا عنب للعصر ولا تفاح للحفظ ؟ ما الفائدة من اصطبل ما دامت الحيوانات تعيش بحرية ويجوز جمعها في باحة مكشوفة ؟ فاذا كان البيت الربيعي في الغرب

قوامه « المزرعة » Ferme وكان السكن أمراً ثانوياً فيه فإن البيت الريفي في الشرق يقتصر على السكن وحده، وعلى السكن المتواضع، ولا يتلاءم مع تفاصيل البناء المرسومة في الاقتصاد الزراعي الموجه . مع ذلك يمكن تصنيف البيوت الى مراتب : ١) البيت البدائي لأفقر الفلاحين وهو مقتصر على غرفة واحدة فيها الانسان والحيوان والمؤونة . مثاله مسكن الفلاحين العلويين - طوله ٤ م ، عرضه ٣ م ، ارتفاعه ٢ م . - يعيش فيه الفلاح بدون تهوية ولا إنارة كأنه في وكر . ٢) البيت المتوسط المنتشر في سهول الداخل . وهو أكثر تهوية ونظافة، جدرانه مبيضة بالكلس ، والسقف أكثر ارتفاعاً مع نافذة صغيرة مثقوبة في الجدار ، إلا أن مبدأ الغرفة الواحدة ما يزال مطبقاً ، يضاف إليها باحة محاطة بالجدران تهيئ فيها النساء الخبز والطعام وفيها ينام الرضيع نهاراً ويأكل الرجال ويرتع الكلب والدجاج . ٣) البيت ذو الغرفتين أو أكثر عندما يرتفع مستوى المعيشة ، حينئذ تخصص الغرفة الثانية للمؤونة والحطب والتبن . وفي حال تزويج الولد تضاف غرفة أو غرفتان للزوجين الحديثين ، مع الاعتناء بغرفة الاستقبال التي تؤثث كما في بيوت الحضر : كراسي ، دواوين، منضدة ، سرير نحاسي ، الخ . يبني الفلاح بيته بيده وبوسائله الموروثة عن أجداده مقيداً بالشروط الايكولوجية : ففي المناطق الجبلية يبنيه من الحجر لتوفره وضرورة تقوية البناء حتى يقاوم المطر والثلوج . وهنا نجد المراتب للبيوت كما ذكرنا ، من مستوى البيت البدائي (مسكن العلويين) إلى البيت الكروي (المبني من حجارة غير منحوتة) إلى البيت الكبير (اللبناني الذي يشبه القصر) . وفي المناطق السهلية يبني الفلاح بيته إما من اللبن مع الخشب إذا كان متوفراً (كما في دمشق وأطراف العاصي) وإما من اللبن فقط بشكل القبة (كما في سهوب حمص وحماه وحلب) . وفي كلتا الحالتين تطلی الجدران بالطين والكلس لامتلاء الفراغات داخلاً وخارجاً

وأخيراً في المناطق البركانية يبني الفلاح بيته من البازالت الذي يكسب القرية لوناً قائماً . على كل حال تتشابه البيوت من وجوه كثيرة : أولاً وجود الباحة المحاطة بالجدران ثانياً وخصوصاً كون السقف مسطحاً . فالسقف ، عدا كونه غطاءً للبيت ، يؤلف مركزاً للفاعلية الريفية هاماً : عليه يجفف الفلاح محاصيله وعليه يكسب مؤونة الحطب ، وفوقه بنام في ليالي الصيف حين يكون هواء الغرف حاراً . يستثنى من ذلك منطقتان : الأولى شمالية حيث القرميد المدور المستعمل في المناطق الرطبة من البحر المتوسط والمغطاة بالغابات (أنطاكية ، اسكندرونة) والثانية غربية حيث القرميد المسطح المسمى قرميد مرسيليا الذي يغطي الاسطحة الكبيرة ذات الأربع مثلثات (لبنان) .

أما المتاع فيتشابه أيضاً في البساطة والتواضع . فلماذا الاثاث المعقد ما دام الأكل والشرب والاستراحة والنوم كل ذلك يجري في مكان واحد ؟ لماذا الطاولة والكؤوس ما دام الفلاح يأكل جالساً « متربعا » ويشرب عابثاً « مترنقا » . مع ذلك لا يخلو كل بيت من بعض التعقيدات إما لغاية عملية أو لسبب فني . فقد تجد بعض الصحنون المبعثرة في الغرفة ، تارة من النحاس وتارة من الفخار والقش ، وكذلك بعض « الكورات » المؤلفة من قفل من القش المطلي بالتراب والكلس حاوية مؤونة الاسرة . وقد تجد الموقد في وسط الغرفة أو في الجدار الجانبي كما تجد في الجدار المناظر عدداً من اللحف القطنية والفرش الصوفية منضودة في ثغرة خاصة . وفي الوسط أيضاً مهد الطفل من الخشب أو أرجوحته المعلقة في السقف . أصف إلى ذلك صوراً ملونة من صنع النساء تزين الجدران والرفوف بأشكالها الابتدائية (خطوط ودوائر وأشجار النخيل ووجوه كاريكاتورية ...) تدل على وجود نزعات فنية لا تهدف إلى منفعة مباشرة بل ترى غايتها في ذاتها لتطلق عنان الفلاح من قيود الواقع وعبودية العمل اليومي .

وهي إلى جانب التطريزات الريفية تكشف لنا عما في حياة الفلاح من فن . وعلى الرغم من بساطة التصميم والاثاث فإن البيت الريفي لا يخلو من تنوعات في هيكله وبنيته . فالمواد المستعملة في البناء متنوعة ، وطرائق التنوير متنوعة ، ومظاهر الجدران بقشورها الطينية الكلسية مع ارتفاع السقف كل ذلك متنوع ، حتى أن بعضها الملون بالأبيض الناصع والمنور بصورة مفرحة قد يثير في الناظر رغبة الزيارة والبقاء (كما في بيوت الغوطة وضواحي حلب) .

والبيوت الريفية لم تكن منعزلة بل متجمعة لأن التجمع يلطف من فقرها . كما أن القوانين الايكولوجية تحتم هذا التجمع خلافاً لما هو معروف في الغرب من المزارع المنعزلة والمساكن المتناثرة . ففي الشرق أولاً ضرورات التغذية بالماء مع العلم أن الينابيع نادرة وحفر الآبار شاق وموارد الرزق هزيلة ، وكل ذلك يستلزم جهوداً جماعية . ثانياً ضرورات الأمن التي تفرض التجمع سواء في الاعمال الزراعية الجماعية من حرث وحصاد (وبفضله بقي نظام المشاع رائجاً) أو في الدفاع المسلح . وهكذا ينزع الفلاح إلى التكتل وهو يمارس شتى أنواع السلوك الجماعي . إنه شعور جمعي أكثر من شعور فردي ، ولا نفهم عواطفه وسلوكه إلا مع رهطه وجماعته . وهذا الشعور يتبلور في الحياة البدوية بما يسمى بالعصبية القبلية ، تلك العاطفة التي لا تجعلها القرية السورية . فكل قرية سورية تملك شخصية رهيبية الجانب مستعدة للدخول بكاملها مع الغريب في خصومة . غير أن الذي يستغربه الباحث هو عدم وجود أي تدبير دفاعي كالأسوار والابواب الحديدية التي تغلق القرية ، فما هي الاسباب التي نعلل بها كون القرية السورية قرية مفتوحة ؟ لا صعوبة في الاجابة ما دامت القرية لا تؤلف حياة سياسية فهي حياة اجتماعية تخضع سياسياً لأسياد البلاد كيفما كان شكل الحكومة . والامر جلي في السهول أكثر منه في الجبال . لأن الدفاع في

الجبال قد ينصهر فتكون المنطقة كلها حصناً . لذلك كانت الجبال أعسر من السهول بالنسبة للحاكم . وينتظم التحصين في المناطق التي تتطعم فيها الحياة الريفية بعناصر مدنية أي عندما تكبر القرية وتأخذ شكل « مدينة صغيرة » على غرار المدن الأوروبية في القرون الوسطى . على كل حال لا يتاح لنا ملاحظة أشباه هذه المدن في الوقت الحاضر ونعود لنقول إن القرية السورية هي مجرد هيئة اجتماعية تبدو في عين الناظر مجموعة مختلطة من البيوت الريفية بلا تمرکز ولا انتظام . وكل ما يبرز فيها إنما هو اجتماعي صرف ، كالنوع الذي تجتمع حوله النساء كل يوم فيتحدثن بعيدات عن الرجال بكل حرية . والمقبرة ذات التلال الترابية والقبور المتواضعة بدون أسماء ولا أنصاب . والمزار الذي يلجأ اليه المسنون والمسنات فيستظلون في ظله أو يستدفئون في شمسهم وإن كان ثمت طريق يجاور القرية أو ساحة فيقوم في القرية سوق أو خان أو مقهى . وقلما تظهر مراكز أخرى إلا بشكل ضامر ، كالبلدية والمدرسة والجامع والكنيسة .

اللباس : تؤثر العوامل الايكولوجية في تنوع اللباس كما تؤثر في تنوع المساكن . فاختلاف الارتفاع عن سطح البحر وفروق الحرارة بين النهار والليل والصيف والشتاء كل ذلك يستلزم ألبسة مناسبة . وتبقى مسألة الثياب ذات أهمية كما في الغرب خلافاً لبعض المناطق الأفريقية . ففي مصر مثلاً تقل هذه الأهمية وتسود بساطة الثياب . أما في سورية فالفلاح عليه أن يستثمر الموارد الطبيعية ويستخدم أنواع النسيج الثلاثة : الصوف والقطن والحرير . وهو حتى يومنا هذا يصنع المنسوجات بيده في سبيل الاستهلاك الشخصي ، أي أن صنع اللباس داخل في إطار الاقتصاد المنزلي . فالمنازل اليدوية منتشرة في البيوت الريفية وتحت خيام البدو ومهياة لغزل الصوف والقطن والحرير . غير أن طلائع الصناعة الكبرى بدأت تتسرب بثمنها الرخيص إلى هذه البيوت وهنا الفاجعة

المعروفة في علم الاقتصاد بغزو الصناعة الكبرى للصناعة الصغرى . على أنه مها
تمادي هذا الغزو لن يخلو الريف من صناعاته المحببة إلى أهاليه . فأغطية الرأس
التي يلبسها النساء تصنع في الريف اللبناني ، والنسيج المولف من شعر الماعز أو
الوبر يصنع في لبنان الشرقي ، والاقمشة القطنية الخاصة بالنساء تصنع في جبال
العلوين ... وكذلك أنواع أخرى من الاقمشة الريفية تبقى إلى جانب الاقمشة
الاوربية محتفظة بألوانها الزاهية وزخارفها التقليدية .

يمكن تصنيف أزياء الرجال إلى نوعين : اللباس الجبلي واللباس السهلي أو
البدوي (١) فاللباس الجبلي يتألف من « الشر وال » الذي ينتهي في « الجزمة »
وفوقه معطف قصير « قشطية » مع حزام يحيط الخصر تتفاوت سماكته وزخارفه
والكل غني بالالوان البراقة (٢) واللباس السهلي أو البدوي يتألف من ثوب
طويل « قنبار » ينتهي عند القدمين وقد يحيطه في مستوى الخصر « زنار » رفيع .
وهو زي المناطق الحارة في الصيف ويرتديه الرعاة فيتلاءم مع نوع حياتهم ،
تضاف اليه في الشتاء « العباءة » سواء في السهول أو الجبال ، وعند البدو « الفروة »
لمكافحة برد الليل الشديد .

أما لباس الرأس فتصنيفه يتأثر بمفاهيم دينية أو محلية . فالجبلي الدرزي له عمامة
خاصة والجبلي غير الدرزي قد يلبس الطربوش الاحمر بدون عمامة . على أن
الكفية والعقال هي اللباس المشترك التقليدي الذي يفتخر فيه الجبلي والسهلي والبدوي
معاً . أما الخداء فهو الجزمة التي ترتفع إلى منتصف الساق في الجبال والنعل الخفيف
المجهز بمحركات جلدية تدخل فيها أصابع القدم ، للسير السريع في السهول والصحارى .
يمتاز لباس الرأس النسوي كما يمتاز لباس الرجل ، بكونه خاصاً بهذه البلاد
دون غيرها . فهو يحيط الرأس ويؤلف إطاراً حول الوجه وتمتد ذبوله من الخلف
حتى القدم . وقد يشغل بال المرأة هم الاعتناء به فتضيف إليه منديلاً حريراً
يتدل إلى الخلف ثم تضع الحلي والاقراط المؤلفة غالباً من قطع نقدية عند البدو ،
فيكسب وجهها بريقاً رناناً . ويتألف لباسها العام داخلياً من ثوب طويل فوق

سروال ضيق يمتد حتى القدمين، يضاف إليها تنورة طويلة مثبتة في الخصر بنار . وعلى الرغم من ثقل هذا اللباس فإن الفلاحة تتلاءم معه بسهولة وترفع التنورة لتلفها حول خصرها أثناء الشغل ، والمبدأ أن تكون مستورة الجسم مستورة الشعر خلافاً لما نراه في الفلاحات الصبونيات ذوات السروال القصير فوق الركبتين مع كشف الصدر والعنق والذراعين . وعلاوة عن الثوب الطويل فالفلاحة السورية ترتدي معطفاً خارجياً أو نوعاً من الصداري التي تنفق عليه باسراف أيام الاعياد لأنه يتألف من الحرير الاصلي أو المخمل المطرز باليد ذي الالوان البراقة (أكثرها الاحمر والازرق والاصفر) ولا تهمل الاعتناء بمخذيها بل تنتقيه بلونيه الاحمر داخلاً والاصفر خارجاً بحيث تظهر كلها كتلة ألوان وزخارف ، وقد تبلغ الزخرفة أقصر حدها في بعض القرى القديمة من غوطة دمشق أو لبنان الشرقي ، وفي بعض القرى الجبلية المنعزلة ، منها المسيحي ومنها الدرزي ومنها العلوي . وبالأجمال يولف الثياب الرخي بمجموعه صورة جميلة تشهد لسورية ولبنان وبعض أنحاء الشرق الأدنى بوجود حضارة ريفية حقة .

الحركة الديموغرافية : تصف الارياق عادة بخصوبة النسل ولا تشذ أرياف الشرق الأدنى عن هذه القاعدة بل تشجعها مفاهيم دينية وأخلاقية كانت متأثرة بموامل حيوية وايكولوجية . فالأسرة هي ورشة عمال في أكثر نواحي الريف والأب يحتاج إلى أولاده العمال . وقد زالت بعض العوامل الحيوية والايكولوجية مع بقاء المفاهيم السابقة نفسها إلا في القرى التي بدأت تكبر على غرار المدن والتي بدأت توازن بين العوامل والمفاهيم لتحديد النسل قليلاً أو كثيراً . مع ذلك لا يزال بإمكاننا وضع الفلاح الشرقي في المرتبة الاولى بين السكان الذين يتكاثرون في العالم ، ويمكن تقدير نسبة الولادات على وجه التقريب بالرقم ٤٥ بالألف بناءً على بعض الاحصاءات المحلية . أما الوفيات فهي كثيرة خصوصاً في الاطفال قبل السنة الاولى ، أولاً لجمل الفلاحات وانتشار الزواج المبكر ، ثانياً لانعدام الوسائل الصحية الواقية إزاء تقلبات الاقليم وجراثيم المحيط ووساخة الاماكن .

وليست قليلة جداً وفيات الراشدين لأن السل والأمراض الرئوية منتشرة بسبب سوء الشروط الصحية في المسكن ، وكذلك الحميات المعوية التي تميز صاحبها حتماً في بعض المناطق المزرعية من أطراف العاصي والأردن ، فضلاً عن الأمراض السارية التي لها أثرها (التراخوما ، حبة حلب . . .) في تخريب بنية الانسان وإضعافه . على أن المصائب الكبرى المعروفة في الغرب من جراء الكحول والأمراض الجنسية ما تزال بعيدة الوقوع في الشرق ويحتفظ العرق الريفي بمجاله وقواه سواء في الجبال (القروي ذو الوجه المفلوح بالشمس والرياح) أو الصحارى (البدوي ذو الجسم المرن) ، مع بعض التغير في السهول لانحلال القوة بعوامل الظل والرطوبة خلال الأشجار والانهار (الفلاح ذو البشرة الكامدة) وإذا قدرنا نسبة الوفيات بالرقم ٢٥ بالألف فانه يبقى معنا على كل حال ٢٠ بالألف زيادة (وهي حاصل طرح الرقين ٤٥ - ٢٥) فما هو مصيرها ؟

كانت هذه الزيادة قبل عام ١٩١٤ نفى بالأوبئة كالطاعون والتيفوس أو تهلك بالجماعات العامة . ومنذ نصف قرن حدثت الهجرة إلى أمريكا وسواها خصوصاً من لبنان الذي يحتفظ دائماً بنسبة جيدة من الشروط الصحية مع استمرار تكاثر النسل . غير أن الهجرة لن تكون وسيلة التوازن لا في لبنان ولا في سواء ما دام النسل يزداد بنسبة متصاعدة مع تقدم فن الصحة في البلاد أجمع . فلا بد إذن من استخدام رؤوس الاموال في سبيل الاستثمار ، سواء أموال الدول العربية أو الجماعات أو الافراد مع حدوث ثورة فكرية في المفاهيم الاقتصادية والحقوقية .

الهجرة : تبدأ الهجرة عادة بكونها داخلية قبل أن تكون خارجية . فالهجرة الداخلية إنما هي حركة التنقل داخل حدود الوطن بين منطقة وأخرى أو بين الارياف والمدن ، وهي أسهل من الهجرة الخارجية لسهولة المواصلات وقلة نفقاتها وعدم وجود الشكليات الرسمية . فليس أسهل على الفلاح من الهجرة حيثما لا يحتاج إلى جواز السفر ولا يتعثر بصعوبات اللغة الأجنبية أو المعاملات التي

يجريها المسافر خارج بلاده . ويمكن إجمال أسباب هجرته فيما يلي : (١) تكاثر النسل في القرى . (٢) حاجة المدن إلى الطبقة الكادحة . (٣) تطور الآلات الزراعية الذي يقلل الحاجة إلى الفلاحين . (٤) نمو المعامل في المدن بسبب توسيع الإنتاج . (٥) مغريات المدن وملاهيها وملذاتها .

غير أن الهجرة الريفية في سورية خاضعة أيضاً لأسباب محلية ، لذلك ينبغي دراسة الشروط الأيكولوجية بتقسيم الفلاحين إلى قسمين : فلاحين أراضي البعل وفلاحين أراضي السقي ، ثم تقسيم كل قسم إلى نوعين :

١ - فالقسم الأول يعيش في نوعين من أراضي البعل : (١) أراضي البعل ذات الأمطار القليلة وفيها يعيش أفقر أنواع الفلاحين وغالب عيشهم على تربية المواشي وبيع منتجاتها الضئيلة . لذلك يضطرون إلى الهجرة أكثر من سواهم . وقد يملك هذا النوع بعض الإقطاعيين فلا ينال منهم الفلاح أجره يومية أكثر من ١٥ - ١ ل.س للرجل و ١٢٥ - ١ ل.س للمرأة و ٧٥ - ١ ل.س للولد . (٢) أراضي البعل ذات الأمطار الجيدة وفيها يجد المرء أشجار الغابات والزيتون والتين مع زراعة البطيخ والقمح والشعير والعدس والقطاني . فهي ذات موارد جيدة ويملكها على الأغلب إقطاعيون يعطي لهم الدونم الواحد نحو ٤٠ - ٥٠ ل.س في السنة فيعطون الفلاح العامل ما يعادل ٣ ل.س يومياً . غير أن العمل لا يدوم سوى أربعة شهور فيضطّر الفلاح إلى الهجرة في الشهور الباقية . وقد يهاجر نهائياً تخلصاً من عبودية أصحاب الأراضي لأن الذي يقدر على القيام بصناعة إضافية يستعين بها على العيش في أوقات البطالة لا يتاح له القيام بها بحرية كافية بسبب تبعيته لصاحب الأراضي .

٢ - والقسم الثاني يعيش في نوعين من أراضي السقي : (١) أراضي السقي البعيدة عن المدن ، وفيها يجد المرء زراعات أساسية كالقمح والشعير والذرة

والبطاطا والقمح والبصل والثوم كما يجدها أشجار الجوز والشمس والعنب وسواها مع بعض أنواع الخضار في نطاق ضيق (لتعذر تصديرها إلى المدن البعيدة فتستهلك محلياً أو تجفف) وبعض أنواع الصناعات الغذائية (اللبن والبيض اللذين يستهلكان محلياً أو يباعان بثمان بخس) . على كل حال يعطي الدونم نحو ٨٠ - ١٠٠ ل.س في السنة فيكون دخل الأسرة المؤلفة من ٨ - ١٠ أشخاص نحو ٤ - ٦ ل.س يومياً . فالهجرة تكون هنا موسمية ، لأن الفلاح العامل ينتقل إلى الأراضي المجاورة أيام الحصاد ومواسم قطف العنب ليجدها مورداً إضافياً يعينه على تمضية باقي أيام السنة في قريته . وغالباً ما ينحدر المهاجرون من المناطق الجبلية ذات الأراضي الضيقة المحرومة من الزراعة والأشجار . وتتراوح أجورهم اليومية في المواسم الفعالة ما بين ٢٥٠ - ٣ ل.س للرجل و ٢ - ٢٥٠ للمرأة و ١٥٠ - ٢ للولد ، وفي المواسم غير الفعالة ما بين ٢ - ٢٥٠ للرجل و ١٥٠ - ٢ للمرأة و ١ - ١٥٠ للولد ٢٠) أراضي السقي القريبة من المدن ، وفيها يجدها المرء كثيراً من الأشجار المثمرة كالزيتون والشمس والتفاح والخوخ والأجاص والجوز والرمان كما يجدها كثيراً جداً من الخضار (لسهولة وضرورة تصديرها لتموين المدن) . وهي كثيرة الموارد قليلة النفقات (لقرب مراكز التصريف ورخص المواصلات) ولا تتطلب سوى الاستمرار في العمل طوال أيام السنة . ويعطي الدونم الواحد منها نحو ١٥٠ - ٢٠٠ ل.س في السنة ويكون دخل الأسرة نحو ١٠ - ١٢ ل.س يومياً ، يضاف إليها مورد تربية الدجاج والمواشي وزراعة الزهور ، وكلها تؤمن المزارعين (بما يبيعونه من بيض وحليب ولبن وجبن وزبدة وزهور) مستوى من العيش جيداً . وتغلب على هذه الأراضي صفة الملكية المتوسطة أي يملكها إقطاعيون متوسطون يلهمهم في الدرجة الفلاحون الملاكون والفلاحون الضمانون . أما أجور الفلاحين العمال فتتراوح يومياً في المواسم الفعالة

بين ٣,٥ — ٤,٥ ل.س الرجل و ٢,٥ — ٤ للمرأة و ٢ — ٢,٥ الولد . وفي
المواسم غير الفعالة ٢,٥ — ٣ للرجل و ٢ — ٢,٥ للمرأة و ١ — ١,٥ الولد .
وفي هذا النوع الاخير قلما تحدث الهجرة إلى المدينة بل تحدث « الهجرة
المعكوسة » : أي عندما يغنى التاجر أو الصانع في المدينة يفتش عن أراضي قريبة
من مدينته فيشتريها أو يستأجرها أو يضمنها .

لا شك أن الهجرة المعكوسة مفيدة للفرد والبلاد بآن واحد ، غير أن
هجرة الريفيين إلى المدن محاطة بكثير من المساويء ، فهي إذا أغرت الفلاح
بترك أرضه فأنها لن ترفع مستواه في المدن إلى النسبة التي تساعد على تكوين
بيت وأسرة . فالأجرة « الاسمية » في المدينة مرتفعة ولكن الأجرة « الحقيقية »
تبدو متدنية لارتفاع نفقات السكن والغذاء (بسبب كثافة السكان) . ثم إن
الفلاح لا يجد في المدينة مورداً إضافياً كما في القرية ، مثلاً تأمين جوبه والاستفادة
من منتوج الدجاج والمواشي ، فهو إن يجد في الهجرة فرجاً فقد يلاقي في الوقت
نفسه مضايق يصعب اجتيازها ولا سيما إذا انخفضت أجرته . ومن جهة أخرى
فإن البلاد تضطرب من جراء هجرته ويختل توازن السكان فيها : تزداد الكثافة
في مناطق وتقل في أخرى . وبما أن الهجرة قوامها الشبان فهجرتهم يقلل الزواج
وتقل نسبة الولادات بسبب التباعد بين الزوج والزوجة في سني الخصوبة . وعداً
هذه المساويء الديموغرافية فإن مساويء أخرى اجتماعية واقتصادية تلحق بالقرية
والمدينة معاً : (١) بالقرية تقل الفاعلية الزراعية وينعدم تفاؤل الفلاح فلا يكافح
صعوبات الاقليم لتحويل الارض البور إلى أراضي منتجة ، ويتدنى الاتساع
الزراعي تقل الثروة الوطنية ويتدنى مستوى العيش لدى القرويين فتكثر المهاجرة
وتزداد الحالة سوءاً على سوء في الفقر والجهل والمرض ، ثم تفقد القرية تقاليدھا
وجملھا وتراثھا الربني (٢) بالمدينة تتأزم الايدي العاملة بسبب مزاحمة القرويين

وتنخفض الاجور التي يقبلونها بحكم مستوى العيش الذي اعتادوه في القرية وبسبب وجود موارد ثائية يعتمدون عليها ، وبالنتيجة تنعكس عليهم آثار ذلك وعلى زملائهم المدنيين فتقل نسبة التغذية في طبقة العمال وتسوء الشروط الصحية للسكن والملبس . ثم تقع المدينة بمشاكل معقدة من جراء البطالة ، كانتشار الجرائم وتفشي المفاسد الاخلاقية والامراض الخطيرة بنوعها الجسمي والنفسي لذلك ينبغي اتخاذ الاحتياطات لتحديد الهجرة وتشجيع الريفيين على البقاء في اراضيهم عن طريق المشاريع الزراعية والصناعية التي تستخرج من الريف خيراته الدفينة .

هناك حالات قد تفيد فيها الهجرة ، وربما حدثت في المستقبل في بعض أنحاء الشرق الادنى . ١) في الريف قد يزداد السكان مع رقي المنطقة ونشاطها في بعض الاختصاصات ، فتضيق الارض بسكانها ، حينئذ تكون الهجرة علاجاً لهذا الضيق كما تكون سبباً لرفاه الذين يبقون ، فتحسن الاحوال الديموغرافية من زواج وولادات كما تتحسن الثروة المحلية بتمويل المهاجرين لقراهم المحبوبة ، في سبيل التوسيع الزراعي والصناعي . ٢) وفي المدينة قد تحتاج المشاريع الجديدة إلى المزيد من الايدي العاملة فتصل إليها وفود الشباب من الارياف ، لتضاعف الانتاج الوطني . وبذلك تتحسن الاحوال الديموغرافية ثم تتحول البلاد من دولة صغيرة محدودة الامكانيات إلى دولة كبيرة ذات شأن . وفي هذه الحال يتاح للدولة وقاية العمال وحماية أجورهم وتأمين راحتهم في المساكن الملائمة بل وتأمين حياتهم في شيخوختهم ومرضهم .

الصناعات الريفية : لقد أثر عصر الآلة تأثيره في إخماد الصناعات الريفية التي كانت نفائس يتزاحم على شرائها الغربيون . واستطاعت الآلات الحديثة تقليد بعضها ومنافسته كالحرير النباتي ونسيج العبي والبسط ، مع ذلك فقد بقي

للشرق بعض اختصاصاته وأخذت الآن كل دولة شرقية تغني باحيااء صناعاتها ، كما أخذ اقتصاديو الامم المتحدة يشجعون هذا الاحياء مع المناداة بضرورة تصنيع الريف في سبيل الانعاش الاجتماعي .

يمكن مبدئياً تقسيم الصناعات الريفية إلى قسمين : الصناعات الغذائية والصناعات غير الغذائية .

١ — فالصناعات الغذائية هي التي تقوم على حفظ الحليب وحفظ الفواكه وعصر العنب والزيتون ، وعن ذلك تنتج الانواع الآتية : (١) صناعة الالبان : وهي صناعة منتشرة في قرى دمشق وحلب وحماء وحمص . والالبان كثيرة منها اللبن ، والزبدة والقشدة والكريم والقريشة . أشهر أنواع اللبن : الافراوي المصنوع في قرية « افره » من قرى دمشق ، والمساوي والزبداني وجبن حلب المضفور وجبن الضرف المصنوع في البادية وجبن القشقوان المصنوع في قرى دمشق وحلب (ينافسه اللبن الهولاندي والفرنسي والتركي) . وهناك نوع من اللبن المجمد والمغلف بطبقة من البهارات يسمى « شنكليش » يصنع في حمص وحماء . أما الزبدة فمشهورة بأنحاء حماه ودير الزور والجزيرة بالطرق القديمة وأنحاء دمشق وحلب بالطرق الحديثة (الآلات الفارزة) . وكذلك السمن المشهور بحماه ودير الزور والجزيرة ويتقن صنعه البدو ، وله أشكال عديدة منها السمن الحديدي الحموي ، وإجمالاً تجارته رابحة هو وسائر الالبان التي يصدر منها كميات كبيرة إلى لبنان . (٢) صناعة الكشك : وتكون بتجفيف القمح أو البرغل المزوج باللبن وفركه باليد فركاً ناعماً ، يستخدم كحساء ويصنع في جميع القرى . (٣) صناعة القمر الدين والنقوع والتين المجفف . فالقمر الدين يحصل من تجفيف عصير المشمش على ألواح خشبية مدهونة بالزيت ، تلف بعد تجفيفها وترسل إلى المدن السورية أو إلى الخارج كمصر وأمريكا . أما النقوع

فيكون بتجفيف المشمش فقط على أشعة الشمس ، وكذلك التين المجفف ، إلا أن لهذا الأخير نوعاً يسمى « تين القوالب » يجفف ثم يضغط في قوالب خاصة معروفة في قرى حلب . ٤) صناعة الدبس ، ولها طريقتان : الطريقة الأولى وهي الأكثر شيوعاً « غلي العصير الزبيني » والطريقة الثانية « غلي العصير العني » . فبعد الحصول على العصير بواسطة المعاصر المؤلفة من دواليب ثقيلة ، يقطر بواسطة نوع خاص من الشيوخ . وبعد ثلاث تقطيرات مدة كل منها ٢٤ ساعة يحصل نوع من الشراب « صلبة » يجمد أثناء الغليان الكافي ، فيشكل الدبس . يتفرع عن هذه الصناعة صناعة الملبين (قضبان من عصير العنب المجفف والممزوج بالدقيق مع الجوز) وصناعة الباستيك (صفائح رقيقة من المزيج المذكور) المشهورتين في قرى حلب واللاذقية . أما الزيت فهو العنب المجفف وأشهره الزيت الدربلي . ٥) صناعة الزيت : وتكون بعصر الزيتون بواسطة معاصر ذات دواليب ثقيلة ولا تزال بعض القرى في دمشق وحلب واللاذقية تتبع الطرائق القديمة . تعتبر سورية من البلاد المصدرة للزيت وأجوده الزيت الناتج من الأشجار الساحلية . ٢ — أما الصناعات غير الغذائية فهي على نوعين : الصناعات المنزلية والصناعات غير المنزلية (أي المشغلية) .

فالصناعات المنزلية تراوحتها النساء على الأغلب ، وذلك بأدوات بسيطة داخل البيوت . ومن النساء من يشتغلن في البيت لحساب تاجر أو مستصنع يقدم لهن المواد اللازمة . أشهر هذه الصناعات : ١) صناعة الاغباني : وهي نوع من التطريز على أقمشة خامية أو حريرية بواسطة ماكينات بسيطة . والمشهور من القرى في صنعه قضاء دوما حيث ٧٥ ٪ من بيوته تشتغل لحساب تجار « سوق الحرير » بدمشق . تتراوح أجرة العاملة ما بين ١٠٢٥ - ١٠٥ ل.س يومياً . ويصدر الانتاج منه إلى البلاد العربية المجاورة . ٢) شغل الصنارة : وهي من

الصناعات النفيسة التي يرغب ابتياعها الاجانب من السواح والزوار . والمشهور في صناعتها ببرود التي تحوي نحو ٥٠٠ فتاة يشتغلن بها أوقات فراغهن . وينتج عنها شغل الطواقي والكفوف وشبكات الالعب الرياضية والسلال ... التي يصدر قسم منها إلى لبنان وأفريقيا . ٣) شغل الابرّة وهي أيضاً من الصناعات النفيسة المرغوبة لدى الاجانب والمشهور في صناعتها القطيفة وجوارها . ولها أشكال عديدة منها : شغل الطواقي ، الطرازات ، الصداري ، قصب المخمل والبريم ، الحفر ، التركيب ، الخ . وقد ظهرت أقمشة مقصبة رخيصة الثمن كادت تقضي على هذه الصناعة ، غير أن تجار الفنادق ومكاتب السياحة أخذوا يطلبونها من منبعها بعد أن تنوع طرازها مع ذوق الاجنبي والمدني كليهما . ٤) شغل السجاد وهي من الصناعات القديمة التي لا تزال في بعض نواحي القلمون وجبل الدروز وقرى حماه (محردة) وادب والاذقية . والمشهور في إتقانها قرية دير عطية في القلمون ، أدواتها بسيطة ريفية ونولها الشاقولي لا يشغل حيزاً كبيراً من المكان . يدوم عمل السجادة الواحدة ٣ - ٤ شهور وتحتاج إلى مهارة في الحياكة ومهارة في انتقاء الالوان وإبداع الرسوم . فالجودة في الغزل والجودة في الصباغة والنقش هما العاملان في رواج هذه الصناعة ولو أن التجار يمولون صناعاتها والحكومة تشجعهم بشراء منتجاتهم لدوائرها لكان إنتاجهم أوسع ومراكزهم أكثر انتشاراً في القرى العديدة ، مما يقدم مورداً للريف لا ينضب . ٥) شغل العبي وهي نوع من صناعة النسيج بوبر الجمال وصوف المواشي . والمشهور في صناعتها : صدد وحفر والقريتين (خصوصاً نسيج البوبر) ثم قرى حلب (العباءات الصوفية) . ويبلغ عدد الانوال في صدد نحو ٤٠٠ - ٥٠٠ نولاً وفي حفر نحو ٤٠ نولاً والقريتين ١٠٠ نولاً وقلما يخلو منزل من منازل صدد من نول أو نولين هذه المدينة التي تعيش على هذه الصناعة رغم وقوعها بعيدة في الشرق على حدود

البادية . إلا أن هذه الصناعة محاطة بالآخطار . أولاً لظهور نوع من القماش الايطالي رخيص الثمن وقد منعت استيراده وزارة الاقتصاد الوطني . ثانياً تحول ذوق البدوي نحو ارتداء المعاطف الجوخية . ثالثاً بخس الاجور التي تدفع إلى صناع العبي وعدم وجود مراكز تسليف لهم . رابعاً العقبات الجمركية القائمة بين البلدان العربية . في الوقت الحاضر يعنى في جمع العبي في صدد مركزا حلب ودمشق اللذان يوزعانهما على بقية البلاد . وتبلغ نسبة الذين يشتغلون لحسابهم ٨٥ ٪ والباقي ١٥ ٪ يشتغلون أجراً لحساب غيرهم . أما العامل فلا تتجاوز أجرته اليومية ٢٥ ل.س. (٦) صناعة البسط وهي كصناعة العبي يختص بنسجها الرجال وبغزلها النساء والاطفال . والمشهور في إتقانها مع صناعة الخروج ، قرى القلمون . وهي إن كانت صناعة منزلية في القلمون ومحددة وجرابلس وجبل الدروز والبوكمال ، فانها تكاد تكون مشغلية في تدمر . يصنع البساط من الصوف وقليل من القطن ويدوم العمل في صنعه نحو ١٢ يوماً مقابل أجرة تتراوح بين ٣٠ - ٣٥ ل.س أي مقابل أجرة يومية ٢٥ - ٣ ل.س. (٧) صناعة الكليم وهي نوع دقيق من صناعة البسط بالنسيج الصوفي وخاصة مادة الكتبك المستوردة من الهند والباكستان . والمشهور فيها دير الزور والميادين والبوكمال . (٨) النسيج اليدوي وهي صناعة كل قرية من القرى المجاورة المدن الكبرى ، غير أن الانوال في قرى حلب أوسع منها في قرى دمشق . ومتوجها الخيام بأنواعه : في دمشق الخيام الصالحاني مع نسيج الصايات ، في حمص نسيج الحطة والشرشف والفوطه ، في حماه نسيج الشرشف والمناشف المطرزة المقصبة ... في حلب الخيام والسجف والصايات بأنواعها . (٩) صناعة الجبال ، وقوامها قشر القنب المزروع خصوصاً في قرى الفوطه . يبرمونه بدواليب خاصة ويدوم العمل طوال أيام السنة بالهواء الطلق أمام أبواب البيوت باشتراك جميع أفراد الأسرة القادريين .

يوجد في ضواحي دمشق ٦٠٠ دولا ب وفي حلب ٨٠٠ وفي حمص وحماء ٥٥٠ .
يزاحم هذه الصناعة ما يرد من الجبال الاجنبية المصنوعة من الليف والنايلون .
١٠) صناعة القش والحصير والسلل والمكانس ... التي يقوم بها الرجال وأحياناً
النساء . قوامها نبات القش أو سوق القمح أو القصب المسمى بوارى (منه تصنع
حصر السقف) وأكثره ينبت حوالي الانهار والبحيرات . وفي هذه الصناعة
مجال للابداع الفني أثناء التلوين وترتيب الاشكال وبلا مكان تشجيعها في سبيل
الاصدار للأجانب .

أما الصناعات غير المنزلية فهي الصناعات المشغلية التي يقوم بها القرويون في
أمكنة خاصة يتجمعون داخلها ، وتكاد تقتصر على النسيج في القرى الكبيرة
من أقضية حلب ودمشق . ١٠) صناعة نسيج الشعر ، والمشهور فيها ببرود التي
تصنع الخيام للبدو مع البسط والذئارات ... فيصدر منها إلى الصحارى العربية
كميات كبيرة . ولولا ذلك لما عاشت ببرود مع كثافة سكانها . وإذا لاحظنا كثرة
المهاجرين من القرى الأخرى في القامون بالنسبة لقلّة المهاجرين في ببرود نلاحظ
أهمية الصناعات الريفية في توطيد السكان . ومن الطبيعي أن تمتاز هذه الصناعة
بوجود التجار الكبار الذين يمولون مشروعاتها ولا سيما الحلييون . وإذا قسمنا
الشعر إلى نوعيه المحلول والمشغول ، فإن المحلول يتألف من الكنبك المستورد من
الهند والباكستان أو من شعر الماعز المستورد من مصر وقبرص ولبنان أو من
شعر الماعز المدبوغ في سورية . وقد يمزج قسم من المشغول بالكنبك المذكور .
٢) صناعة الفخار ، والمشهور فيها نواحي اللاذقية المشابهة إلى لبنان ، ونواحي
حلب . ومتى فضج الفخار أثناء الشوي تزداد متاعته ومنه تصنع القساطل
والشرابات والقلل والقذور والتنانير . ٣) صناعة صناديق الفاكهة والمشهور فيها
جميع ضواحي المدن الكبيرة وهي صناعة موسمية لا تستمر أكثر من خمسة شهور

في السنة . ٤) صناعة اللباد والمشهور فيها قرى ادلب ودرعا والقلمون حيث تطبخ بقايا الصوف داخل حمامات خاصة ساخنة ثم تكبس زمناً كافياً قبل التجفيف . ٥) تربية دود القز وحل شرايقه ، والمشهور فيها ريف اللاذقية الذي يحل الحرير على الطريقة القديمة ، على أن الطريقة الحديثة انتشرت في أنحاء حمص التي يسمى حريرها بالحرير الافرنجي الذي نال الدرجة الاولى في بعض المعارض الدولية . ويوزع الحرير الطبيعي على النساء في قرى حمص ودمشق لغرضه وتحويله إلى نوع من الشلل يسمى « الشمط » . ٦) صناعة الزجاج بالنفخ وهي صناعة قديمة ولا تزال على الطرائق القديمة . وهي ذات منتوج رائع في القرى رغم مزاحمة الزجاج الاجنبي ورغم وجود المعمل الحديث الذي أنشئ أخيراً في سورية . وهناك صناعات ريفية أخرى كصنع أحجار الطواحين والمهايج والعلب الخشبية لحفظ المؤونة والبهارات . . . ثم دنع الجلود وصنع الترايش للتراجيل . . . قد تأتي كلها في الدرجة الثانية ولا مجال إلى ذكرها . على أنها مع ذلك تبقى أشياء طريفة تثير حب الاطلاع .

الصفات الاجتماعية والنفسية :

تبدو دراسة النواحي الاجتماعية والنفسية أكثر صعوبة من النواحي البيولوجية والايكولوجية ، لأن هذه يمكن دراستها في أشياء مادية ملموسة كالمسكن واللباس أو حوادث موضوعية كالبنادر والحصاد ، بينما الحوادث الاجتماعية النفسية يصعب دراستها في داخلات الافراد الريفيين . ١٠) اعدام وجود مؤلفات ريفية كتبها الريفيون أنفسهم ، وإذا حدث نوع من ذلك فيخشى أن يكون فاسداً بعقده النقص التي تلازم الريفي حين يخفي بعض النواحي من ريفه يعتبرها من النوع البدائي وهي التي تهتمنا أكثر من سواها ، فلا يعمد إلا

إلى إظهار ما هو جديد جداً بالاقتراب من أهل الحضرة في هذا الجديد .
 (٢) لا يمكن الاكتفاء بنصوص القرآن الكريم والكتب الدينية والقوانين
 العثمانية لأن المجتمع العربي بنوعيه الحضري والريفي يبقى متأثراً بعوامل أخرى
 عملية . فالمدن الكبرى من جهة تتأثر بالثشربعات الحديثة وتتطور باستمرار مع
 المقبسات الغربية ، والارياف من جهة أخرى تتأثر بالتقاليد الابتدائية وتتطور
 مع العرف والمادة تطورا جزئيا ولا سيما الارياف المتطرفة التي تذكرنا بمهود
 الجاهلية الاولى (٣) لعدم وجود مؤلفات ريفية كتبها المدنيون بمد اختصاص
 طويل الأمد ، إذ ينبغي أن يعيش العالم المتخصص طوال حياته في المحيط الريفي
 ومنذ الطفولة إذا أمكن ، لتفهم أعماق الحياة الريفية . والمؤلفات التي صدرت
 من هذا النوع نادرة (١) .

مع ذلك لا يخلو الريف دائما من بعض المستندات العلمية التي يمكن الاعتماد
 عليها في البحث كالأغاني والامثال والتقاليد والمعتقدات المشتركة مما سوف نلجأ
 إليه في دراسة الأسرة والحياة العائلية والحياة القروية والطقوس الدينية .

الأسرة (٢) : يسود الحياة القروية أولوية الأسرة . ولا شك أن الأسرة تشكل
 في جميع البلاد وفي جميع الحضارات الأساس السيلوجي للمجتمعات إلا أننا نجد
 ما ينافيها على هذه المكانة في المناطق الأخرى . أما هنا فتسود الأسرة وحدها

(١) يذكر Weuleresse من هذه المؤلفات أطروحتي الدكتورين شاتلا وداغستاني .

Chatila (Khaled) : Le mariage chez les musulmans en Syrie .

Daghestani (Kazem) : Etude sociologique sur la famille ...

(٢) أعاني في ترجمة الفقرات التالية حتى آخر البحث ، الطالبان في كلية التربية السيدان

ناظم الطحان ومهران بجي ، وذلك عن كتاب Weuleresse المذكور سابقاً .

تقريباً . ولا وجود للنزعة الفردية ، ولا يعرف الناس ظاهرة الفرد المنزول بل وجود العائلة وفي سبيلها . والأطر العليا التي توجد فوقها عاجزة : فعدم وجود الدولة وغياب الوطن سمتان بارزتان في القرية . ولما كان الفلاح السوري لا يعيش من أجل نفسه ولا في سبيل كائنات تسمو عليه فهو يركز جميع قواه العاطفية والفكرية على عائلته الخاصة . وهي بالنسبة إليه وجوده ذاته ووطنه . والعاطفة العائلية بالنظر لوحدانيتها تنقلب إلى هوى يحتاج جميع ملكات النفس . ومن جهة أخرى فإن عالم الفلاح محدود ضيق شاق مما يجعل الأسرة عقيدة بلجاً إليها وعن طريقها يحاول تجاوز ذاته والاستمرار إلى ما بعد الموت ، فهي الخلد بالنسبة إليه . والقانون الوحيد الذي يخضع له في أعماق نفسه والذي لا يعرف الاعراب عنه هو أنه أخذ الحياة من غيره وعليه بدوره أن يعطها في ذلك تكمن عظمته ويقوم المبرر لوجوده . مما يتيح لنا أن نفهم كيف نجحت الحياة القروية في البقاء عنيدة متصلة حتى تخوم الصحراء نفسها في فيافي مكشوفة لجميع نكبات التاريخ ومعرضة لجميع مصائب الفصول . والتناسل في سبيل التكاثر ، هذه ميزة من ميزات الحضارات السامية .

فما هي الوحدة العائلية التي يحيا من أجلها الفلاح ؟ إن كلمة الأسرة الغامضة تدل في الواقع على أشياء مختلفة لذلك ينبغي أن نميز أنواعاً مختلفة من الأسر كالأسرة الزوجية التي تقتصر على الزوجين والاولاد ، ثم « الأسرة الأبوية » حيث يحتفظ الأب بالسلطة حتى مماته على جميع ذريته مهما كان سنهم ، ثم « الأسرة القبلية » حيث تتسع روابط الدم لتساعاً كبيراً وتبقى هذه الروابط حية فعالة يرجوعها إلى سلف مشترك .

والأسرة الأولى أي « الأسرة الزوجية » وهي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الغربي ، لا تلعب إلا دوراً اجتماعياً ضئيلاً عند الفلاح الشرقي إذ

لا يشكل بنظره الزوجان المنعزلان أسرة ولا بتصورها إلا مندمجين في الأسرة الأبوية التي تشكل في الوقت نفسه الوحدة الأساسية للاستثمار. ويظل الأب السيد الأوحد في أسرته ، سواء أكان ملاكاً حقيراً أم مستأجراً ، وتلاشى الأسر الصغيرة التي تنتج بن زواج فروعه تحت سلطته فتساكنه وتعمل تحت إشرافه . ولما كانت الزيجات تتم في سن مبكرة جداً فليس من النادر أن يجتمع ثلاثة أو أربعة أجيال تحت سقف واحد وأن يظل استثمار الأراضي مشتركاً والجميع يشكلون بيتاً واحداً .

وليست هذه الحال بعيدة مع ذلك عن الاعراف الغربية القديمة إذا أمعنا النظر فيها . فالجماعات الريفية المجتمعة حول المواعد كانت تطبق نظام التضامن العائلي ذاته وتبعية الشباب بالنسبة للشيوخ ذاتها . وكانت ضرورات استثمار الأراضي تتطلب مثل هذا التضامن .

وبعكس ذلك فإن الأسرة القبلية شرقية من حيث نوعيتها وليست من أصل زراعي . بل ترتبط بأعراف البدو الرحل . في الحقيقة أن الخطر في الصحراء دائم ومنتشر في كل مكان ، والبحث عن الأمن يجبر الأسر الأبوية المختلفة التي تربط بينها وشائج القرابي أن تظل متحدة في سبيل الدفاع المشترك . والنظام في الصحراء يعتمد على تسلسل دقيق للدرجات القرابية الدموية ، وهكذا يؤول بنا الأمر إلى العشيرة التي قد تمتد إلى الدرجة العاشرة من القرابة وتزداد بالتبني والولاء حتى يبلغ عددها عدة مئات من الأفراد .

وقد نتج هذا البناء ذو النسق السياسي ، عن حياة الترحال واستعد بقاءه منها . فهو لا يتلاءم إلا بصعوبة مع الحياة الحضرية ومع مستلزمات العمل في الأرض وروحه . ومع ذلك فقد بقي هذا التنظيم راهناً بدرجات متفاوتة في المناطق التي لا تزال الروح البدوية سائدة فيها وخاصة في حوران والجزيرة ،

وكذلك بصيغ مختلفة في الاقاليم التي تتصف بالاضطراب الدوري وهي اقاليم ذات بنية اجتماعية ابتدائية كما في جبال العلويين والدروز والاكراد . وأخيراً لقد بقي تصويره في الازدهان رغم تعديله في المدن ، لدى الطبقة الارستقراطية على الاقل ، ولم تقم الاسر المدنية الكبرى في الحقيقة على مبادئ أخرى ، بل بقي التضامن بين مختلف الجماعات التي تربط بينها صلة القربى عن طريق الاعترار بالاصل (بمعنى نسب العائلة) يصونه نظام الزواج الداخلي الذي تتفاوت الاسر في التقيد به . وعلمنا أن نلاحظ بأن أحدث قانون للاحوال الشخصية في سورية يأمر باحترام مبدأ الكفاءة الاجتماعية في الزواج وكل زواج يتم خلافاً لهذا المبدأ يعتبر مخالفاً قانونية . وينجم عن ذلك غالباً أنه قلما يمكن الزواج إلا بين أبناء العمومة المتباعدين . وقد استمر هذا البناء الارستقراطي من الناحية الاقتصادية خلال العصور بفضل تطبيق النظام الذي أشرنا اليه وهذا النظام يحرم تقسيم الاراضي . وكل بيت من هذه البيوت بالمعنى الشبه الاقطاعي للكلمة، يملك أملاكاً جماعية واسعة يؤدي تقسيمها لخراب العائلة . وإن عدد أفراد الاسرة وتعاظم والثروة العقارية والاتباع من المدينة والقرية والدور السياسي والامساك بزمام الحكومة المحلية كل هذه العوامل تتضافر بصورة متبادلة .

إن اطار الحياة القروية أقل طموحاً فهو يقتصر على العائلة الابوية الضيقة التي تعيش في بيت واحد وتستثمر أرضاً واحدة تحت السلطة الابوية . ولا أهمية هنا إلا للرجل ، والزواج بالنسبة للنساء يبقى انفصالياً كلياً عن أسرة الطفولة . فالزوجات يتبعن أزواجهن إلى بيوتهم . وتبدو فكرة عيش الصهر مع عمه تحت سقف واحد لكثير من السوريين عاراً ومخالفة لآداب اللياقة . ولا يحصل الانفصال إلى أسر زوجية منفردة إلا في طرفي العالم القروي : (١) في الاوساط المتطورة كل التطور . مثال ذلك ما نجده في بعض المناطق من لبنان حيث تطالب

الاسر الفرعية باستقلالها . ٢) عند أنعس سكان الداخل في قرى المستأجرين
« العمال الزراعيين » إذ قلما يعد الفلاحون بعد أولادهم وزوجاتهم ، شيئاً آخر
غير حيواناتهم ولا يمكن للحياة العائلية هنا أن تتجاوز الزوجين والاولاد .

وتشكل العائلة الابوية عماداً متيناً للحياة القروية ، وفي سبيلها يضحي المرء
بحياته مع بقاء الأب متمتعاً بجميع الصلاحيات العائلية . وما يزال الأب في
الصحراء حتى اليوم يتمتع بحق القضاء بالموت أو الحياة على أولاده . فalcضاء
العائلي هنا هو القضاء الوحيد على الدوام . ولقد ضعف هذا الحق في الارياض
إلا أنه لم يزل باقياً وخاصة عندما يتعلق الأمر بشرف الاسرة (مثال ذلك عندما
تنساق الفتاة مع رغباتها الجنسية أو تخون الزوجة زوجها) . وفي مثل هذه
الحالات غالباً ما تطبق العادات القديمة بصرامة يؤيدها الرأي العام مع تساهل
السلطة المحلية . ولا تجرد السلطة الابوية نفسها مضطرة المدافع عن نفسها ، إذ
ليس هناك من يتعرض لها بشيء ، والتنظيم الاقتصادي يدعمها . والأب هو المالك
الوحيد للأراضي ولا يملك أولاده شيئاً ولو تجاوز سنهم الخمسين أو أضحوا آباء
أو أجداداً . وكل نزاع مع الأب يردم إلى حالة يضطرون معها إلى استجداء خبزهم
وسوف نرى كيف أن نظام الزواج يقوي سلطة الأهل .

أما المرأة فلا تحصل على السلطة إلا مع الزمن . وما دامت زوجة شابة فهي
خاضعة لرغبات زوجها ورغبات حمايتها في آن واحد . ولا يتوطد مركزها في
الاسرة إلا عندما تصبح أما « أم أبناء ذكور خاصة » . وتسمى القرويات بصورة
عامة باسم أبناءهن البكور مثال ذلك أم علي وأم أحمد الخ . . . وهذه العادة
تكشف لنا دور المرأة الاساسي في المنزل القروي وهذا الدور هو أن تضع
أولاداً تستمر بهم السلالة العائلية . وإذا كان دور الأم الاجتماعي يأتي بعد
أبنائها فهو لا يعاملونها بكثير من الاحترام . وعددهم يضمن لها مركز الشرف

في المنزل العائلي . وإذا فرضنا أن الأمور الأخرى جميعها متساوية في الشرق والغرب فإن مصير الشيوخ في الأرياف الشرقية خير من مصير الشيوخ في الغرب . ورب قائل يقول أن هناك نظام تعدد الزوجات ولكل مسلم الحق كما نعلم بأربع زوجات شرعيات . إن هذا النظام إذا بقي حتى الآن مشروعاً من الناحية القانونية فهو من الناحية العملية يسير في طريق الزوال . ويساهم التطور الاجتماعي والاقتصادي في الوصول إلى هذه النتيجة لأن الأفكار الجديدة والأعراف الحديثة تجعل إعالة عدة زوجات في البيت يكلف نفقات باهظة جداً . وارتفاع كلفة الجهاز المستمر يمنع في الواقع معظم الناس من الافتتان بزوجة ثانية . أما في المدن فنظام تعدد الزوجات قد زال تماماً من المجتمع البورجوازي ولم يبق إلا عند سواد الناس حيث ترتفع نسبة الطلاق بسبب تساهل قضاة الشرع في ذلك .

ولا تستطيع الاكثية العظمى من الفلاحين — مستأجرين كانوا أم ملاكين صغاراً — دفع نفقات إعالة عدة زوجات ولا يتخذون زوجة ثانية إلا عندما تشيخ الزوجة الأولى أو يقعدها المرض عن أداء واجباتها المنزلية فتأتي الزوجة الثانية حينئذ — وهي أصغر منها — تسد مسدها ، والقضية هنا تتعلق بضرورة منزلية وغالباً ما تطلب الزوجة الأولى بنفسها تخفيف أعبائها .

ونظام تعدد الزوجات الشرقي كما تخيله الغربيون — كنظام يرضي المرء ورغبته في الأبهة — قلما يوجد في الريف ولا نجده إلا في البادية عند شيوخ البدو حيث يظل ضرورة سياسية ، إذ على روابط الدم أن تؤيد كل معاهدة تعقد بين القبائل . وما يزال هذا النظام حياً عند كبار الريفيين وصغار الأشراف الذين لم يسهم التطور المدني بعد (وتقوم قوتهم على ذريتهم الكثيرة) والذين يستطيعون إعالة زوجتين أو أكثر . وكل قروي يستطيع الخروج من طبقة الفلاحين يصبح مرشحاً لانتخاب عدة زوجات وهذه علامة لنجاحه في أعماله .

ونجد نظام تعدد الزوجات أيضاً عند أصحاب النفوذ الحاليين كالشيوخ والاعوات وخاصة في المجتمعات ذات البنية القديمة كزعماء العلويين وزعماء الاكراد . وإذا وضعنا هذه الامور الاستثنائية جانباً يمكننا أن نؤكد أن المجتمع الريفي السوري مبني عملياً على نظام الزوجية الواحدة .

على أن هذا النظام يختلف إلى حد ما عن نظام الغرب . إذ أن الزواج ، وهو الحدث العائلي الاكبر ، يظل أمراً يخص الاسرة أكثر مما يخص الخطابين فلا يستشار البنات في هذا الامر مطلقاً وقلماً يؤخذ رأي الشباب أيضاً . أما متوسط سن الزواج فالزيجات تتم دوماً في سن مبكرة ، ويعتبر قضاء الشرع سن التاسعة سناً مشروعة لزواج البنات إلا أن هذه السن قد أرجئت عملياً إلى سن (١٢ - ١٤) . ويتم زواج الذكور في سن تتراوح بين (١٤ - ١٧) ومن العار على المرء وعلى أسرته أن يبقى عازباً حتى العشرين من عمره ولهذا لا تصادف عازبين مطلقاً في هذه السن . وطبيعي أن زيجات الاطفال أو المراهقين هذه لا يمكن أن تقوم على مبدأ الاختيار الحر .

وإن عادة دفع المهر تقوي سلطة الابوين أيضاً . ويرجع أصل هذه العادة المطبقة منذ آلاف السنين دون شك ، إلى عرب الجاهلية . إذ يجب أن يدفع الخاطب ثمن خطيبته إلى والدها ويختلف هذا الثمن تبعاً لمنزلتها الاجتماعية ودرجة جمالها . ويمكن للمهر أن يشكل ثروة حقيقية في المدن وخاصة لدى أسر الوجهاء . ويدفع المهر في الريف بالليرات الذهبية دوماً يضاف إلى ذلك أحياناً قطع من الماشية أو بعض الاشياء المادية . ولهذا يبقى المهر عبئاً ثقيلاً على كاهل القروي الذي يتخبط في الشقاء ويعيش في عوز مزمن للنقود . أما كيفية اتفاق هذا المهر فيصرف قسم منه في تجهيز العروس وتأثيث البيت ويبقى القسم الاعظم منه في حوزة أب العروس . وهكذا يشكل الجدل حول المهر أعقد مرحلة في مفاوضات

الزواج مما يبين لنا جيداً كيف أن الطرف الرئيسي الذي يعنيه الامر ونقصد بذلك (العريس) لا يتدخل في هذا الموضوع ما دام لا يملك فلساً واحداً .

وخلافاً للوضع في المدن فإن الخاطبين يعرفان بعضها بعضاً إذ لا حجاب في الريف وغالباً ما لعبا في طفولتهما معاً ، في الحقول أو في شوارع القرية ، وتلاقياً مراراً قرب العين أو البئر . وإذن لا يحجل الريفيون الحب فهذه القصائد الغرامية تشكل صلب الفولكلور والاغاني الريفية . مع ذلك قلما يجزأ الحب على انتهاك سلطة الاسرة بشكل سافر . وخطف البنات أمر شاذ ، وإن اعترف به على أنه حق عرفي فهو يستدعي تدخل أولي الامر قبل اللجوء إلى إمالة الدم ، لأن الشرف يقضي أن يثار المراء من العار الذي لحق به من جراء هذه الحادثة وقبل أن ينقلب الحادث الغرامي إلى شجار سياسي بين أنصار الاسرتين وأتباعها فيقيس بذلك كل منها قوته ، لذلك يصبح هذا الحادث في بعض الحالات أمراً هاماً يشغل الدولة . وقد ازدهرت حول الزواج والمهر مجموعة من العادات المدهشة : ومن أكثر هذه العادات انتشاراً تمتع ابن العم بحق الشفعة على ابنة عمه وإذا تنازل عن هذا الحق كان له أن يطلب عن تنازله عوضاً . وهكذا تكون بنت العم مورد رزق مضمون لابن عمها الذي يفار بشدة على هذا الامتياز . وعدا ذلك فإن القرويين الفقراء يطبقون عادة الزواج بالتبادل « البديلة » بنت مقابل بنت ، بين أسرتين تخلصاً من دفع المهر . والأب في حوران كثيراً ما يسمي لكل من أبنائه هذه أو تلك من أخواته بأنها ستكون بمثابة مهر يقدمه لزواجه وحينئذ يدعوها هذا الأخ « ببديليتي » .

إن عقد الزواج مهمة عائلية محضة يرجع الدور الاول فيها إلى ممثلي الاسرتين أو الوكيلين . فبعد أن تذكر شروط الزواج أمام الشهود (أي مقدار المهر) يضع أحد الوكيلين يده في يد الآخر بعد أن تغطي الايدي بمنديل ثم يقرأ الشيخ

الفاتحة ، وتم بذلك مراسم العقد . وقد يدعى الشيخ أحياناً إلى كتابة نص العقد إلا أن هذا لا يحدث إلا بين القرويين الميسورين وفي المناطق المتطورة . وقد تنقضي في المدن فترة طويلة أو قصيرة بين العقد والزفاف بينما تقام في الأرياف حفلة العرس فوراً . وبعد أن تخضب العروس وتزين بأجمل وأتمن ما عندها تقاد في احتفال مهيب إلى بيت زوجها راكبة على دابة أو فرس إن أمكن، يتبعها جهازها الذي يطاف به في أنحاء القرية كي تبهر أنظار الجيران . وقبل أن تدخل العروس إلى منزلها الجديد تبادر إلى لصق قطعة من الخيرة على جانب باب غرفتها . ولا تأويل لهذه العادة يمكن الركون إليه نظراً لكثرة التأويلات : فهل تكون هذه الحركة رمزاً للأمانة الزوجية ؟ أم أنها حركة تبشر بالغنى وكثرة الذرية ؟ أم هي إعلان لبكارة العروس ؟ إنها عادة قديمة من عادات الساميين هجرها الناس الآن . إلا أنهم أبقوا على الولائم التي تتناسب مع ثروة العريس إذ يظل يوم الزواج يوماً اجتماعياً مشهوراً في تاريخ حياة الأسرة القروية .

على أنه يجب أن لا تحملنا هذه التفاصيل الشائنة على اغفال المغزى العميق لزواج الفلاح المسلم . وليس هذا الزواج حادثاً دينياً ، ولا يتدخل فيه الدين إلا عرضاً ولا يشبه الزواج المسيحي في شيء . وليس هذا الحادث أمراً يهم الدولة فهي غافلة عنه رغم أن القانون يوجب أن يتم عقد الزواج بحضور القاضي أو من ينوب منابه كما يوجب تسجيل العقد في المحكمة الشرعية في مركز القضاء ولا يطبق أي من هذه الترتيبات في الأرياف بوجه عام . كما أن هذا الحادث ليس حادثاً فردياً قلماً يستشار الذي يعنيه الأمر في ذلك : إنه حادث عائلي ذو طابع خاص جداً . وإذا كان الزواج يعني في الغرب معاهدة بين أسرتين فهو لا ينطوي في الشرق على معنى من هذا النوع ما دامت الزوجة تقطع علاقاتها مع بيتها القديم . ويعني الزواج بالنسبة إليها انقطاعاً تاماً مع ما ضيها وتاريخاً فاصلاً في حياتها . إنه

شبه شراء للمرأة تقوم به الأسرة وتؤمن عن طريقه بقاءها . فالأسرة تفاوض وتدفع المهر وتأمّر ويجب أن يضحي المرء في سبيل هذا الناموس الاكبر بكل ما يسمى بالتفضيل الشخصي أو الميل أو الحب .

الحياة العائلية : يستقبل الاطفال بالترحاب في البيت القروي . وليس هناك أي منع للولادات . ويقول المثل « من خلف ما مات » . تقول أطفالاً ونقصد بذلك الاطفال الذكور إذ لا يحسب للبنات أي حساب ، لأنهن مهملات في نظر الرهط العائلي . قد يقول لك أب ليس لي إلا ولدان بينما يكون له ٤ أو ٥ بنات أيضاً . ويعامل الصبي معاملة حسنة حتى لدى الطبقات الفقيرة وقد يبلغ الفلاح في هذا الحب لأن الطفل يفعل ما يحلو له ، وإذا ضرب عقاباً له بدا ذلك في نظر الفلاح قسوة ذميمة رغم أنه يضرب زوجته ويفتخر بذلك . ولكن فردوس الطفولة هذا سرعان ما يزول فمِنذ الخامسة أو السادسة من العمر يضطلع البنات الصغار بالمسؤوليات المنزلية لمساعدة أمهاتهن ومراقبة الصغار والعناية بهم ، كما أن الصبيان منذ السابعة أو الثامنة يشتركون بأعمال الاستثمار والعناية بالماشية وبذلك تنتهي الفترة التي كانوا فيها سادة الكون البررة المرسلين من عند الله .

ومع ذلك لا توزع الاعمال بالعدل بين الجنسين . فلا يعرف الطفل الصغير إلا المداعبة والملاطفة ولا يذهب إلى المدرسة ، بصورة عامة ، خلا بضع ساعات يتردد أثنائها على الكتّاب . وإذا كان في قرية كبيرة يعيش مع أترابه حياة صغار الرعاة الحرة التي ترجح فيها فاعلية اللعب على العمل بالمعنى الصحيح . وربما دامت هذه الحال حتى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . وعند سن البلوغ ينتقل الطفل فجأة من عالم الطفولة إلى عالم آخر . فقد يخطب قبل أن يصبح راشداً ولا تمضي سنتان أو ثلاث حتى يصبح أباً : إن حياة الفلاح السوري كالقلم السوري لا تعرف الفصول المعتدلة فهي تنتقل من الطفولة إلى الرشد دون مرحلة انتقال

والمراقة فيها قصيرة قصر الربيع في هذه البلاد .

ويظل الفلاح الشاب خاضعاً لأبيه وإن كان متزوجاً وربما للأسرة ولا يتدخل في إدارة الاستثمار إلا تدريجاً وتختلف مهامه باختلاف المناطق : إنها لفارقة غريبة أن يقل العمل تبعاً لدرجة مقر الفلاح ، ففي مناطق زراعة الجيوب زراعة واسعة لا تتطلب إلا قليلاً من العناية وتتألف السنة الزراعية من أوقات فراغ طويلة خلا بضعة أسابيع يقوم خلالها بالعمل في المعاصر . والمثل الأعلى للبديوي المتنقل يجعل من الكسل قاعدة : « المرأة للعمل والرجل للحرب » وفي حالة السلم لا يعمل الفلاح شيئاً ويقضي الوقت في الثروة والمناقشة ، والاحلام والنوم في أشعة الشمس وظلال الجدران .

وتنعكس الحالة بالنسبة للقروية : فهي مرغمة دوماً على تأمين الحياة اليومية في أشد الظروف قسوة : والماء والنار هما عملا السخرة الجسيمة اللذان يتجددان كل يوم . أما الماء فهو بعيد المآل ينبغي نقله من العين التي تكون وحيدة في غالب الأحيان ، أو من البئر واستخراج الماء منه أكثر صعوبة أيضاً ، ونستطيع أن نستعرض ، صباح مساء ، صفوفاً طويلة من النساء والصبايا يحملن على رؤوسهن الجرار أو التناكات ، كما أن تأمين الوقود للعائلة عمل مرهق جداً لأن الخشب نادر الوجود وعليهن الذهاب إلى الحرج أو إلى الادغال المجاورة لجمعه ونقله على ظهورهن إلى القرية . وتستطيع أن تصادف إن شئت على منعطفات الطرق هذه الاحمال المكونة من الاغصان والشجيرات الشوكية تحملها نساء تكاد لا تراهن من كثرة انحنائهن تحت حملهن . وهذا العمل يصبح شاقاً أكثر في السهوب إذ تقتلع النساء كل ما يصلح أن يكون وقوداً كالأشواك والجذور ، وعليهن اللجوء أخيراً إلى « الجلة » وهي عبارة عن روث البقر ممزوجاً بالتبن ومجففاً على الجدران . وبعد تهيئة الماء والنار يأتي طهي الطعام وطحن القمح والبرغل وهذا العمل

سخرة لا تنتهي لانها تتجدد كل يوم مع اعداد الخبز اليومي . والطعام يهياً للرجال فقط لأنهم يأكلون وحدهم أولاً وتقوم النساء بخدمتهم على المائدة وما يتبقى عنهم تنقسمه النساء مع أولادهن . يضاف إلى ذلك العناية بالأولاد ومشاق الحمل والولادة المتكررة إلى أن تصبح القروية عجوزاً . وسرعان ما تشيخ الفلاحة إذ تدخل سن الشيخوخة في الأربعين من عمرها . وعلى النساء أيضاً القيام بأعمال المزرعة والعناية بالماشية كتنظيفها واسقائها واطعامها وصنع اللبن والقريشة والجبن والسمن . أما في المناطق التي هي أكثر ازدهاراً فتخف درجة التفاوت بين الجنسين إذ يزداد عمل الرجل ويقل عمل النساء ، وتستطيع المرأة أن تستخدم حملاً يساعدها في نقل الحطب والماء ويقوم الفلاح بطحن القمح في الطاحون ... ولا تكون المرأة وحيدة في المنزل . على أن المرأة تساهم هنا مساهمة أكثر في أعمال الزراعة فهي تشترك في قلع الاعشاب وفي البذار والحصاد وقطف الزيتون والقطن ، وتزداد أعباؤها في إدارة المنزل وشئون الاستثمار فتبيع منتوجات الدواجن لحسابها الخاص ومنتوجات البساتين التي تعتي بها ، ويزداد جهازها الشخصي فتقتني الاثواب الفاخرة من المخمل المطرز وتلبس الحلي من الفضة والذهب .

ومع ذلك تبقى المرأة أنى وجدت في الريف السوري في المرتبة الثانية . يشهد بذلك ألوف من الوقائع : إذ تظل المرأة واقفة أمام الرجال الجالسين ولا تجرأ على التفوه بكلمة واحدة أمام إنسان غريب وحصتها من الميراث نصف حصة الذكر . ولا وجود لها البتة في عدد كبير من المناطق . إنها جاهلة جهلاً تاماً مطبقاً وقلما تقوم بشمائها الدينية اللهم إلا إذا علمتها والدتها « سورة الفاتحة » والقانون الوحيد الذي تعلمه هو أن تحافظ على شرفها وعرضها . فشرف الفتاة هو الذي يبرر وجودها وهو الذي يحفظ للمرأة مركزها في البيت الأبوي وفي

البيت الزوجي وفقدان هذا الشرف يجلب عليها العار والطرْد وحتى الموت بذاته . وهذا المركز المتواضع الذي تتبوأه المرأة ، يدلنا أنها ما تزال بعيدة عن التساوي مع الرجل الذي يسود الأسرة سيادة الرئيس للرؤوس . ويظل ما تفكر به المرأة القروية سرّاً مغلقاً : إنها الشخصية الخرساء الكبيرة في الأرياف الشرقية .

القرية : لا يعرف القروي التضامن خارج أسرته إلا مع قبيلته أو قريته . وفي الحالة الأولى تبقى طبيعة الروابط متماثلة وترتكز على قرابة الدم . أما في الحالة الثانية أي بظهور القرية فيظهر مدلول جديد هو مدلول المجموعة الجغرافية . والقرية النموذجية ، قرية أهل الحضر القديمة عبارة عن مجموعة عضوية معقدة . إذ تؤلف الاسر المختلفة المستقلة التي تشكلها « كلاً » يظل موحداً عن طريق مجموعه الارض « الحقل » .

تلك هي المجموعة التي ظلت كلية مدة طويلة والتي يمكن أن تدوم في حالة القرى المشاعية ويكون جميع سكانها متضامنين . نرى ذلك جيداً حين اتهدد القرية ، سواء نزاع حول مرعى مع القرويين المجاورين أو حول قطعان سُرقت أو امرأة خُطفت ، أو كانت الواجب يقضي مقاومة الملاك الكبير أو جاني الضرائب . في هذه الاحوال سرعان ما يتكتل الجميع . ويجب أن نعرف أن هذا التفاهم بين القرويين هو تفاهم سري ، عنيد قد تعجز الدولة نفسها حياله .

أما رئيس القرية فهو المختار وهو منتخب نظرياً إلا أن انتخابه يتم في الواقع تحت رقابة السلطات العليا . وهو يمسك سجلات الاحوال المدنية بصورة تتفاوت في درجة ضبطها ، ويؤمن الجباية ويستقبل من يمر بقريته ، ويمثل القرية أمام الحكومة . وهو مسؤول عن تطبيق النظام في القرية ، وعليه أن يذهب بنفسه إلى مدير الناحية في المركز من أجل أبسط المسائل . وتضاف إلى مهمته الادارية الداخلية مهمة توزيع الضرائب وأعمال السخرة على سكان القرية الخ ..

ويؤازره في ذلك بعض المستنيرين وغالباً ما يؤازره شيخ الناحية . وتعتبر القرية مسؤولة بالتضامن في حالة الاضطرابات وترفع أمانى السكان إلى السلطات العليا باسم القرية كلها ويعبر عن هذه الاماني بمرائض « مضابط » تلعب دوراً كبيراً في الحياة السياسية للبلاد .

تتألف مجموعة القرية من نسيج من الصداقات والاحقاد ولكل واحدة منها أحزابها . وليست هذه الاحزاب أحزاب عقائدية طبعاً بل أحزاب أشخاص فلعل عشيرة منهاج يقوم على مبدأ حل العشيرة محل العشيرة المعادية لها ، ويكون انتقاء المختار وهو الذي يمثل القرويين أمام السلطات ويمثل السلطات أمام الفلاحين ، أمراً مهماً في هذا التناحر على النفوذ .

الدين : أي دور يوكل للدين في حياة الفلاح ؟ من الصعب أن لا ننقل هنا مرة أخرى إلى الغرب لنبدد بعض الاوهام الشائعة عن الشرق . غالباً ما نردد أن الشرق هو المحيط الكلاسيكي للأديان ، وأن كل حياة اجتماعية وكل حياة فكرية تجري في قالب من المعتقدات الدينية . هذا صحيح لا شك فيه ولكن الوهم يتبدد عندما نتأمل حياة الفلاحين الواقعية ونرى الدين سطوحيّاً . فالفلاح يجهل الشيء الكثير عن الاسلام . ويظل القرآن الكريم بالنسبة اليه أمراً يعلمو على فهمه ولو أنه تعلم عن طريق الصدفة بعض الآيات في طفولته الاولى . أما بالنسبة للنساء فإن الجهل أعم . والمساجد الريفية نادرة ولا يرتادها الفلاحون إلا قليلاً ولا يجد فيها الفلاح مرشداً أو معلماً . وإذا تركنا الحج جانباً فنادر ما تقام الصلوات الخمس يومياً ، أما صوم رمضان فيراعى أكثر من غيره لأنه استثنائي ولأن الرقابة الاجتماعية تؤيده .

والأمر أدعى من ذلك أيضاً إذا جاهدنا في النفوذ إلى النفوس إذ نجد الاضطراب ذاته : إننا نجد لدى الجميع : لدى الفلاحين المسلمين والفلاحين

المسيحيين أو الدروز أو العلويين نفس المعتقدات وراء أديانهم الشككية ، وهذه المعتقدات مستمدة من منبع قديم قبل الاسلام وقبل المسيحية ويرجع إلى أصول التاريخ ذاتها : إنها عبارة عن الايمان بالارواح التي تسكن الارض والسماء وبالجن من ذكر وأنثى . وهذه الارواح مخلوقات روحية سابقة لوجود الانسان منها الصالح ومنها الشرير . يضاف إلى ذلك الاعتقاد بالعين « الصائبة » التي ينبغي مكافحتها بواسطة كف تبسط أصابعه... إنها اعتقادات بالطلسم والسحر والخرزة الزرقاء وحجر الشبة الذي يحمله الاطفال دون استثناء... إنها اعتقادات زراعية قديمة حول خصوبة الحقول والفصول التي تتجلى في طقوس قديمة قدم التوراة كترك سنابل القمح دون حصاد وذر الحبوب في الفضاء (١) .

وقديسو الشرق هم زملاء الاولياء : يأويهم نفس المزار الذي هو عبارة عن مكعب من الحجارة تعلوه قبة مبيضة بالكلس ، ولا يختلف عن الزيارة المغربية إلا بالاسم . ويسمى هنا « مزاراً » أو مقام الولي . وأصلها واحد : إما أن يكون بقايا قديس حقيقي ذاع صيته كناسك أو عالم ، وإما أن يكون شخصية مفترضة اتخذت بعد ذلك مسحة دينية . وهنا على مقربة من الولي وفي المزار يشعر الفلاح بارتياح كما لو كان في المسجد ، وإلى الولي أو القديس ترفع الصلوات الشخصية وعلى شرفه يحرق البخور واليه يتوسل الناس في حالة الضيق الفردي أو المرض أو الجراد أو الفحط ، وباسمه تقسم الأيمان . وهو أكثر من ذلك بالنسبة للنساء اللواتي يستسلمن لعبادته ويودعنها أعمق رغائبهن كالرغبة في عريس أو مولود ذكر . وهذه العبادة المحلية ذات القدرة القدسية يسمح بها للجميع

(١) عندما تحصد في أرضك عليك أن تترك جانباً من الحقل بدون حصاد ، عليك أن لا تجمع السنابل المنتثرة . عليك أن تترك ذلك للفقير والغريب .

من مسلمين ومسيحيين وفيها يتلاقون ويسيرون جنباً إلى جنب . وهناك صفات مماثلة تطبع الاعياد القروية بطابع مشترك ، خصصت لهذا القديس أو ذاك من الجوار جعله الفلاحون ملكاً لهم . وفي التاريخ التقليدي ينتقل جميع سكان الريف إلى المزار ، وهو أكبر يوم اجتماعي في الحياة الريفية . ولا تهمل العبادات فيه بل يبدأ الاحتفال بها ، ولكنهم يستسلمون بعدها بكليتهم لفرح نادر طوال اليوم كمعطلة تسود فيها الحرية والحماسة الانسانية . مثال ذلك عيد السيدة في صيدنايا الذي يشترك فيه اللبنانيون والسوريون على السواء .

وأكبر لذة عندهم هي الرقص أي الدبكة الكلاسيكية الشائنة في جميع الأرجاء في الشرق الأدنى : وهي عبارة عن رقص بسيط يناسب الفلاحين ، رقص موزون يجري على شكل دائرة تحيط بالموسيقين . يأخذ الراقصون والراقصات فيه بأيدي بعضهم بعضاً وتتشابك المرافق وتلتحم الاجسام بصورة يتموج معها هذا الصف البشري ويتأرجح ذات اليمين وذات الشمال على إيقاع الموسيقى والاقدام والاهازيج بأن واحد . ويكون الجنسان على العموم فيها منفصلين ، ويقود حلبة الرقص أمهر الراقصين ويضي عليه الحيوية عن طريق قفزات ووثبات خشنه تنتزع أصوات إعجاب الحاضرين . وتهدأ دائرة الرقص شيئاً فشيئاً حتى تنتهي بفتيات صغيرات تتراوح أعمارهن بين السادسة والسابعة يحاولن إدراك الإيقاع بشكل آخرق . أما الاوركسترا فهي ريفية كالرقص أيضاً وتتألف من طبل رتيب الصوت ومن مزمار واحد أو اثنين من الخشب أو من ناي من قصب شائع عند الرعاة . ويشكل النظارة حول الدبكة دائرة ويعربون عن الإيقاع بالتصفيق وهم يرددون معاً الاهازيج الشعبية . ويمكن لهذا الاحتفال أن يدوم ساعات وساعات حتى في الليل حول النيران المشتعلة في الهواء الطلق . ونظراً لأن مناسبات الاعياد نادرة بالنسبة للفلاحين المنغزلين في قراهم فانهم ما أن

يجدوا أنفسهم مجتمعين حتى يحسبوا أن ليس بوسعهم الارتواء من الضجيج والرقص والحشر والازدحام .

وهكذا يبدو دين الفلاح الدارج متماثلاً في معتقداته وفي مظاهره . وهو في الحقيقة دين أرضي بعيد عن السماء لا يتمتع بانطلاق القلب ولا التصوف . ومع ذلك فمن الخطأ التوقف عند هذا الحد من التحليل ف وراء هذه الشعائر البائسة المتواضعة التي يمارسها الفلاح كل يوم لمنفعته المباشرة ، يوجد في نفسه ينبوع عميق للنزعة الدينية الصرفة . وهذه النزعة تتجلى بالخضوع الوراثي قلباً وروحاً للإرادة الالهية : اسمع الفلاحين يتكلمون تجد اسم الله يتردد في كل جملة تقريباً . فكل فعل ينفذ « باسم الله » ويمرب عن كل رغبة باذن الله « إن شاء الله » وكل فعل موفق يرافقه حمد الله فيقال « الحمد لله » . وقد نأخذ بعين الاعتبار الصفة اللفظية لهذه الصبغ التي تتحرك بها الشفاه أكثر مما يعبر عنها القلب ولكن تردادها يعبر عن الحالة الذهنية التي تقويها إلى ما لا نهاية حالة الخشوع أمام الله .

وهناك ملاحظة أخرى هي المكانة التي يشغلها الدين المتبع في حياة الفلاح ولنرجع هذه المرة إلى الشتائم الدارجة عند العامة وهي من أكثر الامور تعبيراً عن الحياة الصميمية للفلاح بصورة عفوية . وقد ارتقى فن السباب إلى درجة سامية في الشرق يختلف عما هو في الغرب ، لأن لعن إنسان قلما يؤدي هنا لنتيجة جدية : إنه مزاح تقريباً . أما التعرض لشرف أخته ولعن أبيه وأمه وجده وجدته وأسلافه حتى الجيل العاشر منهم فهو أفدح بالنتائج مما سبق . على أن الشتيمة الكبرى هي لعن دين المرء إذ لا يبقى بعدها إلا الشجار الفعلي . إن الفلاح السوري محب لدينه رغم جهله هذا الدين ورغم أنه لا يقيم شعائره بالاوقات المعينة كما ينبغي . وهو مستعد باسم الدين وفي سبيله أن يجاهد وينساق

إلى جميع أعمال العنف ويضحي بكل شيء ولا سيما في الأحوال السياسية التي يتعرض فيها أصحاب الدين لخطر .

والخلاصة يمكن الانتهاء بتصور سحنة عامة للفلاح السوري تتألف من السمات التالية : تفان كلي في سبيل الأسرة ، الحس الديني ، كرم الضيافة ، الشعور بالشرف ، الكرامة الفردية والعائلية ، القناعة ، الجلد ، الاستكانة للقدر . وإذا قلنا الفلاح السوري يجوز القول إلى حد ما : الفلاح العربي في الشرق الأدنى إجمالاً .

تمارين ومناقشات علمية (١)

(امتحان علم الاجتماع الريفي لدورة حزيران ١٩٥٥)

أ - السؤال الاول (إلزامي) : (٧٥ درجة)

إبحث أولاً في الصفات المتباينة للأرياف الجبلية في الشرق الأدنى (٢٥)
إبحث ثانياً في الصفات المتشابهة للأرياف الجبلية في الشرق المذكور وقارنها مع الصفات المتشابهة للأرياف السهلية مع تلخيص الصفات المشتركة (٢٥)
إبحث أخيراً في أسباب التباين والتشابه : عامل تاريخي ، عامل جغرافي ، عامل ديني ، عامل اقتصادي ، الخ .

(١) هـ هذه التارين هي أسئلة الامتحان التي أقيمتها على طلاب كلية التربية للمرة الاولى في تاريخ الجامعة السورية . وقد أوردتها لفائدين : (١) الفائدة العلمية على اعتبار اننا نمارين علمية . (٢) الفائدة التاريخية على اعتبار انها أول مجموعة من الاسئلة في علم الاجتماع الريفي تلقى على أول طلبة من طلاب كلية التربية الذين سينالون ليسانس التربية وهم الذين تلقوا للمرة الاولى دروس علم الاجتماع الريفي في الجامعة السورية .

ب - السؤال الثاني (اختيار بين سؤالين) : (٢٥ درجة)

أحدهما : اذكر قريتين (قضائين مثلاً) من أفضية سورية) يمكن أن تتطورا بالعوامل الايكولوجية فتصبحا مدينتين بعد زمن معين . قدر هذا الزمن و اشرح تأثير العوامل الايكولوجية . (٢٥)

الآخر : اذكر مدينتين (محافظتين مثلاً) من محافظات سورية) عليها طابع ريفي قد لا يزول بزمن قريب . قدر هذا الزمن و اشرح العوامل الايكولوجية المؤثرة . (٢٥)



الريف العراقي

أعرض عليكم في هذا البحث والذي يليه ، نموذجين آخرين من الارياف في الشرق الادنى ، إماماً للفكرة العامة وتبياناً للفروق الهامة . فهناك مثلاً قلة في الكثافة تلاحظونها في أرياف العراق بينما تلاحظون ازدهاراً خاصاً في بعض الارياف المصرية . وهناك مجال للتمدين السريع والتصنيع تتوقعونه من استثمار البترول في العراق أو تضخم الري في مصر ، بينما لا تتوقعونه في أرياف سورية وسواها . فهذه المفارقات مع المشابهات تؤلف موضوعاً جديراً بالتأمل وهي ذاتها علم الاجتماع المقارن الذي يعتبر مقدمة لعلم الاجتماع الكلي .

والكتاب الذي أخلص لكم منه هذا البحث ، هو وكتاب البحث الذي يليه (الريف المصري) كلاهما جدير بالافتناء لو كان موجوداً ، ولكن كليهما نافذ ، كما ظهر لي . لذلك وجدت نفسي مضطراً إلى تلخيصها حتى أ كفيكم مؤونة البحث عنها . وهما يمتازان بقلة الحشو وكثافة المعلومات بحيث لم أستطع في بعض الاحايين

(١) هذا البحث ملخص عن كتاب : جعفر خياط ، القرية العراقية . بيروت ١٩٥٠ وقد آزرني في تلخيصه الطالبان في كلية التربية : الآنسة عائدة مفتي « الدراسات الوضعية » الآنسة صفا جزاوي « الدراسة الاصلاحية » .

إلا نقل الفقرات الهامة كما هي . وهذا بنظري يحفظ لكم رونق الفكرة إذا قرأتموها بأسلوب صاحبها ، ولا سيما النواحي الانتقادية الحساسة التي يكون فيها الكلام أسلم إذا سمعنا صاحب العلاقة يتكلم . وفي هذا اقتراب أيضاً من تحقيق الأمانة العلمية بقدر الامكان .

العراق من الناحية الطبيعية :

يقدر مجموع الأراضي القابلة للزراعة في العراق بـ ١٢١٠.٠٠٠ كم^٢ أي حوالي ٢٥ ٪ من مجموع مساحة العراق . ولا يزرع من هذه النسبة في الوقت الحاضر إلا حوالي ١٩,٢٥ ٪ من مجموع الأراضي القابلة للزراعة .

إن دجلة والفرات هما النهران الرئيسيان اللذان تتدفق منهما كميات كبيرة من المياه التي لو استفاد منها العراقيون ومن مياه الأمطار التي تهطل هطولاً لا يستهان به في الشمال ، استفادة فنية ، لأمكن ازدياد مساحة الأراضي المزروعة أضعافاً مضاعفة. تجود في مناخ العراق مختلف المحاصيل الاقتصادية من حبوب وتمور وتبوغ ومحاصيل زيتية وقطن كما ترتع في مراعيه وحقله ملايين الأغنام والماشية والخيول والحيوانات الأخرى . وبالإضافة إلى ما يستهلكه سكان العراق من المنتجات الزراعية والحيوانية يصدر قسم كبير منها إلى الخارج فيأتي إلى العراق بثروة تحفظ له ميزانه التجاري لقاء ما يستورده من الحاجيات .

لقد عرفت تربة العراق بخصوبتها وقوتها النباتية . وتقدر « القابلية الانتاجية » في الأراضي المرواة بمقدار ٣٥٠ كغ من الشعير في المشارة الواحدة و ٢٥٠ كغ من الحنطة . غير أن الملوحة كانت ولا تزال تنتشر في تربة العراق كلما كثرت زراعتها ، فهي تقضي على خصوبتها ومعظم شأن هذا الخطر خاصة في

المناطق الوسطى والجنوبية حيث يكون المناخ حاراً وحيث تعتمد الزراعة بالكلية على مياه الري .

الصفات البيولوجية والبيكولوجية :

تنتشر المدن والقرى في أنحاء العراق بصورة متباعدة ويدل هذا على أن البلاد تستوعب أضعاف سكانها الحاليين ولا غرابة فقد كانت في عهد العباسيين سبعة أو ثمانية أضعاف سكانها الحاليين . منهم متقدمون في الوقت الحاضر يسكنون المدن والبلدان الكبيرة ، ومنهم القرويون الذين يسكنون القرى والديساكر المنتشرة حول الأنهر والاهوار ، ومنهم أخيراً القبائل البدوية التي ترحل مع حيواناتها انتجاعاً للكلاً في الشمال والجنوب كبعض قبائل شمر وعزة والصفير والكبشة والعبيد من العرب وبعض قبائل الجاف والمهركية ... من الأكراد .

تقدر نفوس المدن والبلدان التي يزيد نفوسها على ٢٥٠٠٠٠ نسمة بحوالي ٢٥ ٪ من مجموع السكان كما تبلغ نسبة القبائل الرحل بما يقارب ١٠ ٪ وما تبقى ٦٥ ٪ هم الريفيون . والريفيون إجمالاً يمتثلون الزراعة مباشرة إلا قسماً صغيراً يختص بالمهن المعروفة كالنجارة والحداة والعطارة وصناعة القوارب والسفن وغيرها من الحرف التي تعتمد عليها الحياة في المجتمع الريفي البسيط .

يقوم سكان الريف بزراعة الأراضي واستثمارها استثماراً يتوقف عليه كيان العراق الاقتصادي . وقد أثرت الأحوال الجوية تأثيرها التام المباشر على هذا الاستثمار وجعلت النظام الزراعي في العراق نظاماً مختصاً به حيث أن كثرة هطول الأمطار النسبية في القسم الشمالي من العراق أدت إلى شيوع زراعة الديم في ألوية الموصل والسليمانية وأربيل وكر كوك . وأصبحت هذه الألوية تعتمد في زراعتها على زراعة الحبوب بواسطة المطر بصورة كلية . كما أدت الأحوال الجوية

الآخري إلى أن تجود في الشمال زراعة التبغ التي تعتبر جزءاً متما للنظام الزراعي هناك ، وزراعة الأشجار المثمرة كالزيتون والفسق والتين والجوز واللوز والبنقد والخلوخ والكثيرى وما أشبهه . هذا عدا بعض أنواع الرز التي تزرع على السفوح وبعض السهول وتروى بمياه العيون وبعض الآبار . أضف إلى ذلك ما ينبت بصورة طبيعية وحشية من أشجار الغابات التي تكثر كثيراً في قمم الجبال وسفوحها وتجود ببعض المنتوجات المهمة كالكتيراء والعفص مع صناعة الأخشاب والفحم .

تعتمد المنطقة الوسطى والجنوبية من العراق على الري بالكلية في زراعتها . وتسقى الأراضي الزراعية ، هذه بالسيح وبالواسطة وبالمد والجزر . والأراضي التي تسقى سيجاً هي الأراضي التي يعلو الماء عليها بحيث يمكن توجيه المياه من دون الاستعانة بالمضخات أو النواير ، وأهم حاصلاتها الأرز . إن مناطق الري بالواسطة هي جميع لواء الكويت وقسم كبير من لواء بغداد ومنطقة شط الديوانية في لواء الديوانية . أما الري بواسطة المد والجزر فمحصور في منطقة شط العرب حيث أن مياه الشط العذبة تندفع مرتين في اليوم إلى الأنهر والقنوات بفضل عملية المد والجزر الطبيعية التي تطرأ على البحر في خليج البصرة وتروي بذلك بساتين النخيل المكتظة .

إن أهم المحاصيل الزراعية التي تزرع في العراق الأوسط والجنوبي هي الحنطة والشعير والأرز خصوصاً . وهذه تؤلف الحاصلات الاقتصادية التي يصدر ما يفيض منها عن الاستهلاك المحلي إلى الخارج . أما زراعة البساتين والأشجار المثمرة فقد اختصت بها ألوية ديالى وكربلاء وبغداد والحلة والبصرة . وتعتبر التمور من موارد الثروة الزراعية المهمة أيضاً حيث يبلغ عدد نخيل العراق بأجمعه حوالي ٣٠ مليون شجرة كما تجود زراعة القطن في العراق الأوسط .

إن زراعة العراق ما زالت في حالتها البدائية من غير أن تمسها يد الفن الحديث . فما زالت أساليبها في الحراثة والري والتسميد وانتقاء البذور والحصاد ومكافحة الآفات وتربية الحيوان أساليب بالية يتوارثها الفلاح جيلاً بعد جيل . وقد نتج عن أساليبه البالية هذه ومن أهمله وكسله أن قلت نسبة الحاصل الذي يجنيه لقاء أتعابه ومصاريفه وأدى ذلك إلى بقائه راحاً تحت عبء الديون وقائماً بشظف العيش والحياة البدائية .

إن الأسباب التي أدت إلى بقاء الزراعة العراقية في وضعها الحالي وبقاء الفلاح على ما هو عليه الآن لا تنحصر فيه فقط وليس هو وحده مسؤولاً عنها وإنما هي متأدية عمماً في البلاد من وضع عام خلفته ظروف متشابكة وأحوال مترابطة عديدة ليس في مقدوره هو أن يتصدى لها بغير أن يصلح نفسه بعض الإصلاح على مقياس ضيق . والوضع العام هذا هو الذي خلق النظام الزراعي السائد في البلاد اليوم .

وفي النظام الزراعي الحالي نقاط بارزة أساسية تؤثر على الطبقة الزراعية من السكان تأثيراً بعيد المدى . فأول ما يلفت النظر منها أن الزراعة العراقية وخاصة في المناطق الوسطى والجنوبية التي تسقي مزارعاتها بماء الري هي زراعة متسعة . وبما أن الأراضي شاسعة يعجز المزارعون عن توجيه العناية التي تقتضيها الأصول الزراعية الحديثة لها . وينحصر الجهد الذي يبذلونه في قطعة ما من الأرض التي تزرع في سنة ما ، ثم تترك لتزرع قطعة أخرى بدلاً عنها . فنشأ عن مثل هذا الوضع أن أصبحت الزراعة متنقلة لا تستقر في مكان حتى تنتقل إلى جهة أخرى وفي هذا التنقل ضرر وضياح للجهود . بينما الأرض المحدودة تضطر الزارع إلى مداراتها ووضع الخطط الزراعية لإدامة الخصوبة فيها .

إن الأحداث التاريخية التي وقعت في العراق خلال القرنين الأخيرين

والانظمة التي أدخلت خلالها مع المهجرات القبائلية من الجزيرة العربية التي تعرض اليها ، قد ولدت في زراعة العراق وخاصة في أواسطه وجنوبه وضعا إقطاعيا لا يزال العراق يعاني تأثيراته حتى الآن . كما أن القوانين المختصة التي شرعت في العراق منذ بداية الاحتلال البريطاني في الحرب العالمية الاولى قد ثبتت قسما من نواحي الإقطاع في غير صالح البلاد والطبقة الزراعية فيها . وقد نشأ عن ذلك كله أن أصبح قسم كبير من الاراضي الزراعية وخاصة في أواسط العراق وجنوبه ملكا بيد الشيوخ والاغوات وأبناء الأسر المتنفذة في المدن وبعض التجار وكبار الملاكين . وبقيت الاغلبية الساحقة من سكان الريف التي تخدم الارض وتزرعها ، لا تملك إلا النذر اليسير منها كما بقي قسم كبير من هذه الاغلبية لا يملك أرضا مطلقا ويستغله الملاكون الكبار استغلالا يصل به إلى سوية العبيد . وقد كانت الزراعة إلى قبيل تأسيس الحكم الوطني مبنية على أسس الاقتصاد المعيشي في استثمار الاراضي الزراعية لمعيشة الشيوخ وأفراد عشائهم وسكان القرى . غير أن تقدم طرق المواصلات العالمية واتصال العراق بالطرق البحرية قد جعل للحاصلات الزراعية أسواقا خارجية تدر على أصحابها ثروات طائلة عرفت أهميتها الطبقة المتنفذة . فبادر الشيوخ ومن على شاكلتهم إلى تملك الارض وتثبيت ملكيتها بالطرق القانونية على حساب أفراد العشيرة الفلاحين وسكان القرى مستخدمين بذلك نفوذهم و ثروتهم . وقد جاء قانون تسوية حقوق الاراضي لسنة ١٩٣٢ الذي أريد به حل مشاكل الارض والبلاد فأكد على تلك الناحية مستنداً بذلك على الاسس الإقطاعية البالية وما فيها من القوضى والاستغلال فنشأ عن ذلك خلق ملكيات كبيرة لأشخاص معدودين .

وقد صدر قانون حقوق وواجبات الزراع سنة ١٩٣٣ فثبت مركز الملاكين تجاه الفلاح فكان ذلك نتيجة للنفوذ الذي يمارسونه في تمشية مصالحهم على حساب

الفلاحين . حيث أنه أمن بصورة عامة حقوق الشيخ والآغا وغيرهما من المالكين بدرجة تجعل الفلاح شبه آلة مسخرة . مثلاً ان هذا القانون منع استخدام الفلاح إذا كان مديوناً في أية مزرعة أخرى أو في أية دائرة حكومية أو غير حكومية إذا أراد أن يستخدم أجيراً أو كفراش . غير أن هذا الوضع يعد أهون نوعاً ما في الشمال منه في الجنوب من حيث صالح الطبقة الزراعية حيث أن ملكية الارض هنا تختلف بعض الشيء كما أن عدد الملاكين الكبار يقل كثيراً عن الجنوب . لذلك فإن وضع الفلاح في منطقة الديم الشمالية الشرقية من العراق هو وضع أحسن ، لوجود نظام زراعي ثابت يمتلك فيه قسماً كبيراً من الارض ملاكون صغار . أما في وادي دجلة الذي بدأت تنصب فيه المضخات جنوب الموصل ، فيوجد نظام عشائري يشابه النظام العشائري الموجود في الجنوب . كما أن الارض يملكها في الدرجة الاولى الشيوخ والوجوه . وكذلك في غرب الموصل ، البلاد الجبلية المتعرجة ذات المطر القليل، حيث تمتلك الارض بموجب النظام العشائري .

أما تعيين حصة الفلاح من غلة الارض التي يزرعها فيتحكم فيها التعامل والتقاليد المحلية وهذه تختلف باختلاف المناطق . ويمكن القول بصورة عامة إن معظم أراضي العراق تشغل على أساس الايجار بالمحاصة في الغلة الهائية بين المالك والفلاح ، وهذا النظام ولا شك من بقايا القرون الوسطى التي كان يسود فيها نظام الاقطاع . ينال فيه الفلاح من الغلة النصف ويعيش على الارض ويقتات هو وحيواناته من منتوجاتها طوال أيام السنة . وقد يسرق ما تسوله له نفسه من البذور ومن الناتج النهائي ، ولا يخفى ما في هذا الوضع من تأثير سيء على قسم كبير من الفلاحين الذين يبقون مشردين ، أو لا يشعرون بتعلق بالارض التي يفلحونها وبمصلحة الطبقة الزراعية وقابلية البلاد الانتاجية .

يشتغل الفلاح عادة هو وزوجته وأولاده طوال أيام السنة ، والذي يحصل عليه هو نتيجة استثمار الأرض والماء والانعاب التي يبذلها . ولو دققنا في مجرده نجد أن الفلاح الاعتيادي في مناطق الري يشغل في السنة الواحدة ٤٠ مشاركة يزرعها ، وبما أن الزراعة العراقية بوجه عام تستند إلى قاعدة « النير والنير » أي قاعدة زرع نصف الأرض وترك النصف الآخر باثراً ، يكون مجموع ما يشغله ٨٠ مشاركة ويستوفي نصف ما يغله هذا المقدار من الأرض . أما في مناطق الديم فانه بحاجة إلى مساحة أكبر من الأرض لأن حاصل الأراضي المروية يكون في العادة أكثر من حاصل أراضي الديم . فهو يزرع حوالي ٨٥ مشاركة . غير أن الفلاح في الشمال يحتاج إلى مرعى لحيواناته التي يكثر جنبها عند الفلاحين هناك . وبذا يجب أن نضيف حوالي ٢٠ مشاركة إلى عدد المشار المذكورة فيصبح عدد المشار التي يشغلها الفلاح الشمالي في السنة ١٠٥ مشارا . وفيما عدا هذين النموذجين يوجد فلاحتون مختصون بزراعة المحاصيل الأخرى كالخضراوات والفواكه والشلب والنبغ . وهؤلاء تختلف أحوالهم بحسب المحيط الذي يوجدون فيه . على أن الملاحظ هو أن فلاح الشلب ذو مستوى اقتصادي عال بالنسبة لتخصيصه بهذا الحاصل الذي يباع بثمن مرتفع ولا يقوم هذا النوع من الفلاحين عادة بزراعة الحنطة أو الشعير إلا على أساس « الشكارة » لاستهلاكهم الخاص . وكذلك يتمتع فلاح الخضراوات والبساتين بدخل عال نسبياً . ولا يوجد احصاءات عن دخل الفلاح العراقي اليوم أما دخل الفلاح العراقي بأسعار ما قبل الحرب الأخيرة فنجد حوالى ٦ - ١٠ دنانير في المناطق الشمالية و ٣ دنانير في المناطق الوسطى والجنوبية ، وهو دخل قليل جداً يحمل مستوى المعيشة بدائياً تحت تأثير هذه الظروف . وهذا الانحطاط يمكن أن يلاحظ لأول وهلة من حياة الفلاح ومنظر بيته الذي ليس هو في معظم أنحاء الريف أكثر من

كوخ بسيط من القصب مع أمانات زهيد . ثم تأتي المشكلة الصحية .
إن مجموع سحة المواطنين في كل بلد من البلدان ، سبب كبير من الاسباب
التي تؤثر على ثروتها ، لأن العمل الذي يؤديه الافراد هر أحد العوامل الاساسية
الثلاثة — الارض ، رأس المال ، العمل — التي يتوقف عليها الانتاج . ويصح
ذلك على الأخص في البلاد التي تعتمد على الانتاج الزراعي . فلو أتينا إلى العراق
وإلى القرى المنتشرة في أرجاء ريفه الفسيح، نجد أن التأثيرات كلها العامة والخاصة
تعمل عملها بصورة شديدة : الجو القاسي المتبدل بين الصيف والشتاء وبين الليل
والنهار . وجود الاهوار والمياه الآسنة في مختلف أرجاء الريف وخاصة في
الجنوب . شيوع الغبار والايوحال وكثرة الدود والحشرات والهوم . تفكير
السواد الاعظم وعقليتهم والجهل المستحوز عليهم والخرافات التي تلعب بمقدراتهم .
كل ذلك عوامل فعالة تؤدي إلى استفحال الامراض المعروفة وتقرر مقدار
شيوعها وانتشار عدواها . أضف إليها سوء التغذية الذي يؤدي إلى قلة المناعة في
الجسم ضد الامراض وتعرضه لفتك الجراثيم .

يظهر من الاحصاءات الصحية أن معدل الاصابات المرضية التي سجلت في
العراق منذ سنة ١٩٣٨ — ١٩٤٦ يبلغ ٤٠٠٠٠٠٠ إصابة في السنة . وهذا
يعني أن قسماً لا يستهان به منها إصابات متكررة لنفس الاشخاص . ويلاحظ أن
أكثر الامراض شيوعاً هي الامراض البغية والبغية وأمراض العين وأمراض
الجهاز الهضمي والامراض الجلدية . إن مرضي الملاريا والتراخوما هما أكثر
الامراض السارية شيوعاً في العراق . والملاريا منتشرة في أنحاء كثيرة من الريف
لكثرة وجود المياه الآسنة والمستنقعات . كما أن البلهارسيا وهي من الامراض
الديدانية الريفية تنتقل بواسطة الماء فتؤدي بالمصاب إلى التبول الدموي ، وهي
منتشرة في الفرات الاوسط والجنوبي . أما الانكيlostoma المرض الديداني الذي

يؤدي إلى تسمم الجسم وفقر الدم وضعف القلب ، فنتشر في ثلث السكان على الأقل . وبذا يترك تأثيره الويل على نشاطهم وقابليتهم للعمل والانتاج . وهناك أمراض أخرى تفتك بسكان العراق وتأخذ منهم مأخذها وأهمها السل ، الديزانثري ، الأمراض الزهرية .

وللتغذية شأن كبير في نمو الجسم وقيامه بالاعمال الشاقة التي يتطلبها العمل الزراعي . غير أن أكثرية سكان الريف العراقي وحتى الطبقة العاملة في المدن لا تتناول الغذاء الكافي ولا الغذاء المتوازن الذي يوفر للجسم جميع ما يحتاجه من المواد الحيوية وما يكفيه لتوليد الطاقة الحرارية في جسمه المرهق . وهذا ناتج بلا شك عن انحطاط مستوى المعيشة ومحدودية الدخل المالي فضلاً عن الجهل المطبق وعدم الالتفات لهذه الناحية الحيوية . وقد نشأ عن ذلك هبوط مستوى المعيشة في الجسم واستفحال الأمراض وزيادة الوفيات في الاطفال والهزال . وليست ناحية السكن أحسن حظاً ، لأن الاكثرية من سكان الارياف وحتى قسماً من سكان القرى الكبيرة التي تقع على حدود المدينة تسكن أكواخاً من الطين أو القصب . وهذه عبارة عن غرفة واحدة لا يتسرب إليها نور الشمس ولا يتبدل هوائها : ينحشر فيها الفلاح وعائلته وأنثاهم البالي صفقة واحدة . وقد تشاركهم فيها بعض حيواناتهم وليس فيها مرحاض خاص بل يقوم مقام ذلك السهل الفسيح والمزابل المتكومة حواليه . ورغم كثرة الماء الجاري فلما الصحي لا يتوفر لمعظم السكان ، فهم يشربونه عكراً ملوثاً ولا يغتسلون بصورة تجردهم من الاوساخ إذ لا يستعملون الصابون إلا في النادر . ثم إن الخدمة الصحية على ما فيها من نقص ومحدودية ، منحصرة في المدن والبلدان الكثيرة فقط . ولعدم وجود الجهود الجدية من أجل الاهتمام بمياه الشرب للعدد العظيم في القرى

والدساكر ، فان خطراً كبيراً يهدد هذه الطغمة البشرية إذا داهمتها الامراض
الوافدة .

الصفات الاجتماعية والنفسية :

بعد الجهل مقدمة الآفات الاجتماعية تأثيراً على تقدم البشر ورفاهيتهم . وهذه
الآفة استفحلت في الريف العراقي استفحالا عرقل سيره في مضمار التقدم . تقتصر
المدارس في الريف العراقي على الابتدائية وهي قليلة جداً وحالها رديئة إذ
لا يتجاوز عدد معلمي كل مدرسة الثلاثة ولا يوجد في أكثر القرى مدارس
للبنات . كما أن التدريس منحط بالنسبة لمدارس المدن ولا توجد فيه مدارس
ليلية للآمين البالغين كما في المدن . على أن المدن نفسها لم تصل بعد إلى التطور
الذي وصلت اليه مدن الغرب وبعض المدن الشرقية الكبرى .

إن الريف العراقي لا يخرج عن كونه مجتمعاً زراعياً بدائياً يسود فيه النظام
العائري الذي بدأ بالانهيار في بعض الجهات عندما داهمته تيارات المدنية الحديثة
مع ذلك بقيت الاكثية الساحقة من السكان تعيش في حالة بؤس وشقاء بينما
أخذت طبقة الشيوخ والملاكين الجدد من متنفذي المدن والتجار تحيا حياة
الترف وتملك القسم الاعظم من الاراضي الزراعية التي تدر عليهم أرباحاً وفيرة .
ولما كانت أغلبية السكان على هذه الحالة ، بقيت القرية العراقية على حالتها من
انحطاط الصحة العامة وسوء التغذية ورداءة المسكن وانتشار الأمية والامراض
وشيوع الفاقة وقلة الدخل عند الفرد الواحد .

إن تأخر الريف العراقي يرجع بدرجة كبيرة إلى انخفاض مستوى العيش
المتأني عن ضآلة دخل الفرد في هذا المجتمع . ذلك أن الفرد يصرف ٧٠ ٪ من
دخله من أجل كفاف العيش ولا يبقى له سوى ٣٠ ٪ ليصرفها على حوائجه

الآخري من ملابس ومسكن ونظافة . ثم أن الأدوات البالية القديمة التي يستدعي تشغيلها جهداً شاقاً ووقتاً طويلاً لا يمكن أن تترك له ما يكفي من الوقت للاستراحة والتمتع بالحياة . كما لا يمكن أن يسنح له الوقت والحالة هذه أن يفكر في نفسه وانتاجه أو أن يغامر في خلق المشاريع والتشبت بمختلف التشبثات التي قد تؤدي إلى تحسين حالته .

إن مثل هذا المجتمع لا يتوفر لسكانه ما يدرؤون به عن أنفسهم عواذي الزمن . حيث أن العجزة والمرضى وخاصة النساء منهم ليس لهم ما يضمن عيشهم . ولولا طراز الحياة العائلية وتعلق الأفراد بالأسرة وتكفل الأسرة للأقارب والمعارف أحياناً لسحقوا سحقاً لارحمة فيه . أما المرأة فوضعها أشد بؤساً ، لأنها تشارك الرجل في بؤسه وتساعده في عمله الشاق بالإضافة إلى واجباتها البيتية والزوجية التي تناضل تجاهها وهي عزلاء من كل شيء . والمرأة في عشائر الجنوب خاصة تقوم بتكاليف وأعباء ثقيلة لا يقوم بها الرجل مطلقاً . فانها تشارك زوجها في الزراعة والحصاد والدياسة وتتولى تنظيم الأرض وتعشيبها . تنهض مبكرة فتحلب البقر وتقدم له العلف وتنظف الزريبة ثم تخرج للاحتطاب حاملة معها طفلها إن كانت مرضعاً ، وعند عودتها لكوخها تتولى العجن والخبز وتحضير القوت لزوجها وتسهر الليالي في طحن الحبوب . وقد يشتغل بعض النسوة بجرش الشلب في المجارش العامة ليلاً لقاء أجور زهيدة يسهلنها لأزواجهن . ومع ذلك كله نجد أن الرجل إذا غضب على الزوجة طردها من بيته الخاوي ولا يكون غضبه في الغالب إلا لأمر تافه ، وقد يضربها ضرباً فاسياً .

والمرأة رغم بطولها وتفانيها في سبيل الأسرة ، تبقى سلعة يتحكم فيها الرجل بحسب رغائبه ونزواته . مثال ذلك « زواج الصداق » : فإذا كان للرجل أخت أو بنت ، وأراد الزواج من دون أن يكون قادراً على دفع مبلغ للصداق ، فانه يتفق

مع شخص آخر عنده بنت من أرحامه ، فيقدم كل منها قريبته للآخر ليتزوج بها ويدفع مبلغاً زهيداً لتحليل الزواج من الوجهة الشرعية . وكثيراً ما تحدث بسبب هذا الزواج مشاكل ومآسي تؤثر تأثيراً سيئاً في المجتمع ، حيث أن هذا النوع من الزواج يحتم إرجاع زوجة أحد الفريقين إلى قريبها إذا اختلف الفريق الآخر مع زوجته وطلقها . والرجل الذي يضطر إلى طلاق زوجته يأخذ قريبته التي صادق بها ويرغم زوجها على تطليقها أيضاً ، ولو كان متصافياً معها وكانت هي ذات ذرية وراغبة في البقاء مع زوجها . . وقد يضطر من طلقت قريبته أن يزوج المطلق بزوجة أخرى إن كان هو راضياً بزوجته ، وإن لم يقنع المطلق بذلك فله الحق بأن يعسر على طلاق قريبته واسترجاعها . وإن صدف أن اختلفت إحدى المرأتين المصادق بها مع زوجها ورجعت إلى أهلها ، فللاخرى أن ترجع إلى أهلها أيضاً ولا تعود إلا عند عودة الاولى . ولا شك أن الاجرام متناهية إلى حد كبير تمثل هذه الظروف التي تحيط بمجتمع القرية . كما أن معظم الجرائم التي تقع في الارياف يكون منشؤها الاختلاف والنزاع حول الاراضي والمرعى والماء ، أو التشرذم والتجاوز على العرض . والعشائريون يخضعون لقانون « دعاوى العشائر » في حسم المنازعات والجرائم من غير أن يخضعوا للقوانين المدنية المطبقة في البلاد .

وقد أدى تفشي الجهل والامية في المجتمع القروي إلى شيوع الخرافات بحيث أخذت التعاويذ وأنواع السحر تقوم مقام الطب والادوية في كثير من الاحيان، كما أخذت المعادات الغريبة تؤثر في سلوك الناس وأشغالهم تأثيراً ينعكس في الانتاج . لقد سيطرت على سكان الارياف عقلية مشوهة لا تقدر أهمية التدابير التي تتخذ من أجل الريف واصلاحه فنشأ عن ذلك توسع الشقة بينهم وبين الحكومة . وكثيراً ما يتهربون من دفع الضرائب أو تسليم أبنائهم للجنودية أو

تطبيق القوانين الحديثة .

إن هجرة القروي العراقي من الريف إلى المدينة هجرة غير طبيعية حيث أن القروي وابن العشائر كان في سابق العهد يعتز بقريته وقبيلته ويفخر بمساداته وتقاليده قائماً بزرع حقوله وبمساقمة الله . فما الذي بدل اتجاهاته ؟ الواقع أسباب كثيرة . على أن مردها « وضعه الاقتصادي » وضيق العيش الناتج عن جميع الاحوال والظروف السيئة التي أشرنا إليها . فالتطور التجاري والاقتصادي الذي حصل في العالم وأثر في الانتاج الزراعي العراقي الذي أصبح انتاجاً تجارياً بعد أن كان انتاجاً معاشياً ، ومبادرة الشيوخ والأغوات والتجار إلى امتلاك الارض بمساحات واسعة بعد انهيار النظام العشائري . . جعل دخل القسم الكبير من أبناء القرى والعشائر واطناً لا يزيد على حصة ضئيلة من الحاصل الوحيد الذي يزرعونه بعد أن كانوا يشعرون وهم يفلحون الارض انهم يشتغلون من أجل القرية والعشيرة لا من أجل أنفسهم فقط . فأصبحوا والحالة هذه يشعرون بأنهم متشردون لا يربطهم بالأرض التي امتلكها غيرهم أي رابط . ولا يخفى أن وضعاً كهذا يؤدي إلى قلة الايدي العاملة في الريف وازدياد البطالة في المدن التي ما زال التصنيع فيها في أول دوره . وبذا تتبدد حيوية الامة وقابليتها الانتاجية في الوقت الذي تكون فيه البلاد بأمس الحاجة إلى أبنائها لمضاعفة الانتاج .

حول اصلاح الريف العراقي :

ليس بحث الاصلاح محدوداً ، كما أشرت لكم حول إصلاح الريف السوري . وفيما يلي أسرد لكم بالطريقة ذاتها مقترحات المؤلف الذي غني بدراسة الريف العراقي في كتابه « القرية العراقية » فهو أدري منا بالريف الذي يعرفه ، وبامكانكم مع ذلك التوسع في الموضوع إذا شئتم .

الاصلاح الزراعي : يتضمن هذا الاصلاح اجراء الترتيبات اللازمة للحد من الملكية كي يساعد ذلك على توزيع الارض على أكبر عدد ممكن من الزراع وخصوصاً تنظيم التوزيع للأراضي الاميرية بدون سوء تصرف . وقد وضعت طرق عديدة في بلاد مختلفة أهمها المشروع الذي يحرم شراء أرض على من يملك خمسين فداناً فأكثر . والوسائل الأخرى التي يمكن أن تتخذ لهذه الغاية هي : (١) وضع ضريبة تصاعدية على تملك الأراضي (٢) وضع ضريبة تصاعدية على التراكب واستحصالتها بصفة أرض في حالات الملكية الكبيرة (٣) نزع نسبة معينة من أرض كل من يملك أكثر من المساحة المسموحة ويدفع له ثمنها على أن تباع هذه الأرض لصغار الملاكين بالتقسيم (٤) مع تقسيم ملكية الأرض عندما تصل مساحة كل قطعة منها إلى حد أدنى .

وبالرغم من اعتماد العراق على الزراعة ، لا يزال بعيداً عن الوسائل الحديثة التي تؤدي إلى مضاعفة الانتاج وتقليل العناء . وعلى هذا فإن الوضع يستدعي قيام الجهات المختصة بتأسيس المحطات الزراعية وتزويدها بالوسائل الكافية كإصدار نشرات سهلة مفهومة ، وإلقاء محاضرات في الراديو والاجتماعات الخاصة واجراء بعض العمليات كتجارب يشاهدها الفلاحون ويقفوا على نتائجها . ثم إقامة المعارض والمسابقات لأحسن المحاصيل ، بالإضافة إلى جولات المفتشين من حين لآخر للإرشاد . أما التعليم الزراعي فإنه يتم عن طريق تأسيس المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، فضلاً عن التعليم الزراعي الجامعي .

التوسع في تربية الحيوانات : إن العراق بمروجه الطبيعية المنتشرة خاصة في أنحائه الشمالية ، ثم مراعي البادية ، ووجود العشائر العربية والكردية ... كل هذه عوامل تساعد على تربية الحيوانات . ولهذا كان العراق ولا يزال يصدر الحيوانات ومنتجاتها رغم الحالة البدائية التي تربى فيها . على أن هذه القابلية

يمكن مضاعفتها بالاساليب الحديثة . ومن جهة أخرى فإن الاكثار من تربية الحيوانات وخاصة في الجنوب يساعد على الاستفادة من المراعي الطبيعية ومن الاراضي الكثيرة التي لا يتوفر لها الماء الكافي ، كما يستدعي انشاء المراعي الاصطناعية .

حماية المزروعات : يعاني فلاح العراق سنوياً خسائر ناتجة عن فتك الحشرات والامراض النباتية والموارض الجوية : أهمها الجراد والدوباس وذباب البحر المتوسط ودودة القطن ... مما يوجب تقوية الدائرة الفنية لوقاية النبات وتزويدها بالمختصين والمختبرات .

التسليف الزراعي : ان ما يلاقيه الفلاح والمزارع الصغير من الديون الناشئة عن فقره يؤدي الى جموده والحد من توسيع مشاريعه . فهو يلجئ الى الصراف او التاجر ، وكثيراً ما يكون هؤلاء ممن يتقاضون الارباح الفاحشة ؛ فتراكم ديون الفلاح وتزداد سنة بعد سنة . ولهذا فكرت البلاد بتأسيس المؤسسات المالية من مصارف زراعية وجمعيات تعاونية وما شابه ، غايتها مد يد المساعدة لهذه الطبقة الكادحة . فقد تأسس مصرف في العراق برأس مال محدود ، وأخذ يسلف المزارعين بفائض معقول . ويقوم المصرف الزراعي في الوقت الحاضر علاوة على اعمال التسليف ، بادارة حلج القطن ، كما يستورد الآلات الزراعية ويؤجرها للمزارعين بأجور معتدلة .

تصريف المحاصيل : لا يخفى أن طرق المواصلات دايماً على حيوية البلاد ولا يتم النهوض باقتصاديات القرية ورفع مستواها ما لم يؤمن تصريف محاصيلها وبيعها بأرباح معقولة . فكثيراً ما تكسد التمور ، ويتعرض التبغ للتلف . لهذا يجب تحسين وضع الاسواق ووسائل النقل ، ثم وصل مراكز الانتاج الزراعي بالاسواق مع تحديد أجور الشحن .

الآلات الزراعية : ان الطريقة الوحيدة التي يستطيع الفلاح بواسطتها ان يحصل على حد أدنى لمعيشته هي التوسع في فلاحة ارضه وزراعتها . وليس بوسعه ان يفعل هذا بواسطة الحيوانات الموجودة عنده . فهو بحاجة الى الآلات على اختلاف انواعها . ومما يسهل استعمال الآلات في العراق توفر النفط ومنتجاته ورخص الائتمان . على انه لكي يجدي التطور في هذا الاتجاه يجب تدريب عدد كاف من المختصين وتهيئة معامل للتصليح في مختلف المراكز ، واجراء تجارب كثيرة لتعيين الطرق المثلى لاختيار الآلات الملائمة للتربة . ومن الضروري ان يكرن هذا العمل تحت الاشراف الحكومي ؛ وقد اتخذت التدابير اللازمة له الآن ، وشرع بتأسيس مديره المكائن الزراعية العامة .

الغابات : تتمتع العراق بثروة غابية حسنة ، حيث تغطي الغابات اصقاعها الشمالية على شكل هلال عريض فيها من الاشجار البلوط والزرور والحوار والصفصاف والجوز ؛ بينما العراق الجنوبي بحاجة ماسة لانشاء الغابات الاصطناعية . والغابات فضلا عما تنتجه من اخشاب وفحم تعد عاملا ضروريا من عوامل تكييف المناخ في العراق حيث تحول بعض جهاتها الى اماكن لطيفة المناخ تتمتع بها السكان في اشهر الصيف المحرقة ، كما تساعد على ارياد كمية المطر وتماسك التربة التي تحتفظ بالمياه وتمنع انصبابها السريع على الانهار . وهي أيضا تقوم كمصدات للرياح ، تجابه العواصف الغبارية التي تكثر في أرياف العراق . ولكن الملاحظ ان الغابات الطبيعية مهددة بخطر الانقراض ؛ وذلك بسبب القطع الذي يجري فيها بصورة فوضوية ... مما يوجب اولا تنظيم امر القطع . ثانياً وضع خطة للغرس الجديد تعويضاً لما يقطع .

تصنيع البلاد : على العراق ان ينشئ صناعة وطنية تستند إلى انتاجه من المواد الخام الزراعية . فالا حوال تساعد على تقويه بعض الصناعات كالتعليب وحفظ

المأكولات وصناعة منتجات الالياف وتربية النحل ودود القز فضلا عما تنتجه الصناعات الريفية المحلية من البسط والسجاد والعباءات والجبال . ولو وجهت العناية الكافية لهذه الصناعات وأدخل فيها شيء من الاساليب الحديثة لامكنها ان تعود على سكان القرية بالثروات .

النهوض بالمشاريع العمرانية : ولا يمكن اعمار الريف مالم تنجز المشاريع العمرانية الاساسية ، فالارياف العراقية مفتقرة في الدرجة الاولى إلى تحسين مشاريع الري الموجودة حالياً وانشاء مشاريع جديدة ، ذلك ان العراق بالنسبة لأحواله الجويه ووضعه الجغرافي يعد من البلاد الجافة التي تعتمد في حياتها على المياه . وهو في قسم كبير منه بلاد قاحلة جرداء يستحيل العيش فيها لولا وجود الفرات ودجلة وروافدها . وقد كانت الاستفادة التامة من حياة هذين النهرين سبباً في ازدهار المدينة القديمة على ضفافها . فيجب إذن المبادرة إلى احياء مشاريع الري وانشاء الخزانات وحفر الجداول والآبار الارتوازية .

اسكان العشائر الرحالة : يوجد في العراق حوالي النصف مليون من العشائر العربية والكردية الرحالة التي تربي الحيوانات وترتاد المراعي في الجبال وتحيا حياة بدوية . على أن حاجة البلاد الى الايدي العاملة بالنسبة للاراضي التي يجب استثمارها تستدعي اسكان هذه القبائل في الاراضي التي لا تزال ملكاً للدولة . ولما كان معظم هؤلاء ممن تفرغ لتربية الحيوانات فمن المناسب ان يكون النظام الزراعي الذي يتبع في مشروع اسكانهم مبنياً على تربية الحيوانات ومحاصيل العلف بالاضافة الى الحبوب التي يزرعونها لمعيشتهم . ولا يخفى ان نجاح مثل هذا المشروع متوقف للدرجة كبيرة على الناحية النفسية حيث يجب ان يقنع هؤلاء البدو الرحل بفائدة التوطن وما يدره عليهم من الخيرات . على ان يكون ذلك مبنياً على دراسة ميولهم واحوالهم وحالتهم الاقتصادية درساً علمياً .

كهربية الريف : بالرغم من أهمية الكهرباء في هذا العصر الذي أصبحت المدنية فيه على الآلات لم نجد في العراق التفاتاً كافياً لهذه الناحية . وما يجب أن يتناوله الاعتناء في هذا الشأن معرفة مقدار إحتياج العراق للكهرباء ، ومقدار ما يمكن توليده فيها . وتوجد في انحاء القسم الشمالي شلالات مائية كثيرة يمكن الاستفادة منها لتوليد القوة الكهربائية بأثمان قليلة .

اصلاح الحالة الصحية : ان الحالة الصحية الراهنة في البلاد سيئة جداً . فسكان القرى والارياف تفتك بهم الامراض ، ويشيع بينهم سوء التغذية في مساكن غير صحية . ونتيجة ذلك ازدياد الوفيات وقلة النشاط للعمل . فاصلاح القرية العراقية يستهدف السير في اتجاهات ثلاث : وقاية السكان من الامراض . مكافحة هذه الامراض . رفع مستوى التغذية . ١) للوقاية من الامراض يجب القيام بمشاريع تؤول إلى تحسين الحالة الصحية العامة كإجراء المستنقعات وإنشاء الحمامات وزرع الغابات . ٢) لمكافحة الامراض يجب دراستها من حيث انتشارها وأسباب وقوعها ومدى تفشيها ؛ ثم تعيين العدد الكافي من الاطباء والموظفين الصحيين وإنشاء المستشفيات الثابتة والمستشفيات السيارة ودور الرعاية . ويستحسن وضع نظام الخدمة الطبية الاجباري على المتخرجين حديثاً حيث يقضي كل منهم مدة معينة في الريف . ولا شك أن نجاحهم في عملهم يتوقف على مقدار شعورهم بواجبهم ، ومقدار ما يتمتعون به من الراحة اللازمة . ٣) لرفع مستوى التغذية ينبغي اصلاح الحالة الاقتصادية والزراعية والعمرانية لازالة الفقر ورفع مقدار الدخل السنوي . على أن اقتناع السكان بأهمية تنوع الاغذية مما يساعد على التحسين أيضاً ؛ هذا بالإضافة إلى تنوع الانتاج الزراعي والاكثر من تربية الحيوان . ويستحسن قيام المدارس بتقديم وجبة واحدة من الغذاء على الأقل لطلاب القرى يومياً . وبعد هذا العمل أيضاً بمثابة دعاه للمدارس وتشويق الاولياء

على ارسال اولادهم .

مكافحة الجهل : لا يتم اصلاح القرية ما لم يكافح الجهل وتقل وطأة الامية ، حيث أن الاصلاح عامة يتوقف لدرجة كبيرة على النهوض بتفكير أهل القرى والارياف وجعلهم قادرين على ادراك متطلبات الحياة العصرية . ولذا تنشأ المدارس الكافية ، ويساق اليها من هم في سن الدراسة حيث يتلقون منهجاً خاصاً ينجح إلى التأكيد على الناحية العملية كإقامة المشاريع الزراعية الصغيرة وتربية الدواجن وصناعة الالبان وغيرها ؛ وفي مدارس البنات تضاف الفنون البيتية . على أن تفتح بالإضافة إلى هذه المدارس دور المعلمين الريفية بمقياس أوسع مع توثيق صلاتها بمعهد عال خاص بالشؤون الريفية . فاصلاح القرية يتطلب إصلاح شتى نواحي الحياة وإن أحسن خطة عملية تتبعها البلاد هي المبادرة إلى تأسيس مديرية لاصلاح القرية وانعاشها في وزارة الشؤون الاجتماعية وتشرف هذه المديرية على معهد الشؤون الريفية . تبدأ هذه الهيئات عملها على مقياس محدود أولاً ؛ فتطبق مشاريعها على قرية واحدة أو اثنتين تطبيقاً يجعلها قرى نموذجية ؛ ثم بعمم ما طبق فيها على القرى الاخرى تدريجياً .

البحث التاسع :

الريف المصري

أعرض عليكم في هذا البحث حالة الريف المصري قبل الانقلابات الأخيرة ، وكما تعلمون يهمني دائماً أن أصور لكم حياة الفلاح قبل تطوره بتأثير العناصر الحضرية . ويظهر أن الريف المصري يجتاز في العهود الأخيرة تطوراً هاماً بناء على اهتمام الهيئة الحاكمة ، يظهر لنا ذلك من تصريحات رجال الحكم كل يوم ، كما يظهر من تصوير الفلاح المصري على طوابع البريد بدلاً من الملك السابق فاروق .

غير أنني مع هذا ، اعتقد أن التطور لن يكون سريعاً ، لأن هناك مبدأ التقيد الاجتماعي Dérétnisme Sociologique الذي يحدد لكل تطور زمنه ، بل إنني أميل أيضاً إلى الاعتقاد بنظرية المؤلف (١) الذي أستقي منه هذا البحث ، مع تعديلهما بتخفيض المبالغة في الثبات ، فهو يعتقد بالثبات وأنا أعتقد ببطء التطور . ولكي تفهموا اعتقادي أصور لكم هذا التطور بتغير لون الماء في برميل كبير ، يدخل عليه الماء الصافي من الأعلى نقطة نقطة ، ويخرج منه الماء القديم من الأسفل من ثقب صغير نقطة نقطة . . وفيما يلي أخلص لكم

(١) الأب عيروط اليسوعي الفلاحون ، تعريب محمد غلاب ، القاهرة ١٩٣٣ .

H . Ayrout : Fellahs d'Egypte , Le Caire 1952 .

نظرية المؤلف المذكور لأنها جديرة بالتأمل قبل دراسة الفلاح المصري من
الناحية الريفية :

إن الفلاحين المصريين يؤلفون أكثر من ثلاثة أرباع الأهلين . وهم بوحدة
طبيعتهم وبأصاتهم يكونون حقاً الشعب المصري ، ذلك الشعب الذي أنتج المدنية
الأولي أو على الأقل أنتج مدنية خاصة عملاً تاريخياً خمسين قرناً من الزمن ، مع
صفاته الشعبية الخاصة على مر الزمن . أهم هذه الصفات : ثبات نوع الحياة : إذ
أن لغته ودينه وثقافته وحكامه قد تغيروا ولكن نوع حياته لم يتغير ، بل احتفظ
بذاته منذ امبراطوريته القديمة . لقد امتلكه على التوالي : الفرس والاعريق
والرومان والبيزنطيون والعرب والترك والفرنسيون والانكليز ، وسواء أكان
الامتلاك عدة قرون أم عدة أعوام فإن الشعب بقي كما هو . شعب قابل للانفعال
ولكنه غير قابل للاستكناه . صبور ولكنه مقاوم ، ومع أنه شعب يعيش في ملقى
القارات وعلى مفترق الطرق الدولية ، وفي بلد كان مسرحاً لأعظم أحداث
التاريخ ، فقد بقي هادئاً ثابتاً كفكاع البحر تحت الأمواج الهائجة . لم يفتت أكثر
من جرائت المعابد ، ولكنه لم يتطور أكثر من تلك الصور الفنية التي تحدت
مرة واحدة ، فتفاصيل حياته اليومية التي تستحضرها نقوش حوائط القبور
الفرعونية ، أو الخرافات القبطية ، أو مؤرخو العرب ، أو « وصف مصر » أو
المحققون الانجليز ، أو رحالة اليوم ... كلها سلسلة من فصل واحد . ونشاهد
الوحدة في آلات العمل كالحراث والشادوف والساقية والجاروف والمنجل
والقفة ، كما نشاهد الوحدة في معاملة الجسم كالوشم والختان ، واستعمال الكحل
والحناء وإزالة الشعر ... مع ثبات العدد الكبير من العادات في الزواج والحداد
والحفلات . أضف إلى ذلك روايات هيودوت ، وديودور الصقلي ، واسترابون ،
والمقرئزي ، وأمثالهم ... لا ثورة ولا تطور . فكيف نشرح هذا التوازن الجسمي

والنفسى عند شعب ما ؟ نشرح ذلك « بالارض » بدون ريب ، كما نشرح ثبات الفن المصري الذين تكون بواسطة الاستيلاء على البيئة الطبيعية : فالخطوط الأفقية الحادة للصخور العربية والليدية قد ألهمت ذلك الشبح المنخفض المستطيل المحتلىء السميكة للعمايد الفرعونية ، وذلك الافريز المتجدد الصور الذي يتممها . ثم إن كومات البردى واللوتوس والقصب التي كانت تزهى على شاطئ النيل قد منحت صوراً فنية تشاهد على هذه الأعمدة وتيجانها التي ندعوها بصور البردى وصور اللوتوس والدورانية البدائية . فمئذ زمن بعيد قد ثبتت في وادي النيل بين « العقل والطبيعة » تجاوب متين . وقد أبرز ملاك مصر المختلفون بكل أعباء سيادتهم هذا التجاوب . يجد الفلاح نفسه موضوعاً بين الأرض وأربابها كأنه بين المطرقة والسندان ، ولكنه بنوع حياته أقرب إليها منه إليهم ، وضرباتهم بالمطرقة قد تزيد التصاقه « بالأرض » . وهذا الاتحاد واقمي إلى حد أن سادة الفلاح باستيلائهم عليه يستولون على الأرض وبامتلاكهم الأرض هم يمتلكونه . وبما أن السبب الأصل لهذا الثبات وهذه الوحدة هو « ثبات تربة مصر ووحدتها » فاننا نستطيع استعارة تعبير (سولي - پرودوم) الذي يتحدث عن : « الزواج القاسي السابق على التاريخ بين جنس وحقل قد صنعا نفسها فيما بينهما » . إن رقة الجنس والحقل قد أنتجت تجاوبات دائمة صيرت الاتحاد متيناً . فمن جهة « الانسان » أي البيئة الاجتماعية الفلاحية بما فيها من تراحم قليل أو كثير في السكان مع تقاليدهم وعاداتهم ، ومن جهة أخرى « الطبيعة » أي البيئة الطبيعية المنافية وهي المبدأ بما فيها من ماء النيل ورواسبه ونباته وجيرته من الرمال .

لنتحرس مع ذلك من الجبرية المطلقة . فالعلاح ليس ثمرة الريف المصري أكثر من أن يكون هذا الريف ثمرة . والانسان حر حين تكون الطبيعة

الزراعية إحدى الممكنات : قد تكون في زمن ما منوطة بإرادة الفلاح وفي زمن آخر بإرادة سيده . فيما مضى زرع الفلاح الكروم ولكن العنب قد يعطي النبيذ لذلك قلت التحريمات القرآنية هذه الكروم . وبالأمس كانت شجيرات التبغ تعطي سطوحاً واسعة ولكن الحكومة حظرت زرعه خلافاً لزراعة الذرة والقطن التي تحتل هذه السطوح الآن .

وبتعبير آخر ليست الشروط الايكولوجية هي التي حددت للمرة النهائية طبيعة الانتاج الزراعي ، لذلك يعارض المؤلف (فيفر) نظرية المؤلفين (رازيل) و (برون) حول تأثير البيئة الطبيعية . ونحن إذ نقبل هذا الاعتراض في الاوساط الحضرية والمدن الصناعية الكبرى ، لا نستطيع إلا أن نعترف بقوة النظرية في الجماعات الريفية ولا سيما في الحالة الخاصة التي ندرسها الآن « حالة مصر » . سنرى في الواقع أن ثمت تماثلاً بين وادي النيل ووحدته وخصوبته ، وبين الجماعة الريفية ووحدتها وخصوبتها . إن رواسب ماء النيل تغلغت في جسم الفلاح ومسكنه وعمله وأسرته ونفسه . ونقلت اليه محامدها ومساوئها . وبسبب أن الارض تجسدت في الفلاح ، كان هذا الاخير ثابتاً الى هذا الحد وكان أيضاً مادياً راکداً .

فالاصلاح إذن سوف يأتي من انتزاعه في سبيل تطويره : ١) انتزاعه من هذا الغلاف الطيني الذي يخنقه ، ورفع ه دون اقتلاع جذوره . ٢) تخليصه من معائب الارض دون محامدها أي تربيته التريبة الحديثة . وهذه التريبة هي عمل الجماعة العليا التي تستثمر الفلاح ، جماعة الصفوة التي بوسائلها و ثرواتها تستطيع مكافأته ، أو جماعة السلطة الحاكمة في الوقت الحاضر .

مصر من الناحية الطبيعية :

يمكن التحدث عن تصنيف مصر بلداً صناعياً . ومنذ الآن توجد طبقة من صغار الصناع ، طبقة عاملة وطنية يمكن دراستها . غير أن انعدام مناجم الحديد والفحم يمنع القطر المصري على الأقل الآن من نمو الصناعة فيه وستبقى بلاداً زراعياً قبل كل شيء . إن مصر بأرضها المسطحة ، وتربتها الرطبة الرخوة ، ونهرها الفيض ، ومناخها الحار الجاف تحقق الشروط الايكولوجية للزراعات الواسعة . رمال وكتل من الجرانيت والجص غير صالحة لأي بذر لولاء النيل ، ولولاء المكان وجه مصر يشبه وجه جارتها الصحراء العربية الفقيرة التي يسكنها البدو والرعاة .

ليس النيل من مولد مصري ، ولكنه يهب مصر نضوجه والتفتح الذي ينهيه . هو يدخل أرضها غنياً بجريان (٥٠٠٠) كم ، ومحملاً بالرواسب التي يجلبها معه إبان هذا السفر العظيم خلال أشد الاراضي تبايناً . هو يتجدد في كل عام وينظم بحياته حياة مصر .

وطريقة الري بالحياض الضاربة في القدم والتي لا تزال إلى اليوم تشمل مليوناً من الأفدنة تنحصر في إحضار الماء في زمن الفيضان عن طريق قنوات صغيرة إلى سطوح واسعة من الارض محوطة بمجسور عالية فتبتلع الارض الماء إلى حد الشبع ، والباقي يسيل في سير بطيء بعد أن يضع طبقة من الرواسب الدقيقة . وعلى أثر انسحاب الماء مباشرة (نوفمبر) يبدأ العمل في الزراعات التي تأخذ في النمو إلى الحصاد دون احتياج إلى ري آخر . وبعد هذا تظل الارض باثرة إلى الفيضان التالي ، ومع ذلك فزراع الارض الواقعة في الحياض لكي يستفيدوا من زراعة صيفية بعد غلة الشتاء يلتجئون إلى الماء النابع من الارض

بواسطة الماكينات التي انتشرت بكفاية في تلك الاصقاع .

أما طريقة الري الذي يدعى بالدائم والذي أدخل في سنة ١٨٤٠ وصار ممكناً بفضل الاشغال الفنية كسد خزان أسوان ، فهي تسيطر على كل الدلتا وعلى جزء عظيم من الوجه القبلي . ففي هذه الجهات لا يفيض النيل بل يبقى محجوزاً في خزانات وموزعاً بواسطة السدود ويتفرع إلى عدد كبير من القنوات التي يغذيها في جميع الفصول . وبفضل التشققات التي ترسمها أشعة الشمس في الصيف تجف الأرض ويتجدد هواؤها .

إن وادي النيل المحصور بين الصحراوين اللتين تقوم وراءها الحدود السياسية ، هو ذو طبيعة زراعية في جوهرها . وحياته بعبر عنها بنعمة واحدة هي : الاخضر ذو الزراعات المستمرة التي تمتد في ريف عظيم واحد يدر الفرى والمدن . فقبل حصاد الذرة مثلاً لا يرى المرء على ارتفاع قامة الرجل لا القنوات ولا قضبان السكة الحديدية التي تظهرها الاعمدة التلغرافية ولا المنازل المنخفضة المتجمعة ... على نحو ما في مروج هولاندا أو روسيا الرطبة . يرى فقط ، وتحت سماء لا تمطر ، حقولاً واسعة بلونها الاخضر الدائم . غير أنه حين يبتعد عن وادي النيل نحو السويس ، أو نحو دير وادي النطرون القبطي ، فإن الصحراء تجتاحه من كل جهة ، وإذ ذاك يعتقد أنه قد غادر البلد ، وتخطر في ذهنه قضية تماثل خريطة الماء مع خريطة البشر . أما في الغرب فيلتقي بالواحات البدوية : الخارجة والداخلة ، والفرافرة وسيوة ، وأخيراً في الشرق يجد ، نحو شواطئ البحر الاحمر ، استغلال البترول والفوسفات ، وأسراراً من الفلاحين الصعائدة قد استقرت للأشغال .

إن ازدهام التعمير في وادي النيل تشرحه ظاهرة واحدة هي انتفاء معظم الشروط الايكولوجية التي تساعد على نمو الزراعة ونمو النسل : (المناخ الحار

(٢) الري الدائم . ٣) طبيعة الوادي المسطح مع إمكان تقسيمه إلى قطع صغيرة تساعد على الاستغلال الصغير ، سواء لإيجاراً أو ملكاً ، مع تكاثر أفراد الأسرة « الاولاد » في سبيل الاستغلال . ٤) تكديس الزراعات المقوتة التي تغذي شعباً كثير العدد في مكانه : كالذرة والقمح والعدس والفول . . . مع زراعة القطن التي تجلب المال الكافي لحاجيات التوسع والتكاثر .

الصفات البيولوجية والابكولوجية :

جسم الفلاح : إلى أية أرومة ينتسب الفلاح المصري المعاصر ؟ مثل هذا السؤال يجاب عليه بنظريات : فهناك نظرية (فولانيه) التي تعتبر المصريين من أصل أسود وهناك نظرية (فيفان دينون) الذي يعزو إليهم أصلاً قوقازياً ، وهناك نظريات أخرى ترى الأصل سليبياً أو صينياً أو حبشياً . . . أما (شانتر) فبعد إجراء مقاييس علمية على أجسام بشرية تبلغ عدة آلاف من المصريين والقديمة ، قد استنتج أن المصريين هم أفريقيون جوهرراً (أي من أرومة ليبية) مع افتراض تسرب آسيوي . . . وأخيراً النظرية السائدة تقول في الوقت الحاضر : لا بد أن يكون آسيويون ، عرباً أكانوا أم بابليين ، قد احتلوا وادي النيل قبل التاريخ فانصهروا (رغم سيادتهم) في السكان المستقرين سابقاً الذينهم خليط من بني البلاد ومن الحبشيين . وهذه النظرية تسمح بإدخال المصريين في مفهوم « إنسان البحر الأبيض المتوسط » السامي الحامي مع مشابهاة حبشية عند حدوده مع الأصول السوداء . على أننا إذا رجعنا إلى الصور الجانبية المرسومة في الجدران والهياكل نتأكد من وجود ثلاث أرومات : ١) الساميون Dolichocéphales الذين تفوق أطوال رؤوسهم أعراضها بنحو الربع ، وهم

ذوو قامات متوسطة . ٢) أبناء شواطئ* المتوسط Brachycéphales الذين أعراض رؤوسهم تعادل أطوالها ، وهم ذوو أنوف مستقيمة قصيرة . ٣) اللوبيون الذين يماثلون الأرومة الثانية لكن أنوفهم مقوسة . ومن امتزاج هذه الأرومات الثلاث مع قليل من العناصر الأجنبية تكون الجنس المصري بتأثير وحدة الحياة الزراعية .

على كل حال يمكن إرجاع الفلاحين المعاصرين إلى الأصل القديم الفرعوني لأن العبودية والاحتقار اللذين كان الشعب الأصلي يرسف فيها منذ زوال عصر الفراعنة قد حفظا جنسه . فالفاتحون منذ الفرس والرومان ... حتى الافرنسيين والانجليز كلهم نهجوا سياسة واحدة هي السيادة على مصر للاستفادة من ثرواتها دون أن يشار كوا الشعب المنتج أو يخلطوا مكانه . ولم يكن المستعمرون كثيرون العدول إلى حد يكفي لتغيير الجنس ، فبقى نوع حياتهم مختلفاً . وقد فرض العرب بقوتهم كفاتحين ، لغتهم ودينهم وطائفة من عاداتهم إزاء النساء وصلاحتهن ، غير أن الاهلين الأكثر عدداً مرة ولا سيما في القرى ، ونساءهم الأكثر خصوبة وثبات نوع حياتهم ، كل ذلك قد طبع العناصر العربية بطابع النموذج المصري . وعندما استقر العرب على الارض السوداء اعتنقوا تقاليد الحرائين القروية ... وبعد ثلاثة أو أربعة أجيال لم تعد الطعمة تمتاز عن الشجرة ، إلا في حال عدم الاختلاط أي في حال العرب الذين ظلوا رحلاً ينقلون القطن على الجمال وهم « البدو » الذين بقوا يختلفون عن الفلاحين بتقاسيم وجوههم الأكثر دقة وأمرجتهم الأشد عصبية . وهناك اختلاط آخر في الجنوب بين السود والفلاحين غير أن النموذج المصري هو الذي ساد أيضاً .

الفلاح ذو بنية سميك ، لكنها ليست بدنية . حجمته ووجهه عريضان ، لكن جبهته ضيقة . عيناه سوداوان ووجنتاه بارزتان إلى حد ما . أنفه سميك

وشفته ضحمتان لكنهما غير مقلوبتين . فكه ثقيل وتقاسيمه غليظة لكنها ليست
 فظة . كتفاه منحنيان على الصدر لكنها ليستا منخفضتين . مواضع الربط من
 جسمه قوية . لون بشرته اسمر ينمطف نحو السواد كلما تقدمنا نحو النوبة .
 شعره أسود قليل النمو ، ويجعله قصيراً إلا حين يصدم الموت ذكراً
 في منزله ، ولكنه يحتفظ عن طيب خاطر بشاريه كاحدى علام الرجولة ، فاذا
 صار شيخاً موقراً أرسل لحيته . وعندما كان طفلاً كان أهله يحلقون رأسه
 تماماً ولا يدعون منه إلا الخصلة الطقوسية . أما شعر النساء فلعدم العناية به
 يظل ضيلاً ، وهن يطلن بحبال صهباء أو سوداء عذارهن الهزيلة التي هي
 دائماً مخبوءة تحت النقاب أو محتواة في منديل . وإزالة الشعر هي غامة منذ
 القديم لدي الجنسين وذلك بالموسى أو بمعجون السكر مع الشبة . ويجملون
 البشرة بتقاليد قديمة كالتشربات والززقات والطلاءات ... كلها ترمي
 إلى التجميل أو الوقاية والعلاج .

تنقب شحمتا الأذنين في الفتاة الصغيرة ويثقب أحياناً أحد حواجز أنفها
 وإلى أن تنال هذه الثقوب أقراطها تحتفظ بخيوط . أما الغلمان مسلمون وأقباط ،
 فانهم خاضعون معاً لعملية الختان التقليدية التي يجريها حلاق القرية ، قبل أن
 يتجاوزوا السن العاشرة ، وللبنات تجري عملية البتر . وإجمالاً لا يشرط الفلاحون
 وجوههم كالنوبيين (البرابرة) ولكنهم يلونونها ويوشمونها . والوشم يؤلف العلامة
 المميزة للشعب . فالرجال والنساء موسومون بها منذ المراهقة . في وسط الجهة
 أو الذقن أو على الصدغين أو الصدر أو الظهر ... وهي نقط أو صور هندسية ،
 ورسوم ساذجة كسيف أو شجرة أو أسم أو تاريخ . يصنعها اختصاصي
 أو بدوي ، رجل للرجال وامرأة للنساء وذلك في الهواء الطلق في إحدى زوايا
 الطريق وفي يوم السوق . يرسم حسب النموذج المختار الخط فوق الجلد بآلة

مدينة ذات ابر عديدة محبوكة أو بنوع من الاختام معد لطبع الوشم ثم يلون الرسم الدامي بسواد الدخان ممزوجاً بالزيت او الكحول فيحصل بهذا على لون أخضر ثابت . أما الحناء فتصنع بها الايامى شعورهن لاستعادة الشباب ظاهراً ، والشابات لتنظيف رؤوسهن وقتل القمل ومنع سقوط الشعر ، والأطفال لطلي الجمجمة المحلوقة والأيدي والأقدام ، ولكن أيدي النساء واقدامهن لاتلون إلا في الحفلات الكبرى مرة أو مرتين في العام . وترجع عادة الحناء إلى التقاليد المصرية القديمة التي قوى العرب استعمالها ، لكونها لصقة صحية تحفظ الأقدام والايدي . أما الكحل فيبرز الحواجب والاهدا ب سواده ويوسع العيون ظاهراً فضلاً عن كونه علاجاً . ومن السهل ان نلاحظ أن كل هذه التجميلات الاصطناعية ، تؤلف في الوقت ذاته علاجاً للوقاية أو الشفاء ، مع كونها ذات علاج سحري : فالختان يكرس ، والوشم يرمز ، والحناء تعيد الذكرى والكحل يقصي العين الحاسدة .

الصحة والموض : لا يستحم الفلاح للتلذذ أو النظافة ، بل ينغمس في الماء أثناء عمله أو لسبب ديني (التطهرات الاسلامية) . وهو معرض للهواء والشمس والارض ولا تفصله ملابسه البسيطة عن هذه العوامل الطبيعية التي يتلقى منها قوة الحياة الطبيعية . نومه لا يستأنم الفراش الوثير ، وأنواع الجروح والزكام والروائح المقيئة لاتضايقه ورغبته في الاكل لاتعرف التقزز خلافاً لاسمعه الدقيق الذي يحس بأقل الضجيج .

غير أن هذه الحياة الطبيعية قد تنقلب عليه أحياناً وتنقل إليه أمراضاً عفنة تشوّهه وتضنيه وهو غير حذر إجمالاً . فالسل والجذام يكادان يكونان وراثيين . والبلهارسيا والانكلستوما والملاريا تحدث إصابات كثيرة وكلها تأتي من عدم النظافة وفي الاتصال بين الفلاح والارض . وأول مايلفت النظر أمراض

العيون الناتجة عن سطوع الشمس والغبار السميكة والذباب والرياح الرملية بدون أمطار . فلا يكاد الطفل يفتح عينيه للحياة حتى تلتهم وتقيح إن لم تنظف منذ الطفولة الاولى .

تنتقل البلهارسيا بواسطة البول ، والانكلستوما بواسطة البراز والارض . أما الملاريا فبواسطة الحقول (حقول الارز والبرك) وهي تهاجم ٦٥ ٪ من الفلاحين وفي بعض قرى الشرق ٩٠ ٪ منهم . والذي يصير هذه الامراض مرعبة اكثر من خطورتها هو انتشارها ونموها . يضاف الى ذلك البول الدموي وهو ليس خطراً في ذاته ولكنه يتعقد بسبب الازهال ويجلب الحصى في المثانة والفروج وقد يصعد التقيح الى الكلى والكبد والعين ، ويبقى سنين طويلة يتبول الفلاح اثناءها دماً ويعاني حياة ضعيفة . ثم تأتي مشكلة الماء الصالح للشرب .

المشرب والمأكل : فالفلاح قد يشرب ماء البئر وماء النيل ولكنه في أغلب الأحيان يشرب من قناة الري حيث تبول الماشية ويفسل الفلاحون الاواني والملابس . في كل مساء تستحضر الفلاحة من ماء القناة ما على الجرة الكبيرة « الزير المسند الى الحائط » فيصفو الماء فيه قليلا ويبرد لوجود مسام الفخار . أما القطرات الصافية تماماً والتي تتساقط من الاسفل بالترشيح فتذهب ضياءاً أو يشربها الدجاج عوضاً أن يجمعها الفلاح في قلة قابلة للامتلاء .

أتت القهوة إلى مصر مع صوفية اليمن في نهاية القرن الخامس عشر ، ولكن الفلاح يشربها أقل من سكان القاهرة بكثير ، لأنه يشرب الشاي بكثرة هو وافراد أسرته . وشرب الشاي بدعة سرت من طرابلس منذ الحرب العظمى فاستأصلت في بيت الفلاح المصري . وبعض الفلاحين يحملونه معهم « بكارهم » إلى الحقول ، وأشدهم فقراً ينفق على الاقل ثلاثين قرشاً في الشهر ثمن الشاي والسكر ، وحينئذ لا يكون لديهم النقود لشرائه يتمددون على الارض ولا

يستطيعون عمل شيء* . أما كيفية شربه فيغلونه حتى يسود فيصبح شراباً غنياً بالتانين والقلويات فيحدث مع طول الزمن اضطراباً في الجهاز العصبي والمعدة وأثراً سيئاً في الخلق . ومع ذلك يبقى الشاي شراباً مفضلاً ما دام الفلاح يسلى وينسى . وقد حاولت الحكومة رفع الجمر ، لكن الشر لم يقل لأن الفلاح يحكم العادة يستغني عن الأكل هو وأسرته ولا يتخلى عن الشاي . بل إن رفع الجمر زاد الشر سوءاً ، لأن بعض التجار صاروا يزيفون صنع الشاي من نشارة الخشب وقشر الفول والملحبة مع بقايا الشاي المستعمل في المقاهي والبواخر ويبيعونه للفلاح التمس حينئذ لا يستطيعون جلبه بالتهريب . ويعتقد الأب عيروط مؤلف الكتاب (١) الذي أخلص لكم منه هذا البحث ، أنه يوجد اتصال بين نمو الرغبة في التسمم وبين انتشار مشروع الري الذي هباً الجو للبلهارسيا والانكلستوما . نعم لقد ضاعف المشروع ثروة مصر ولكنه ضعف صحة الفلاح وقلت كفايته للعمل فلجأ إلى المنبه الذي تحت يده . وبما أن الرجال هم أكثر إصابة من النساء بسبب حياتهم في الحما والماء ، فهم أكثر استهلاكاً للشاي منهم . أما التبغ الذي انتشر في مصر منذ القرن السابع عشر فلم تعد زراعته مستطاعة بعد المنع الذي صدر عام ١٨٩٠ . فقد أريد تجنب خطر الحشيش مع إرضاء تركيا وصار بالامكان استيراده خاماً (من تركيا واليابان ...) وتحضيره في مصر . وهو يكلف الفلاح ثمناً باهظاً لا يشجعه على تناوله بمقدار ما يتناوله أهل المدن الذين اختصوا بشربه مع القهوة بكميات كثيرة .

يأكل الفلاح ثلاث مرات في اليوم : عند شروق الشمس قبل الذهاب إلى

(١) أظن الصفحة ١١٦ من الكتاب المذكور سابقاً ، والصفحة ١٠٨ من الطبعة الفرنسية الجديدة لعام ١٩٥٢ . في هذه الطبعة يشير المؤلف الى طغيان الكوكالا في المدة الأخيرة بحيث قلت انتشار الشاي والقهوة نسبياً لكنها جاءت خطراً على ميزانية الفلاح الهزيلة .

المعمل (فطور) وعند الضحى في الحقل (غداء) وعند الشفق في المنزل (عشاء) . يأكل مع أفراد أسرته وهم جاثون « متربعون » وغالباً ما في الهواء الطلق ، وفي صحون من الفخار مشتركة وإبريق الماء الوحيد الذي يمر من فم إلى فم . ولما كان الفلاحون لا يربون الحيوانات إلا قليلاً ، وكان اللحم غالباً فانهم قليلاً أكل اللحم ويأكلونه بكثرة من الضأن والبقرة أثناء الأعياد ، والفقراء منهم يتربصون أحد الاثرياء الذي يذبح ثوراً أو جاموسة بمناسبة النذر والحداد . وطبيعي أن الذين يعيشون على شواطئ النيل والقنوات والبحيرات يصطادون بالجارية أسماكاً صغيرة يلقونها بالزيت ، يضاف إلى ذلك البصل واللفت والخيار والفلفل والعدس والرز مع الخضر المطبوخة كالباميا والملخية اللتين يأكلها الفلاح بشراهة ، وخصوصاً « الفول المدمس » الطعم الوطني مع الخبز الذي يصنعه الفلاح من الذرة التي يزرعها . وقد تحين الفرصة لأكل الحلوى فبأكل تمر أو يقضم بكل أسنانه قطعة من البطيخ أو يمص عوداً من القصب أو يقرض « كوزاً » من الذرة الشامية .

تشغل زراعة الذرة بعد زراعة القطن أكبر مساحة إذ تبلغ نحو مليونين ونصفاً من الأفدنة . ولفظة الذرة هي الاسم العربي لهذا النوع من الحبوب وتدعوه وزارة الزراعة بالذرة الشامية أي الآتية من سورية لتمييزها عن الذرة الرفيعة أو المويجة التي هي الغراس القديم . وقد احتلت الذرة الشامية وادي النيل لأنها تلتئم مع الفلاح ومع التربة حتى اشتهرت بأنها أفضل نوع هي وذرة موزمبيق . يبذر الفلاح في يولية ثراً ويخصص لها كثيراً من السماد ويسقيها سبع مرات . وبعد ١٣ - ١٥ أسبوعاً يقتلع باليد الاحطاب الطويلة المحملة بالسنابل هو ونسأؤه وأولاده الذين يفصلون رؤوس الذرة أولاً ثم يقيمون من الاحطاب المجردة شبه سياج حول ثل الثمار ويقشرون داخل هذه الدائرة السنابل

التي ينقلونها إلى الدار على حمير قصيرة وبعدها الاحطاب .

ويستعيد القمح اليوم أهميته القديمة كما كانت في تقاليد مصر الزراعية بعد أن أفقده إياها القطن ، لكن الفلاح لا يزال يتبع في زراعته الطرائق القديمة التي ذكرنا أمثالها في البحوث السابقة . وبأني بعد القمح من حيث الأهمية الأرز والفول والبصل وقصب السكر والشعير والعدس والتمر . أما البرسيم فهو غذاء الماشية الشتوي ، ويزرع في كل مكان بنسبة ٢٠ ٪ من مجموع المساحة لأنه يغذي الأرض كما يغذي الحيوانات . ولما كان أحد البقول التي تحجز آزوت الهواء في التربة وكان كلاً جيداً ، فإنه ينبت بسرعة وبحالة اقتصادية .

هذه التربة التي بمعجتها الفلاح بكل أعضائه يسلم إليها نفسه بدون احتياط وهوى حينما تكون ملكه ، ولكنها لا تكاد تكون ملكه أبداً ، فهنا تملك الأرض الرجل وليس هو الذي يملكها وهنا أيضاً مفتاح سر كسله لأنه لا توجد من بين الحالات التي يعمل فيها أية حالة تحرره ، ولتلاحظه في كل واحدة منها : (١) في حالة السخرة : نعم إن السخرة ألغيت عام ١٨٩٣ ولكنها بقيت عملياً في حالات المنفعة العامة مثلاً . عندما يكون فيضان النيل ككارثة يعمل مئات من الفلاحين ليلاً نهاراً تحت ضغط الموظفين والمراقبين لرفع الضفاف أو الجسور أو إعداد المصارف أو السهر على الخزانات . (٢) في حالة المياومة : حين يستأجر « الرئيس » الفلاحين لحفر إحدى القنوات أو تحسين أحد الطرق ، يحملون القووس وينفذون العمل تحت رقابة ضيقة على طريقة المساجين وفي الغالب يكون أحدهم بعيداً عن قريته ولا ينال أكثر من ثلاثة قروش يومياً . (٣) في حالة الشراكة : إذا كانت الحالة السابقة اليومية مرتبطة بالاستغلال الكبير ، فإن حالة الشراكة مرتبطة بالاستغلال الصغير . يشترك المالك مع الفلاح ليستغل بواسطته قطعة ذات (٥ - ١٠) أفدنة ، وهو يدفع الضرائب وتكاليف الري

ويقدم المواد الزراعية والماشية والبذور والاسمدة ، بينما الفلاح — وهو رب الاسرة — يقدم شغله أي اليد العاملة الضرورية لكل زراعات السنة من الحرث إلى الحصاد ، والغاية خارجة ، وهو لهذا يتسلم الخمس أو الربع من مجموعة إنتاج القطعة ، أو هو يحتمل نصف جميع التكاليف ، وإذا ذلك يأخذ نصف الغلة ، والعقد — وهو دائماً شفهي — يحمل عدة تغييرات . ٤ (في حالة الاستئجار : وهنا الفلاح مقال أول أكثر منه في الحالات الأخرى لأنه يستأجر حقلاً بشرط كمال التصرف من ٦ - ٢٢ جيباً حسب الجهات . وهو يلتزم بكل النفقات ، ولكنه يحتفظ بكل الغلة ، والمالك ليس عليه إلا دفع الضرائب ، وعقد الإيجار في هذه الحالة واسع المدى يشمل زمن الترتيب الضروري للزراعة أي سنتين أو ثلاثاً . ٥) في حالة التملك : أي إذا كان الفلاح مالكاً . إن أكثر من مليونين من الفلاحين يملك كل واحد منهم قطعة من الأرض ولكنها بالنسبة إليهم صغيرة بحيث لا تكفي لشغل الاسرة ولا لقوتها ؛ مع ذلك فالمالك الصغير بين السواد الريفي يمثل الطبقة الممتازة ، والمثل الأعلى لكل فلاح هو أن يصل إلى هذا المستوى ويتزوج ويكون له أولاد ويملك جاموسة .

على أن الحالات السابقة منها اختلفت وتعددت فإنه يبقى معها تشابه وصفات مشتركة : ١ (التشابه في الفقر بسبب أن الفلاح لا يعرف التديير ولا الادخار على اعتباره جاهلاً ومنعزلاً وضعيفاً . فالذي يجني ثمار عمله هو الأكثر منه علماً وثروة وقوة : أي المصرف والمرابي والمالك . لذلك ينطبق عليه المثل الريفي القائل « إنه كاللبرة التي تكسو الناس ديناً هي تبقى عارية » . ٢ (التشابه في التبعية أي أن الفلاح لا يستطيع أن يفرس ما يريد ولا متى يريد . فهو إذ كان ميالوماً يعمل تحت أمر المراقبين ، وإذا كان شريكاً أو مستأجراً فإن زراعته ينظمها رسم المالك ، وإذا كان هو نفسه مالكاً فإنه يتبع في التواريخ وأنواع النبات أوامر وزارة الزراعة وليس لديه أية حرية ولا أي

ابتكار لا في الطريقة ولا في الزمن ولا في الاختيار . ٣) التشابه في تحقق أقل قدر ممكن ، أي أن الفلاح كان استغلاله سيئاً ، فانه على الأقل مثلاً كد من قوته ، إذ لا يموت أحد في القرى جوعاً ، وفي أسوأ حالات العمل تظل وسائل الارض باقية . ٤) التشابه في التعاون الأسري : أي أن إنتاج الأسرة منوط بتعاون أفرادها في العمل كأنهم كائن واحد يؤدي وظيفة واحدة ، وهذا الكائن الحيوي مؤلف بقيادة الرجل من المرأة والاولاد والجاموسة والحمار .

الصفات الاجتماعية والنفسية (١) :

تتألف الخلية الريفية المتوسطة ، أي الأسرة العادية من الاعضاء التالية : ١) الفلاح وهو رب الأسرة يقدم أيام عمله . ٢) زوجته وهي اليد العاملة المساعدة للبذر والجني ، تربي الدجاج وتصنع الزبد والجبن وتبيع هذه المنتجات . ٣) اولاده الذين يقتادون الماشية إلى الحقول وموضع الاستحمام وبلتقطون الارواث ... وهم إبان ٥ - ٦ أسابيع يشتغلون مقابل أجر للجني أو مكافحة دودة القطن أو الحليج في المصانع . ٤) جاموسته التي تبحر المحراث وتدرس القمح وتنتج الحليب والارواث كوقود أو سماد . ٥) حمرة الذي ينقل السباد والغلة والأفراد . هذه الخلية الريفية يمكن أن تحقق الحصول على القوت اليومي مع توفير بعض الجنيئات للنفقات فوق العادة كأنثتان أو الزواج أو الجنازة . وإذا تحسن الحظ فإن الفلاح بجمعه قرشاً قرشاً في قدر يدفنه في الارض يستطيع في النهاية تحقيق حلمه وهو شراء جاموسة أو بضعة قراريط من الارض .

تسكن هذه الخلية المتوسطة في منزل طيني وهو الذي يوجد بنسبة ٩٢ ٪ من البيوت ويمثل الوحدة الريفية وثباتها بدون طراز وبدون عصر . الحلي قديم

(١) أعاني في تلخيص الفقرات التالية حتى آخر البحث الطالبان في كلية التربية الآستان اميرة أزهرى ، ملك صواف ، وذلك عن الكتاب المذكور سابقاً .

والقرية أقدم ولكن المنزل يرجع تاريخه إلى عشرين سنة ، ذلك لأن مواد البناء وطريقته تفرضان على البناء حياة قصيرة . والفيضان والمطر في مصر السفلى ، والحرائق قد جرت اصلاحات متتالية سوف لا تدع عماء قريب شيئاً قديماً . والذي يثبت بدل القديم إنما هو منزل من الآجر في مصر السفلى ، أو من الحجر في مصر العليا وفي بعض الاحوال منزل كالعش يبنيه أنصاف الرحل من الخرق والصفيع والطين ، أو كوخ من القصب وحطب الذرة يبقى بقاء أعمال الشتاء الكبرى .

يتعلق مسكن الفلاح كعمله بالارض وبنوع الحياة وبالنظام الاجتماعي . فالارض التي تطمعه هي نفسها التي تؤويه . المسكن « أرضي » والمادة منها هي التي تعطي الصورة . من الصلصال وقش الشعير أو الفول وأرواث البقر وماء النيل يتكون الملاط المستعمل في كل مكان والذي يبسط من الجانبين على حاجز من القصب أو السعف . وقد يصب في قالب من خشب لصنع « اللبن » الذي منه تقام الحوائط ، ومن المزيج نفسه تطلّى داخلاً وخارجاً . وعندما يكون الفلاح أكبر سعة يبني منزله على أساس من آجر أو على قواعد من حجر الجص حتى لا تأكل الرطوبة أسفل الحوائط . ولكي لا تتعرض متانتها للخطر ، تحتوي على قليل من الفتحات وتبقى بفضل ذلك مؤدية وظيفتها كواقية ضد إفراط النور والحرارة والبرد . ومن الباب تتكون الاتصالات الوحيدة بالخارج . إن الضرورة وعادة وضع الاخشاب والقش فوق السطح تحدثان غالباً الحرائق التي هي بسبب اقتراب المنازل تمتد إلى الحي ثم إلى القرية . وشرارة تنبعث من التنور أو « الوابور » مع حرارة الصيف تكفي لوقوع كارثة ... إن كثرة حرائق القرى إحدى بلايا مصر ، وفي كل عام تسجل إدارة الأمن العام خسائر مرعبة .

يمكن حصر المسكن في حجرة وحيدة ذات سقف منخفض ولكن

أكثرية المنازل تحوي حجرتين أو ثلاث : ١) قاعة « مندره » هي أكثر أجزاء البيت نوراً بسبب الباب ، وهي تستعمل الاستقبال ولنوم الضيف وتحوي « مصطبة » لهذه الغاية . ٢) حجرة النوم والطهي وهي تطل على القاعة وفي إحدى زواياها التنور المبني بالآجر ذو سقف مبسوط ينام فوقه شخصان في الشتاء . ٣) ردهة صغيرة « زريبة » في الداخل وبدون أي مدخل آخر غير الباب العادي ، وهي نصف مغطاة بحطب الذرة تحبس فيها الجاموسة والحمار .

غير أن التفريق ليس صريحاً لأن القاعة قد تستعمل كحجرة للنوم ، في الصيف مثلاً ، أو كحجرة للطهي في الشتاء ... والدجاج يقطن في كل موضع ، والحمام يسكن في ثقب محفورة في الحوائط ... والكلب صديق الفلاح ينبج في المكان المناسب ليلاً نهاراً . أما أرضية المنزل فهي من تراب مضغوط . وفي الزوايا بدون نظام ، الاثاث والحصر والاعطية من القطن والمائدة المستديرة المنخفضة والصندوق الخشبي الذي يكس فيه كل شيء : هو هدية الزواج مصبوغ بألوان تذكر صاحبه بيوم الفرح العائلي ... هذا مع العلم أن الاسرة تضم عدا الأب والام وأربعة أو خمسة أولاد ، الجد والجدة وأحد الاولاد المتزوجين أو أكثر .

عندما يريد الفلاح أن يتزوج ، إذا كان كبيراً ، فهو يعالج المسألة مباشرة مع والد المختارة ويدفع له المهر . وإذا كان صغيراً ، والرشد في الـ ١٨ ، فإن والدته تشرع في التتقيب بين ذوي القربى والجيران لتعثر له على فتاة من الـ ١٤ — ١٦ سنة ... وفي يوم الزفاف أي حينما تترك العروس منزل والدها إلى منزل زوجها ، فإن الجهاز المشتري بضمن المهر ، يحمل على جمل ويمر خلال القرية يتقدمه الفتيات ويتبعه المغنيات ... وذلك بعد الظهر قبل رحيل العروس حيث ترزحهم جماهير النساء والاطفال لرؤية الجهاز ... وفي المساء يتألف الموكب فتركب العروس

الجلد ، ويطلق الرجال البنادق في الهواء (وهو تأثير بدوي) بينما تتعاقب زغاريد النساء وجوقاتهن ويكون الزوج هو الآخر من جانبه قد استعد فاستحم في منزل أفضل أصدقائه ؛ وقد نقلت إليه ملابس الحفلة واجتمع الناس في الخارج ليبتعدوا خروجه . وأخيراً وبعد أن يستعد يحيطه رفاقه بشموع ويتألف منهم صف يحمل النور ، وهو يمسك منديلاً أبيض يضعه على وجهه كما لو كان يتحجب ، وهم يترنمون بالأغاني ودوي الرصاص ، وتلقي عليهم النساء قبضات من الملح . وحين يصل الموكب إلى منزل والد الزوج ينتزعه أصدقاؤه من الجمهور ويجذبونه إلى الداخل حيث تكون العروس موجودة .

إن مزاج الفلاح شهواني حاد وأشد منه مزاج الفلاحة التي تتمتع بصحة أحسن لا تبتاعها عن أمراض البلهارسيا نسبياً ولا أنها أصغر سناً ؛ ولكن نار الهوى لا تدوم طويلاً لأنها تفقد فتتها في الثلاثين . مع ذلك تبقى شديدة الارتباط بزوجها بسبب الاولاد الذين أنجبته . فكل منها يجعلهم فوق كل شيء : هي لكي تنال اعتباراً اجتماعياً مع العلم إن العقم وضاعة قد يسبب الطلاق أو تعدد الزوجات . وهو لكي يفوز بخلفاء يسمحون له بالراحة وبإصدار الاوامر . وهكذا يكون النسل كثيراً وبقدر ما يكبر الاطفال تنال والدتهم من الاحمية . على أن الذي يربط الرجل بالمرأة أيضاً هو مهارتها وسلطانها اللتان تفوقانه غالباً ؛ إن الرجل نهر والمرأة جسر ، (مثل فلاحي) .

تحتفظ الفلاحة بملكية الاثاث الذي أحضرته يوم زواجها وبشمن ما تبيعه . هي تدخر وتعيّر زوجها ، وهذا يمطيها شيئاً من السلطة . وإذا اضطهدا فانها تنسحب إلى منزل والدها تم تضع لعودتها شروطاً كفسطان أو قرط ... إن حاجتها أقل من حاجته إليها . « يروى في هذه المناسبة أن امرأة كانت تولول أثناء خطر الفيضان . فقيل لها لا تحزني فقد أخذ منك زوجك وسيرد إليك . فكانت

تقول ليس زوجي هو الذي أبكيه ، وإنما هي جاموستي التي لا أجدها . ابجثوا لي عن جاموستي .

تستمع الفلاحة بالحرية والسلطة ما دام لديها من الحكمة ما يجعلها لا تخرج على التقاليد . هي تذهب وتجيء وتحدث مع رفيقاتها كما تريد ، ولكن الولد لها إذا فوجئت في رفقة رجل أو منفردة في مكان لم تعود . وإذا هوت في الأثم فإن زوجها يتهمها أمام والديها ، وإذا ذلك يتعهد أبوها أو أخوها أو ابن عمها بقتلها . يمكن أن تدير المرأة المنزل وإدارة واقعية ، فهذا يتجاوز عنه . ولكن الولد لها عندما تقصر في احترام زوجها كأن تمشي أمامه حين يذهبان إلى السوق ، أو أن تتحدث معه بصوت عال بينما هو يتحدث أو يلعب مع رفاقه . هو لا يدعوها البتة باسمها بل « يا مرة » أو يا بنت أو يا أم فلان « اسم ابنها الأكبر » . وهو يترأسها بتصنع احتقارها وبعدم ابداء أي حنان نحوها . وبقدر ما يتقدم في السن يتطلب الاحترام ويكتفي به .

عندما يولد الطفل تعلق خرزة ررقاء في عنقه لتجنب الحسد ، ولنفس السبب يخفي الغلام الذي يتباهى بجماله تحت ملابس فتاة إلى الفطام ، وأمه ترضعه إبان عامين على الأقل إرضاعاً كثيراً بدون تبصر (أنظر الشكل ١١) قد يحدث التهابات في المعدة والأمعاء . وحين تخرج المرأة من الدار تحمل الطفل على كتفها كأنه يركب حصاناً ، وهذا لا يمنعها أيضاً أن تحمل فوق رأسها أشياء أخرى كالجرة أو الحطب . وحين تعمل في الحقل تترك وليدها على الأرض يحمل الطمي إلى فمه ويصيح وينام ويعتود . وإذا بكى طويلاً ، تأتي أي أم من الطريق تعطيه ثديها .

يظل الطفل في المنزل حتى الخامسة . يؤلف الحيوانات أولاً ثم لا يلبث أن يقودها . يقود الجاموسة إلى القناة أو حول الساقية « الناعورة » ويركب الحمار

إلى الحقل ويقذف بالحجارة الطيور السارقة ويجمع القطن بل يبذره . لكنه يلعب خلال ذلك بينما يكبد الرجال في الحقول . وأول ما يلاحظه الداخل على القرية هو الاولاد الذين يعبثون عراة في المستنقع ويتعلمون السباحة وبطونهم متنفخة لأنهم يأكلون من كل شيء . إن آباءهم يحبونهم إلى درجة الجنون بحيث يحدث كثير من المنازعات من فرط الحساسية بهذا الحب : إذا أساء أحد معاملة الابن أو ضربه فإن الأب يثور وقد يخرج ابنه من المدرسة ويأمر له بانتقام شديد . وكذلك الاطفال يحبون آباءهم وأمهاتهم ويبدو هذا الحب ناشئاً عن تقاليد اجتماعية ودينية ومن الخوف والسمعة أكثر من نشوئه من العاطفة .

تتلاشى الخلية العائلية في جماعة الاقارب والاصهار ، وقبل تلاشيها تكون منصهرة تحت سلطة عميدها . وبهذه الرابطة كانت تشترك في الاعراس والجنائز وتنقسم لشرف أعضائها . غير أن هذه الرابطة لا تدوم في أكثر من ثلاثة أجيال لأن الاسرة الرفيعة هي أسره بدون أجداد وبدون اسم عائلي وبدون خصائص ، خلافاً للأسرة الصينية التي تحتفظ بعبادة الاجداد وشرف الاسم . إن الاسرة التي تفطن منزلاً غير متماسك قد لا تكون أكثر تماسكاً منه . إنها جماعة تعمل في الارض ، والاطفال يولدون للعمل في الارض والحياة الخاصة تتابع في إطار من التقاليد التي تربطها الارض .

ليس ثوب الفلاح بأكثر حظاً من مسكنه في التنوع أو التوشية ؛ خلافاً لما نلاحظه في أرياف سورية . فغطاء الرأس « الطاقية » يتحدد إلى أبسط مظاهره بغطى قمة الرأس لكنه لا يحميه من الشمس . غطاء مصنوع من اللباد يميز الفلاح المسكين الذي يسمونه « أبو لبدة » وهو اسم البطل الشعبي لقصص عدة . وعندما يكون الفلاح أكثر سعة أو أكثر تديناً يحيط غطاءه بقماش أبيض (أثر عربي) وتكون اللبدة الجيدة عميقة تصل إلى الاذنين . أما الثوب الازرق القطني

« الجلبيية » فهو بدون رقبة وبدون حزام ، تقفل إلى أسفل الصدر . وعند الشغل يقلب الفلاح جلبابه ويثنيه إلى ركبته ويرفعه على صورة قميص قصير (أنظر الشكل ١٢) أو ينزعه ويطويه ويضعه في مأمّن إلى أن يستعمله كوسادة ساعة الراحة . وإذا ذاك يبدو في لباس أبيض وسروال واسع يغطي ساقيه مربوط فوق الخاصرة بحبل صغير ، صدره فوق القميص الذي يهفّف طرفاه على منتصف الفخذين فوق السروال . ولكن عندما يشتد الحر ينتزع الفلاح صدرته بل قميصه ويشغل عاري النصف الأعلى . وطبيعي أن تكون قدماء حافيتين غير أنه يملك نعلين سميكين من جلد أصفر يلبسها في الأعياد ؛ وهما من الصناعة المحلية . والطفل يبدو عارياً كذلك تحت جلبابه القصير غير أن البنت تلبس أنسجة قطنية ذات نقوش ملونة وتتميز فيها الخاصرة . وهي دائماً محجوزة الشعر في منديل من شاش معقود من زواياه . أما النساء فحين يخرجن يغطين رؤوسهن ، وعندما يلتقين رجل يحجبن أسفل الوجه بنقاب طويل أسود . ثيابهن مقفلة عند العنق والرسغ ولا تضيق عند الخاصرة .

تلك هي مظاهر الاسرة الريفية التي ينبغي أن نعقبها بدراسة نفسية رغم وعورة الطريق . وقد يمهّد لهذه الدراسة ما أشرنا إليه من الوحدة التي يمتاز بها الريف المصري والتي تسمح لنا بدراسة الفرد أو الأفراد كنماذج للجماعة . فلنبداً أولاً باستماع الآراء السطحية التي نسمعها من أسياد الفلاح . يقول بعضهم عنه إنه كسول يفضل الاستعفاء على التعب ، يقسم الايمان ويتظاهر باخلاصه ولكنه مخادع جبان ... ويقول آخرون إنه متفائل مسالم مخلص للأرض سعيد بحظه حافظ للجميل ... أما الملاحظة العلمية فتقول إن عمومية ذكاء الفلاح أكثر من خصوصيته ، ولكن جموده أكثر من حركته . (١٠) يحافظ الفلاح ويعيد ولكنه لا يتكرر . والتحسّنات في الزراعة إنما هي مفروضة عليه فرضاً ولعل كثرة القبول والتلقي

جعلت ذكاه هزيبلا وشخصيته سلبية . لم يعد مهتماً إلى البحث عن جديد والتعرض لأخطاره « الذي تعرفه أحسن من الذي ما تعرفوش » (٢٠) هذا الضعف في الشخصية والابتكار يشرح بدوره فقر روح الجمال عند الفلاح . هو في ملبسه وحقله موضوع فن الآخرين ولكنه هو نفسه غير مدرك لجماله وجمال محيطه . وكان بالامكان تربية هذه الناحية فيه لأن حبه للأرض والحقول وميله إلى القصص والالوان وملكنه في المزج والفكاهات ، كل ذلك موجود فيه . (٣) قابليته لإعادة والتكرار أكثر من قابلية الفهم . إنه ماهر في عمليات حسائية تصحح أحياناً نتائج الاختصاصيين ، ماهر في نسخ النموذج وتقليده واستعادة الذكرى من كلمة أو زيادة أو حادثة ... غير أنه بطيء الفهم سطحي الإدراك . ومع ذلك حين يكون طفلاً يكون فهمه نشيطاً في المدرسة أو اللعب ، ولكنه بعد الخامسة عشرة يتبدى في الثقاقل . بل نضوجه قبل الالوان (وهو إحدى نتائج المناخ) يجعله يتفوق على الاطفال الغربيين . فماعسى أن يشرح البلادة في سن الرشد !

ينسب بعضهم ذلك إلى عدم كفاية الغذاء ، ولكن النمو البدني لا يقف . إذن لا بد من سبب آخر يراه آخرون في المناخ ؛ لأن الفراس الذي ينبت بسرعة زائدة على الحد لا يلبث أن يقف عن النمو ثم يهوي على نفسه . ولكن بعض الفلاحين صاروا أطباء ومهندسين أو على الأقل تجاراً وموظفين ... إذن لا بد من سبب ثالث وهو البيئة الاجتماعية التي توقف ذكاه الفلاح الشاب من اندماجه في الجماعه الجاهلة ومن نوع الحياة الذي يحنيه على الأرض ويجعله يكرر إشارات بعينها . إن الذكاء الذي يربو بمكتسبات جديدة لا يجد مجالاً في هذا العالم القديم المحافظ ، عالم القرية المصرية . قد يبدو أن الفلاح يعوزه المنطق لكن الواقع يدل أن مفاهيمه لا تخلو من معادلات دارجة على الأقل . . . تسأله

مثلاً : « على أية مسافة نحن من قرية كذا ؟ » فيجيبك « على بعد قرش واحد في الاتوبوس » . إن الفلاح بدائي كالطفل تخضع عقليته للمحسوسات ولا يبحث عن العلل ونظامها العقلي إنه رجل الحاضر المتعاقب ، وهذا هو السر في أنه يبدو غير منطقي . وعدم عنايته بالمستقبل ناشئ عن هذا العيب العقلي الذي يقيه فقدان التعليم والتربية . هو يحرم نفسه مثلاً طوال السنة حتى من الضروري ولكن عندما يحل العيد ينفق كل شيء في يومين أو ثلاثة . وإذا امتلكت يده بضعة جنيهات مربوحة أو مقترضة فهو لا يشتري الآلات والسماد لتوسيع الانتاج في حقله وإنما يستدين ديناً آخر ليشترى قطعة أرض مجاورة له فيظهر بمظهر المالك الأقل صغراً . وعند موعد الدفع ... سترى « تفرج » . وكذلك ربة المنزل لا تملأ مصباحها إلا مع بدء الليل ، والحراث لا يشتري البذور إلا في ليلة البذر ولا يدفع دينه إلا بحال الجبر ولا يدعو الطبيب إلا بحال اليأس .

إن الفلاح يثق إلى حد التصديق بالأشخاص والأشياء المقدسة التي تستطيع أن تنيله الخير المشتهى كالنسل والصحة (١) والانتقام ... غير أنه إلى جانب ذلك كثير الحذر من زملائه الفلاحين وأقربائه . على أن هذا الحذر له ما يبرره من نظام المظالم والوشايات ويبرر موقف الفلاح الفردي في حياته الشخصية . حينما يدخر شيئاً ، يفعل ذلك في أشد الأحوال خفاءً ، وإذا زاول مهمة قيمة يحتاج كل الاحتياط من أن يتناولها بالحديث ، لأن الشقاء يتبع السعادة حالاً . ولكن حينما لا تكون مسائل المنافع والأرض والنساء — وهي المسائل التي تجلب

(١) يخلط السحر بالطب في الاستعمال التقليدي لمنتجات الأرض لأجل حفظ الصحة أو إعادتها . وقليل من التجارب وكثير من الخرافات يوضحان تلك المجموعة المدهشة من الوصفات والتعويذات الموجودة لدى الفلاحين . انهم قد كونوها مما تحت أيديهم فتقع خوص النخل أو ورق الذرة لاضطراب الأمعاء ، وعصير البصل وفحم حطب القطن للأعين ، وصمغ السنط للعظام المكسورة ، وأربطة القف للأورام والروماتيزم ، الخ . والمرجع الموثوق في هذه العلاجات انما هو الحلاق والقابلة اللذان يمارسان طبابة القرية كما أشرنا (ص ٣٩) .

التفرقة — هي موضع الاختلاف يعيش حياته مع أمثاله جنباً إلى جنب . إن الفلاح يحب للجاعة في عمله وفي متعه وحداده ، وقد تتحول هذه الجماعية إلى تماسك شديد عندما يكون تحت خطر عاجل تنبغي مواجته ، وفي ذلك فرصة للتباهي والظهور . والفلاح مرح ما دام لا يرهق نفسه بالماضي والمستقبل . وعندما يأتي أمر يعكر الساعة ولا يكون شديد الضغط فانه يعتمد على قوله غداً «بكرة» وما دام لا يؤمل فيما هو أحسن فلماذا النشاط ؟ إن تناقله يعود إلى « كيفه » ، وهو صبر من نوع فريد تعلمه من طبيعة الارض بدون أخطار المناخ . قد يذهب إلى القطار قبل وصوله بعدة ساعات ولكنه يذهب إلى الموعد بعد حلوله بعدة ساعات . أما الضبط والتحديد والاسراع ... فلماذا ؟ هو صبور ومسالماً لكثرة خضوعه للناس والأشياء ولكنه لا يخضع لأمثاله وقد يسود كأسياده في مسائل النساء : (١) لا يخضع لأمثاله من حيث تعديهم على حقوقه ؛ إذ يكفي اختلاف على قرش أو دجاجة لحدوث نزاع بل تكفي إساءة أحد رفاق ابنه أو وشاية إحدى جارات زوجته ... عندئذ يشاهد الفلاح المفرط في تحمل العسف من أسياده مفرطاً في الحساسية تجاه الفلاحين ، وغالباً ما يكون الثأر في الخفاء كأن يجري في الليل وباحتياطات لا نهاية لها . (٢) يسود كأسياده ويتساوى معهم في مسائل النساء التي هي مع مسائل الارض تبسط عليه أكبر السلطان . وحينئذ لا يكون هناك ثري وفقير ولا لعال والسلطة أي مفعول . يعرفون ذلك الملاكون جيداً فلا يستطيعون التصرف في القرويات الذاتهم . ويروى أكثر من مرة أن أحد « البكوات » قتل على باب داره لأنه أفسد إحدى الفلاحات .

يدل قتل الثأر عند الفلاحين على الحدة أكثر من دلالاته على الشر . فهو ينم عن أن دماهم حارة وأن الحياة البشرية لا حساب لها أثناء حديثهم . غير أن هذا الهياج لا يكاد يدوم لأن الحالة العادية التي تسترعي انتباهنا هي « الاذعان » الذي

تنبئ عنه الامثال الريفية الكثيرة : « طولة البسال تهد الجبال » « طولة البسال ما تخسرش » « يا شارى الخبر بفلوس بكره يبقى بلاش » . وقد يصل الازعان إلى حد الذلة والوضاعة بتأثير الضغط أكثر من تأثير الفاقة والفقر . . . لقد عومل الفلاح كطفل أو بهيمة ولا يعرف من الطبقة العالية التي تسوده إلا جانبها الخشن : الضربات الغرامات الشتائم ... التي صيرته أخيراً غير حساس بها . ينتج مما سبق أن الفلاح قابل للتربية . فإذا كانت عنده فكرة العدالة فاسدة وتموزه الصراحة والثقة فإن التربية الاجتماعية لم تعلمه هذه المحامد . وإن كان انكبابه على العمل بدون ميل وإخلاص وبدون تصميم وابتكار فهذه الثغرات خلقتها الجهل والطفيلان اللذان بدورهما أفسدا فضائل الفلاح نفسها كفضيلة الصبر والثبات المستقاة من طبيعة الارض ... والفلاح رجل أخلاقي لأنه يؤمن بالله وهو وإن كان مادياً فليست المادية مذهبه . هو متقشف بتأثير الارض ويلجأ إلى العناية الالهية « إن شاء الله » ولا ينزع إلى الجريمة إلا في حالة استثنائية . إن الرقابة المتبادلة والروح المحافظة وحب الحياة كل ذلك يجعل الجنايات الاخلاقية في مصر أقل منها في البلاد الماثلة كما يجعل الاعتداءات على العرض بين الفلاحين بأقل نسبة صغرى في مجموعة المخالفات القانونية .

مول اصلاح الريف المصري :

يرجع عهد اليقظة في مصر إلى نحو نصف قرن : (١) فمن الوجهة السياسية تحررت من تركيب من انجلترا . ومنذ ١٩٢٣ صار لها سفراء وقناصل في الخارج وحياة نيابية في الداخل مع المعارضة والاحزاب والبرامج . غير أن الحياة السياسية لا تكاد تحرك إلا عشر الاهلين والباقي الفلاحون مواطنون غير مدركين وغير منظمين (٢) من الوجهة الاقتصادية تقدمت مصر ولم يظهر المعجز

في ميزانيتها بل تمتعت بامتلاك الاحتياطي وبالنمو المطرد في انتاجات الجمر وكأموال الشركات والسكة الحديدية وزراعة القطن وامتدادات الري والصناعات المحلية . غير أن هذا التقدم لم يرافقه تحسن الفلاح . بقي مستواه كما كان بل إن ثباته مع الرضى والقناعة كان سبباً لتلك الهناوة الرأسمالية التي بقي معها استثمار القطن وقصب السكر محصوراً بأصحاب الاموال . ٣) من الوجهة الفكرية تجددت مصر وكثرت منذ عهد فؤاد الاول المؤسسات العلمية والفنية مع إصلاحات الازهر ولكن السواد الاعظم بقي جاهلاً . لقد بقي الفلاح متديناً ولكنه لم يسطع بالثقافة الدينية التي بقيت محصورة في علماء الازهر كما بقيت الثقافة الجامعية محصورة في صفوة الشباب الحضريين . ولم تؤد وظائفها في تبسيط العلوم للشعب لا الجامعات العلمانية ولا المعاهد الدينية وكذلك الصحافة رغم تقدمها وتوسعها . إن بؤس الفلاح يأتي من جهله مع وجوده في علم متطور . وكادت تزيد هذه النهضة في إظهار عزلته وتبعيته لولا حدوث بعض التطور في الازمنة المتأخرة . ١) إلغاء السخرة نسبياً ووضع حد لاستبداد الباشاوات . ويرجع هذا التحديد في بدئه إلى اللورد كرومر الذي كان يفكر في الفلاحين . فألغى « الكراباج » وتحدد تسليم الضرائب بنسبة ووقت معقولين وصار الفلاح يعرف ما لا يجب دفعه ، مثلاً في حال عدم الانتاج بسبب الجفاف أو الفيضان .. ٢) احتفاظ الفلاح بمنزله الصغير وبعض أملاكه كحد أدنى . ويرجع هذا الحفظ في بدئه إلى اللورد كتشتر خلف اللورد كرومر . وذلك باصداره عام ١٩١٢ قانوناً يقضي بأن يكون منزل المزارع الصغير وآلات شغله وحيواناته من حيوانات الحمل والركوب وخمسة أفدنة غير قابلة للحجز عليها . ٣) وجود عدالة وقضاء يلجأ إليها الفلاح حين النزوم . وهو وإن كان لا يعرف استخدام السلطة التشريعية لكنه الآن في طريق التعلم والاسترشاد ٤) إنشاء بنك التسليف الزراعي الذي تطور عام

١٩٣١ بمعاونة مصارف القاهرة وصار يساعد صغار الملاك بفائدة ٧ ٪ وجمعيات التعاون بفائدة ٥ ٪ . وبينما كانت عدد الجمعيات التعاونية (١٤٧) عام ١٩٢٧ ، إذابه يرتفع إلى (٧٠٣) عام ١٩٣٥ . إن فوائد هذه الجمعيات واضحة فهي تلغي الوسطاء المفسدين وتنظم الانتاج والائتمان وتحسن الكيفية والكمية ، وتشري وتبيع بأفضل الشروط وتعنى بالخدمة الاجتماعية بما يفيض من أرباحها كإصلاح القرية في شروطها الصحية والتربوية . ٥) تأسيس محطات جديدة الماء من وقت إلى آخر ، وقد مهتت « مديرية الفيوم » البعيدة عن النيل بمؤسسات نموذجية ولكن الفلاحين لبسوا معجولين الاستفادة من هذه النعمة . ففي النخيلة مثلاً وهي قرية ضخمة دخل عليها الماء بعناية مجلس قروي نشيط ... غير أن النساء بقين يفضلن ماء النهر الجباني على أن يدفعن مليماً واحداً ثمن الصفيحة . ٦) إنشاء القرى النموذجية . ففي عهد محمد علي نشأ « بخيط الميزان » نحو عشرة بلاد ولكنها سرعان ما تأثرت بالقديم الذي كان أقوى من الحديث تأثيراً . وفي عام ١٩١٤ افتتح الخديو عباس الثاني ثلاث قرى مستقيمة الشوارع ذات مساكن تتألف من حجرتين وردده ... غير أن الفلاحين حولوا هذه المنازل حسب حاجاتهم . ومع ذلك فإن اليأس لم يحصل لأن القائمين بالأمر عاودوه بعد عشرين سنة وحدثت انشاءات مماثلة في عهد الملك فؤاد الاول وظهرت منازل كثيرة مبنية بالآجر ذات سقوف من الاسمنت المسلح ... وفي عام ١٩٣٦ قدمت الجمعية الملكية الزراعية صورة واقعية أخرى : عشرين منزلاً كل أربعة منها متصلة معاً وقائمة على شوارع بعرض ستة أمتار ... هي مبنية من اللبن ذات سقوف خشبية لكنها أقل تكليفاً من النموذج السابق . غير أن عدداً محدوداً في أوساط واسعة « كنقطة في بحر » لا يكفي . فالأفضل كما قالت المعارضة : إنفاق المال في مشروعات أعم نفعاً كتزويد القرى بالماء الصالح مجاناً ... هو خير من التفريق بين القرى .

وعن ذلك نتج مشروع الخمس سنوات لاعادة بناء أربعة آلاف قرية في مصر ، ولولا أعباء معاهدة ١٩٣٦ الثقيلة لكان المشروع سائراً في طريقه . (٧٠) بروز مؤسسات أهلية منذ ١٩١٨ في سبعين قرية وهي « مجالس القرى » المعدة لأن تصير مجالس بلدية ذات مستقبل واضح مع انتشار الديمقراطية . في الوقت الحاضر يظهر نشاطها برش الماء في الشوارع الاساسية وتنويرها بمصابيح مع إنشاء حديقة صغيرة ... وكان الجميع يتمنون أن تكون أكثر تمثيلاً للقرى ، غير أن الروح الجماعية لم تنضج بعد ، ويبدو أن ميزانيتها في صالح الموظفين لولا بعض الخدمات البارزة : مستشفيات وصيدليات مجانية منها الثابت ومنها المتنقل لمعالجة الانكستوما والبلهارسيا . ثم مؤسسات الطفولة مع الممرضات المتنقلات بحسب الحاجة من توليد وسواه .

ليس في مقدور القرية النموذجية أن تجعل من الفلاح رجلاً سليم الصحة بريئاً من العاهات ما دام يحتفظ بمقليته وسط التحسينات المستمرة . فهو بهذه العقلية ينبذ مثلاً الماء الصالح للشرب كما يفسد (بطريقته في الحياة) المنزل المنير الطلق الهواء . إنه لن يعرف الاستفادة من المؤسسات والقوانين المنشأة لمصلحته؛ فينبغي أن نبدأ بتعليمه قبل كل شيء . على أن هناك نظرية ترى في تعليمه سبباً لبؤسه : لقد وقف أحد النواب عام ١٩٣٣ يؤيد أن تعليم السواد الاعظم شيء غير مرغوب فيه ، وهو كاتنتجار للبلاد ... لا شك في هذا إذا كانت التعليم يجري بدون تربية ويقتصر على المناهج الرسمية للتعليم الالزامي ؛ لذلك رأت اللجنة في ميزانية ١٩٤١ « أن يعيد القائمون به تنظيمه من أساسه معتبرين ضرورة إعداد الشباب لحياة القرى ، لكي يرفعوا مستوى الانتاج الزراعي » . أما كره الارض والهجرة إلى المدن فانها يأتیان من البؤس نفسه لا من التعليم . لأن الفلاح حين يتحمل يؤمل أن يجد في المدينة ما يربحه ليعود على الفور إلى بلده . وفي إحصاء

عام ١٩٣٧ يظهر ثبات التوازن رغم ارتفاع نسبة المواليد والانخفاض النسبي في الوفيات . وقد يظهر النفور من عمل الارض الشاق في بعض المهاجرين لكنهم أقلية : منهم الفلاحون الذين أقاموا طويلاً في المدينة ومنهم فلاحو القرى المتطورة نحو العلم الذين يتباهون بالمظاهر دون الجواهر . على أن القرى المحيطة بالقاهرة تبرهن على وجود مستعمرات للفلاحين حقيقية يمكنهم فيها مجتمعين ومحتفظين بأكثر قدر ممكن من عاداتهم القروية . وفي أغلب الاحيان يهاجر الرجال وحدهم تاركين النساء والاطفال أملاً في العودة بعد جمع المال . وهم يعرفون جيداً أن العامل القاهرة لا يحيا حياة أقل قساوة من حياة الفلاحين في الحقل ، هذا فضلاً عن كونه معرضاً للتعطّل الخطر الذي لا يتعرض له الفلاح . وحين يذهبون إلى المدينة يتبعثرون في أكوامهم في الاحياء الفقيرة ويؤلفون سواداً طفيفاً عليه مساحة البؤس إلا من ربح تجارتهم وحسن حفظه ، والباقي إما يدخلون السجون كمجرمين أو يعودون إلى قراهم بخفي حنين بعد أن لم يظفروا بمهنة الجمالين أو الكناسين . ولكي أختم بحثي هذا جدير بي أن أعرض عليكم أمثلة عن الإصلاح الريفي من نوع جديد لم أعرض منه في البحوث السابقة . فقد عرضت مساعي الحكومات فقط والجمعيات ، مع العلم أن مساعي الافراد لا تقل أهمية عنها . وفيما يلي نماذج منها ملتقطة من الكتاب ذاته : (١) محاولة ناجحة أجراها رجل إغريقي يملك قرية خاصة « عزبة » من عزب البحيرة مساحتها ١٦٠٠ فدان . لم يكن المالك بأن يبنى لقرويه منازل جميلة بالآجر والاسمنت المسلح ، بل كان يستقدم كل اسبوع من المدينة طبيبين ، أحدهما للصحة العامة والآخر للاسنان . وأنشأ مدرسة نموذجية ترافقها مسعفة اجتماعية هي أولى خريجات مدرسة الخدمة الاجتماعية بالاسكندرية . وهذه الشابة المصرية لا تقيم في « فيلا » المالك أو في منزل الناظر ، بل على مقربة من الفلاحين وفي المدرسة في غرفة صغيرة صيرتها جميلة . في الساعة ٨

توزع الادوية مجاناً . في الساعة ٩ تقوم بالزيارة الصحية للمدرسة . بعد ذلك تذهب إلى المنازل متعقبة في رقة ولطف سوء النظافة أو عدم الترتيب وقد أعدت لكل أسرة بطاقة تسجل فيها التقدم ... وفي كل مناسبة تجمع الفلاحات الشابات وتلقي عليهن دروساً في الخياطة وتربية الطفل . وفي المساء تجمع الرجال لتقص عليهم قصصاً وتعلمهم كيف يسرون عن أنفسهم . وبعد مرور سنة أصبح نساء القرية يستحمن كل أسبوع بعد أن كن لا يستحمن إلا مرة كل عام . . .

(٢) محاولة أخرى وإن كانت أشد قدماً ، لكنها نجحت بتفوق . أجراها رجل أنزاسي كان ناظراً في « أبعدية » في مركز السنبلوين . وهو من أصل قروي قوي عاش في تلك الأبعدية مع زوجته فاستثمر فيها ٤٠٠ فدان بالزراعة المباشرة وكانت كالجنة في النظام والصحة . أما الماء الصالح فهو محقق بواسطة مضخة مثبتة عند مدخل العزبة حيث يوجد المسجد ذلك المسجد الجميل الذي بناه المالك المسيحي وعين له إماماً على نفقته ليجمع رجال العزبة والعزب المحيطة بها . يقطن فلاحو العزبة في ٣٦ منزلاً وكل أسرة قطعة من الأرض المجاورة تكسب فيها الخشب والسماد دون أن تستخدم سطح المنزل لهذا الغرض ... يتقاضى كل عامل يومياً ٣ - ٣٥ قرشاً ويرتدي الجميع كل عام ملابس جديدة على حساب المالك فضلاً عما يوزع عليهم من اللحوم والفواكه في مناسبات عديدة ، وعندما يكون الفلاح مستدينساً يقدم إليه الناظر ما يلزمه بدون أن يخدعه ثم يستوفي حقه من أيام عمله بالتدريج . وعندما يمرض يرسله إلى الطبيب أو يعالجه بعض الشيء هو نفسه لأنه تمرن على هذه المعالجة من تكرارها والاعتياد عليها . تساعد في ذلك زوجته التي كانت تغسل أعينهم وتعطيهم الملابس أحسن العادات . إنها كانت دائماً حاضرة بينهم ، وقد ظلت على هذه الحال ٢٤ سنة إلى جانب زوجها . والفلاحون الذين يحفظون الجميل ، عندما علموا مرضها في القاهرة تجمع ٣٠ رجلاً

منهم في سيارتين وارتحلوا إلى المستشفى كأنهم في مظاهرة ؛ وكم كان ألمهم شديداً وحادهم عاماً حين رأوا الناظر العزيز مع أولاده يعودون من المفبرة بألبسة سوداء . لقد تركت هذه الأم لابنتها مثلاً تسير على منواله ... ودبعة باسمه متحدة بالهربية وكم كان يحبها الفلاحون ويحبون حديثها . والجدير بالذكر أن الناظر لم يفتقر بسبب هذه العدالة الاجتماعية بل بقيت ولا تزال الضيعة لإحدى ضيعات مصر الآن أكثر إنتاجاً ، ومنتجاتها تنال الجوائز في المعارض الزراعية . ٣) محاولة أخرى أيضاً نجحت بتعاون خمس فتيات مصريات في « قلو صنة » بالوجه القبلي . لقد أنشأن مدرسة صغيرة خلال ثلاث سنوات اعتباراً من صيف ١٩٣٣ لأن مدرسة الحكومة كانت بعيدة عن القرية ! وقد استعرن من إحدى السيدات مكاناً وسط البلد مؤلفاً من حجرتين واستقبلن نحو ٦٠ طفلاً أكثرهم بناتاً بين الـ ٦ - ١٧ سنة . وكان الجميع يواظبون على التعلم والاسترشاد بتقديم محسوس وبينما كان كل تنظيم في البدء صعباً حتى تنظيم اللعب نفسه إذا بالأطفال قد اتهموا بأن فهموه وطبقوا عليه القواعد بكل مرونة ...

هذا هو عمل الصفوة المختارة التي يمكن أن يتسع من الاجزاء إلى الجماعات أو من الجماعات إلى الافراد . والافراد على اختلاف أنواعهم مدعوون لهذا الواجب الانساني ، المهندس ، الطبيب ، المدرس ، الممثل ، الصحفي ، الروائي ... كل بحسب اختصاصه مثلاً الصحفي بمقالاته المتسلسلة والروائي برواياته التي نذكر منها رواية « عاصفة على الريف » السينمائية التي أثارَت مشكلة الفلاح مع رؤسائه بصراحة وشجاعة كل ذلك بإشراف حكومات صالحة . والخلاصة لا بد أن نقول كما قال الأب عيروط في معرض ذكره التطور في مصر « إنه يبدأ بانشغال مصر المتطورة بمصر غير المتطورة » وتعبير آخر: يبدأ التطور بأن تعنى مصر المتعلمة بتعليم مصر الاملتعة .



شكل (١١) الفلاحة التي ترضع وليدها بسخاء ولكن بغير تبصر ولا نظام
إلى يسارها قربة من الجلد لفرز الزبدة من الحليب المأخوذ من الماشية



شكل (١٢) الفلاح المصري أثناء العمل ومعه فأسه كاستطالة من أطراف جسمه ويبدو من طابعه الخارجي (لباس الرأس ، الشعر المجعد ، الخ . .) مختلفاً عن الفلاح الآسيوي ومتشابهاً مع الفلاح المغربي بحيث يمكن تقسيم ميدان الفلاح العربي إلى قسمين : ١) ميدان الفلاح المشرقي « آسيا العربية » . ٢) ميدان المغربي « أفريقيا الشمالية » . ويفيدنا هذا التقسيم خصوصاً لبيان الفروق الاقتصادية وتناقص نسبة الرفاهية في المسكن واللباس في الجهات المغربية . أما الطابع الداخلي أي نفسية الفلاح فهو مشترك يوحد الميدانين إجمالاً



شكل (١٣) الاسعاف الاجتماعي
المسعفة الاجتماعية تروي القصص الصحية على قرويات صغيرات هن نساء المستقبل

أخطاء مطبعية

ص	س	خطأ	صواب
٤٣	٤	ورقي إدارات	ورقي وسائل الحياة والراحة
		« «	(يحذف السطر الرابع ونصف الخامس)
٥٥	٣	وبسبب	ويسبب
٦٨	٢٠	تندوج	تتدرج
٨٢	١٠	نهي	فهي
٩١	٥	كتاب	كتاب (١)
١٠٤	١٢	يضاف تحت السطر ١١ مايلي: يا حصاد الحر مر	جرني عالمي جر
١٠٩	٢	كا	كا
١١٥	٤	تأيسه	تأيسه
١٣١	١٠	أقصر	أقصى

فهرس موقف للبعز الاول

ص			البحث الاول
٩	أين يقع علم الاجتماع الريفي من علم الاجتماع		« الثاني
١٦	علم الاجتماع الريفي ، طرائقه ومفاهيمه		« الثالث
٣٠	خصائص الحياة الريفية إجمالاً		« الرابع
٤٧	العوامل الایكولوجية في تكون القرى والمدن		« الخامس
٦٥	الريف السوري (القسم الاول)		« السادس
٩١	(« الثاني)		« السابع
١٢٣	الصفات المشتركة لأرياف الشرق الأدنى		« الثامن
١٦٢	الريف العراقي		« التاسع
١٨٢	« المصري		

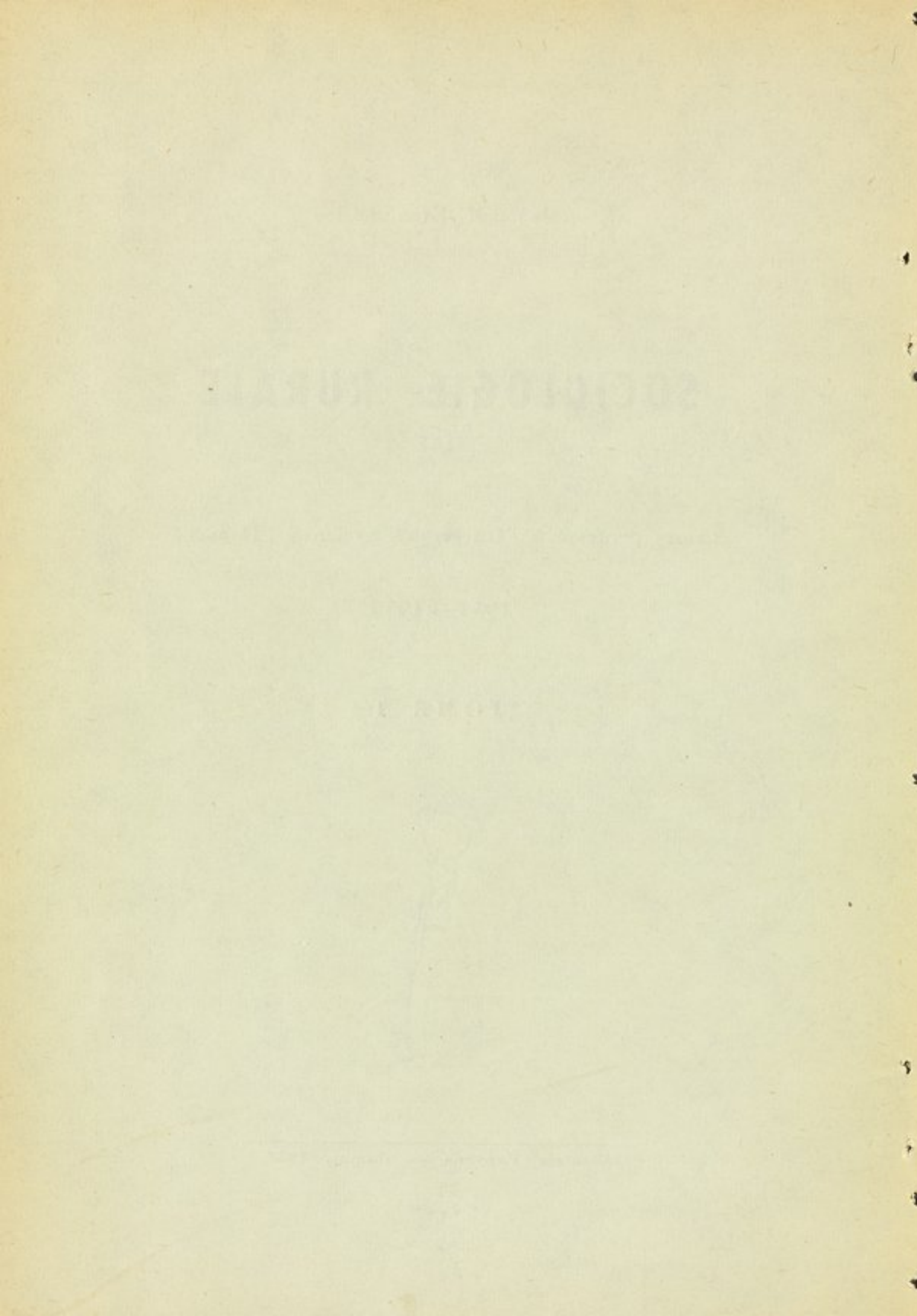
سازمان اسناد و کتابخانه ملی

سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

کتابخانه مرکزی و اسنادخانه ملی

انتهى الجزء الاول

ويليه الجزء الثاني حاوياً على نماذج من الأرياف
في الشرقين الأوسط والأقصى والغريين الأوربي والأمريكي



Jamal MOUHASSEB
Docteur en philosophie (Genève)

SOCIOLOGIE RURALE

Cours professé à l'Université Syrienne (Damas)

1954 — 1955

TOME I



Librairie Papyrus — Damas, 1955

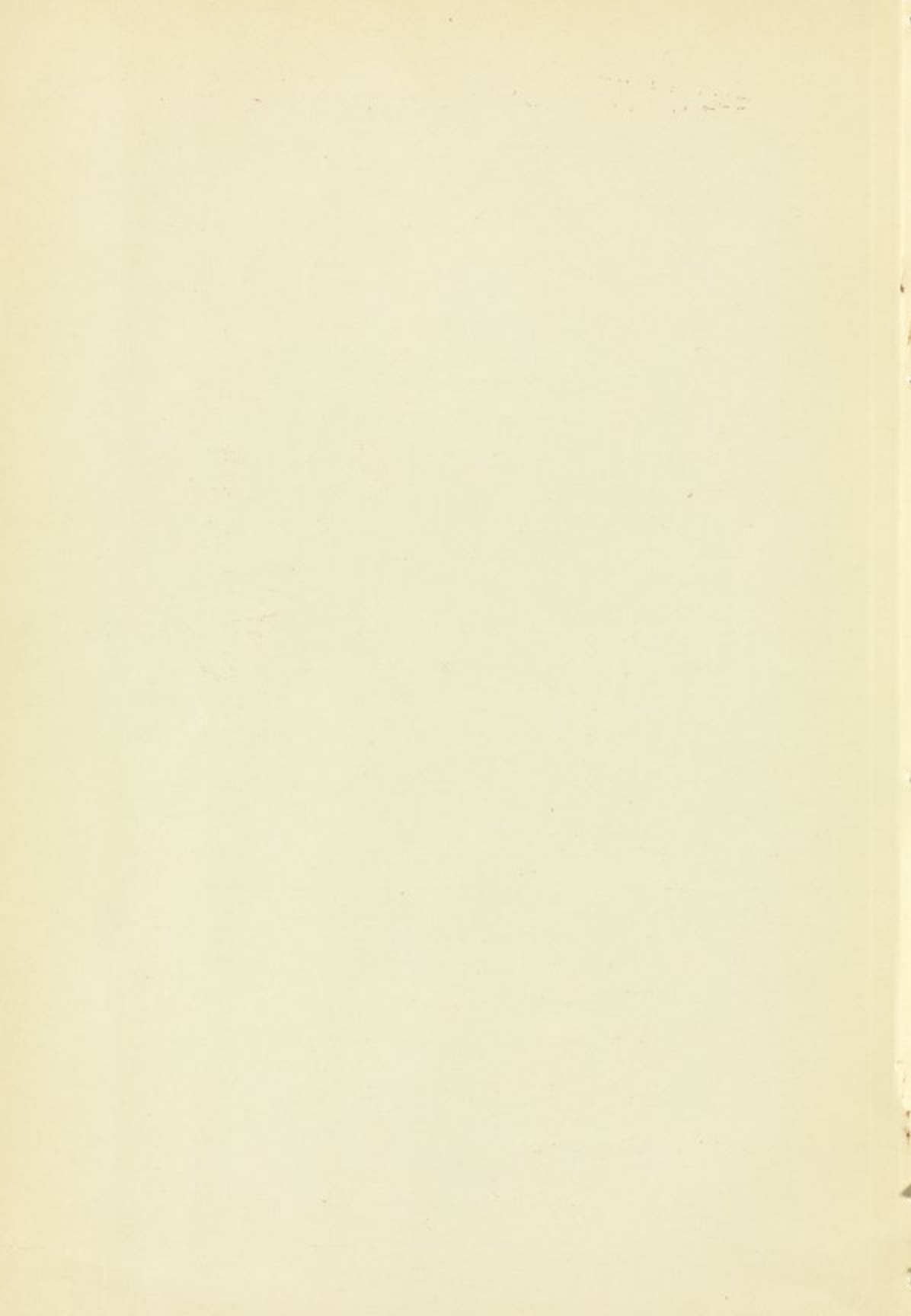
المؤلف Du même auteur

بالغة العربية en arabe

- ١ — الاخلاق والتربية المدنية (الطبعة الثانية) دمشق ١٩٤٥
- ٢ — الانشاء الفلسفي : مواضيع علم النفس (الطبعة الثانية) دمشق ١٩٤٧
- ٣ — الفلسفة : المنطق والاخلاق وما وراء الطبيعة (الطبعة الثانية) دمشق ١٩٤٨
- ٤ — محاضرات علم الاجتماع الربيعي (الجزء الاول) دمشق ١٩٥٥
- ٥ — سكولوجية التربية القومية (طبعة ثانية موسعة) تعد للطبع

بالغة الفرنسية en français

- 1 — La pépagogie d'Ibn Khaldun (Mémoire présenté à l'Université Saint Joseph, Beyruth 1946) .
- 2 — L'esthétique : philosophie évaluatrice et science positive (Mémoire présenté à l'Université de Genève, 1952) .
- 3 — Essai sur la classification des sciences (Thèse présentée à l'Université de Genève, 1953) .



دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

تقدم من

سلسلة عيون التراث العربي

١

مخطوط نادر

حجرات الوكايع

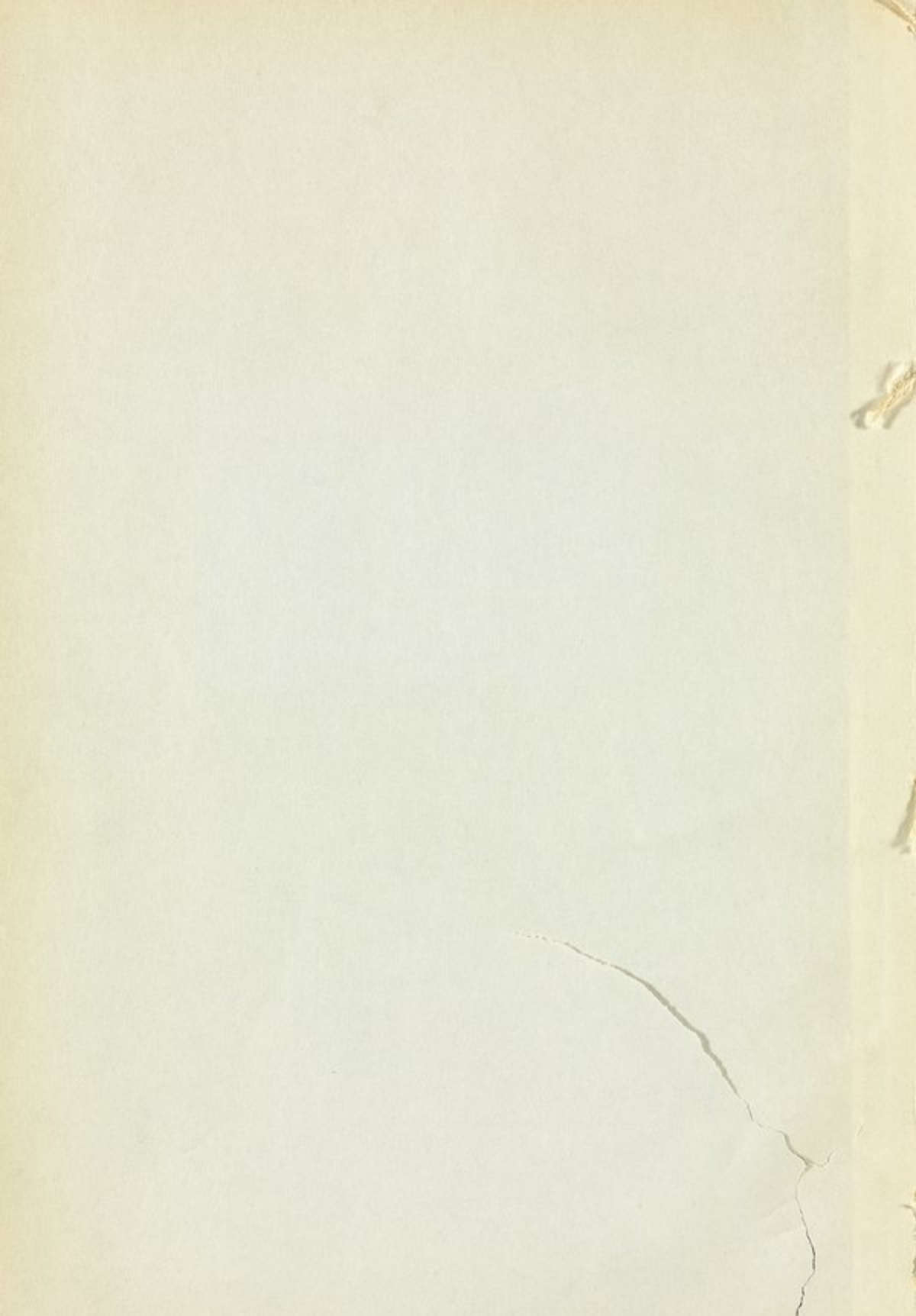
لأبن حزم الأندلسي

وثيقة تاريخية دقيقة لرحلة الرسول المعظم . وهو مخطوط نادر كان ضائعاً في ظلام الجهول وقد جمعت جذائحه وضم بعضها إلى بعض من استنبول مدريد وليبيا . وقد تتبع فيه ابن حزم خطوات الرسول المعظم (صلى الله عليه وسلم) في هذه الحجة خطوة خطوة منذ خرج من المدينة حتى دخل مكة . ورافقه في خطواته إلى عرفات فنى . ثم عاد معه إلى المدينة لم يترك شاردة إلا قيدها . ثم عاد فأتيدها بأحاديث مروية بأسناد صحيح دقيق . والكتاب هو الأول من نوعه يتناول هذا الحادث التاريخي الكبير منذ عهد الرسول الأعظم إلى عصرنا هذا ؛ يمثل هذا التدقيق طبعة محققة تحقيقاً علمياً صحيحاً

عدد النسخ المطبوعة محدودة

تطلب مطبوعاتنا ومنشوراتنا من جميع المكتبات الكبرى

في جميع أنحاء العالم العربي



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072571241